"الحب.. شكل من أشكال العَتَه الذي يُمكن العلاج منه"

الحب لم يَعُد مُناسبًا

ميلّا ڤينتوريني

ترجمة: إسلام فوزي



روايات مترجمة



الحبُّ لم يَعُدْ مُناسبًا

الحبُّ لم يُعد مُناسبًا

تأليف: ميلا ڤينتوريني

ترجمة: إسلام فوزي

تحرير: هدى فضل المولى

مراجعة لغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: 2017

رقم الإيداع: 2017/1763

الترقيم الدولي: 9789773193195

الغلاف: خالد شريف



60 شارع القصرالعيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

Published first in Italian by Nottetempo, 2014.

Mila Venturini - L'amore non conviene

"Questo libro è stato tradotto e pubblicato grazie ad un contributo alla traduzione assegnato dal Ministero degli Affari Esteri Italiano".

"تمت ترجمة هذا الكتاب ونشره بفضل مساهمة مالية تمنحها وزارة الخارجية الإيطالية"



ميلا ڤينتوريني

الحبُّ لم يَعُدْ مُنَاسبًا

رواية من إيطاليا

ترجمة: إسلام فوزي



بطاقة فهرسة

ڤينتوريني، ميلا

الحبُّ لم يُعد مُناسبًا: رواية من الأدب الإيطالي/ تأليف ميلا ڤينتوريني، ترجمة: إسلام فوزي.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

ص؛ سم.

1- القصص الإيطالية

أ- فوزي، إسلام (مترجم)

ب- العنوان 853

في ذكرى والدي...

"لوكان العشقُ - ذلك الذي تُصاحبه قُبُلات لا طعم لها - تعيسًا، فمَن ذاق طعمه ثم حُرِمَ منه، تعيسٌ ألف مرة".

إيتالو كالڤينو، الفارس الخرافي.




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

سبتمبر

مادة جديدة



وقف "إرنستو" يتأمَّل قِطع البلاط الرخامية المتراكمة في الفناء. شعر بوجود شبه كبير وغير عادي بينه وبينها. كانت إحدى القطع رمادية اللون، ومصيرها أن تُدهس بالأقدام. بينما بدأت قطع أخرى في التحوُّل إلى مثالٍ صُلبٍ لأثاث المدينة. ظلت هذه القطعة الوحيدة في خطر أن تصبح غير مستخدمة ولا فائدة منها.

لم يكن وقوفه متأملًا في البلاط وسط حركة سريعة من الحيوية لا تتوقف ضوضاؤها صُدفةً. كان يقف وحيدًا أمام النافذة الطويلة الجرَّارة. انحنى إلى الأمام ليستند بكوعيه على حافة النافذة، ثم عاد ليقف مستقيمًا. ارتكز بثقله على ساقه اليمنى، ثم ساقه اليسرى. دائمًا ما يكون في حيوية وحركة مستمرة. في النهاية، كان القلق يجد مخرجًا في تلك الحركة الاهتزازية العصبية للركبة اليمنى. لم يكن ذلك نتيجة لعدم ارتياحه جسديًّا، بل بسبب التوتر الذي يسيطر عليه داخليًّا. نوع من الفتور المُظلم المُلازم له، والذي يُعذب من يصاب به بانتزاعه من عالم الواقع.

منذ عامٍ واحدٍ فقط، كانت الخلايا العصبية لـ"إرنستو" قادرةً على أن تقوم بالعديد من الأنشطة المتعددة بكفاءة مُبهرة. كانت نتيجة آخر اختبار ذكاء قام

به على سبيل التسلية فقط في إحدى المجلات يصل إلى 120. لكن، مضت الأيام، وأصبح مريضًا مُزمنًا. لم يعد هناك فرق كبير بين "إرنستو" والأبْلَه.

عذابه أنه يجدها دائمًا أمام عينيه؛ كانت "چوليا" قريبةً منه وفي الوقت نفسه بعيدةً عنه. دائمًا ما كانت تفاجئه وهو حزين، ودائمًا ما كانت تُسرع للتخفيف عنه بكل عناية. ثم تعود لتصيبه بالحزن وتجرح قلبه.

ذلك الصباح، جاءت "چوليا" إليه ووقفت أمام النافذة. لم يتمكن من تهدئتها. كانت تهز رأسها الشقراء الجميلة وبها سماعات الأيبود في أذنيها. ابتسمت له.

انشغل "إرنستو" برائحة قلمه الرصاص المبري. كان يفكر من حين لآخر في سبب وجوده على الأرض، دائمًا ما تكون الإجابة هي أن يكون في السرير مع "چوليا". أهم ما في الموضوع هو نقطة الانطلاق والوصول: تتفاعل الحواس مع أي مؤثر خارجي لها: الابتسامة أو الصوت، اليدين أو النظرة. في تلك الأثناء يقاوم العقل مقاومة ضعيفة، لذا فسرعة ضربات القلب والإثارة المفاجئة لهما الدور الأكبر. كان غارقًا في أفكاره تلك، لا حول له ولا قوة أمام سهام "چوليا"، عندما أصاب أذنَه اليسرى لبانٌ ممضوغٌ أجبره على الانتباه للعالم الخارجي.

قال للشخص الذي ألقى عليه اللبان:

- لا تكن سخيفًا يا "چيبّو".

أعادته حركة صديقه إلى الواقع، لكنه سرعان ما عاد لينغمس في تفكيره في "چوليا"، لكن، أعادته ضوضاء الكراسي التي كان يتم تحريكها وصوت خطوات أقدام، إلى الواقع بشكل نهائي.

دخل الفصلَ رجلٌ في الخمسين من عمره تقريبًا. كان وسيمًا بشكل غير عادي، وطويل القامة. شعره طويلٌ يصل إلى رقبته، لونه مختلط بين الرمادي والأسود والأبيض. يداه نحيفتان. لا يرتدي خاتم زواج. يحمل حقيبةً من الجلد

الطبيعي. أمَّا عيناه ذواتا اللون الأزرق الصافي، فتشعَّان بابتسامة مرحبَّة. كان يرتدي قميصًا من القطن برقبة طويلة، كحلي اللون. قال:

- صباح الخير يا أولاد.

استطاع بهذه الهيئة الوجودية وبمظهره أن يشد الأنظار إليه بسرعة فريدة.

بعد أسابيع من الحصص الخالية، قام أحد الأشخاص أخيرًا بالتقدم والظهور من أجل تدريس الفلسفة. تم استقبال الشخص الجديد باهتمام بسبب إعجاب النساء الشديد به، لكن هذا الرجل غير المعروف كان مختلفًا عن كل المترددين المعتادين على المبنى، حيث أوجد إحساسًا عابرًا بالجاذبية؛ فالشباب الخمسة عشرة أيضًا ظلوا مبهورين به. قال الرجل:

- أنا "فيديريكو سيربييري" سأحل محل أستاذكم في مادة التاريخ والفلسفة. فاتكم الكثير من الحصص، لكن من اليوم لن تكونوا وحدكم.

أخذ يتأمَّل مقعده ليرى إذا كان مريحًا أم لا، ثم جلس، ثم أخرج من حقيبته دفتره ومقلمةً وضعها على مكتبه مع برواز من الجلد الطبيعي. قال:

- هذه صورة ابنتي "أُوديليا"، أحملها دائمًا معي. لا أظن أن هذا سيمثل مشكلةً.

ارتفعت ضحكة ساخرة من أحد التلاميذ، لكنها لم تؤثر على "إرنستو" الذي كان في قمة تركيزه لدراسة حركات الرجل الذي كان منتبهًا تمامًا وكأنه في أرض المعركة.

فتح "ماركو" عينًا على المعلم الجديد وهمس في أذن "ميكيلِه"، قائلًا:

- من هذا؟

رد عليه "ميكيلِه":

- واحد غريب. نم أنت!

انتهى "سيربييري" من ملء مكتبه بلوحة ملونة وتليفون محمول، ثم رفع نظره نحو مجموعة الشباب التي كانت أمامه. لاحظ على الفور اثنين من الـ"بيرسينج"، أحدهما على حاجب "چوليا" والآخر على الجانب الأيمن من فتحة أنف "مارتا". كما لاحظ مضغ اللبان غير المنتظم لـ"چيبّو"، ومزاج "إرنستو" السيئ، والنظرة المتشككة وغير المنضبطة قليلًا لـ"چورچو"، وطوق الشعر الذي يضعه "بييترو" على شعره المجعَّد. لم تفوته حتى أيدي "سارة" و"لورينزو" المتشابكة تحت المكتب. بينما لم يجذب الآخرون انتباهه منذ اللحظة الأولى.

كان "چورچو جريجور" يشغل المقعد الثالث من ناحية اليسار. شعره مجعد، مفتول العضلات، له لحية على وجهه الطويل تعطيه مظهرًا أكثر نضوجًا، ويرتدي قميصًا به خطوط رفيعة من إحدى الماركات الإنجليزية. يبدو عليه أنه يعتني جيدًا بمظهره. كانت يده تلاعب الشعر القليل الموجود تحت ذقنه، بينما نظرته تدرس "سيربييري". كان مقعد "چورچو" ممتلئًا بالكتب المرصوصة الواحد فوق الآخر، وملازم ورقية مغلفة، ولاب توب كان قد أغلقه بحركة سريعة بمجرد أن ظهر الأستاذ على عتبة الفصل.

نهض "چورچو" واتجه إلى مكتب الأستاذ ووضع أمام عيني الأستاذ البديل شهادةً طبيةً وقال:

- هذه شهادة لـ"ماركو ڤالينتي"؛ فهو يعاني من مرض النوم القهري، أو التغفيق (ناركوليبسي).

ألقى الأستاذ نظرة سريعة على الشهادة، ثم نظر إلى الفتى النائم في الصف الخامس، ثم أعطى الشهادة لـ"چورچو" مشيرًا بالموافقة قائلًا:

- أشكرك على المعلومة، سأضع ذلك في حسباني.

رد "چورچو" بإشارة تأكيد ثم عاد إلى مكانه.

- إذًا يا شباب، سمعتُ أنكم فصل غير سهل، لكن هذا الشيء لا يهمني. أنتم في السنة الثانية الثانوية، القسم الأدبي الكلاسيكي. يجب أن تجتهدوا بأقصى درجة، فالعام القادم سيكون صعبًا للغاية، وبعدها تنتظركم الحياة في الخارج.

رفع "بييترو" رأسه وأبعد خصلات الشعر المفلفل التي كانت تنزل على وجهه على الرغم من ارتدائه طوق الشعر. للحظة فقط قبل دخول الأستاذ الجديد، كان يقوم بعرض على خشبة مسرح تحت الإضاءة، ويحرك مقعده كما لو كان جيتارًا كهربائيًّا. أثناء حلم اليقظة الذي كان يعيشه، ضحَّى بقلمه الرصاص وقلمه الجاف اللذين استخدمهما كأداتين للعزف. عندما دخل "سيربييري"، عاد "بييترو" إلى الواقع بعد أن أثارت حركات الأستاذ فضوله، ولكن آخر ما قاله الأستاذ خذله. كان ينتظر ابتكارًا وتفوقًا أكثر من حالة «منقول» فقد جهز مكتبه المدرسي لتوه لذلك. ويرى أن الحياة التي تنتظرهم خارج المدرسة هي حياة مظلمة، علاوةً على كونها تهديدًا لا فائدة منه. قال:

- أظن أن كل هذا يبدو مملًا.

تنهَّد "چورچو" مستسلمًا بصوت مسموع، أمَّا "إرنستو" فشرِدَ بذهنه ليتابع رحلة ورقة صغيرة كانت في يد "بييترو"، الذي ناولها لمن استحوذت على عقله.

- ستحصلون على شهادة الثانوية العامة العام المقبل، لذا يجب عليكم الاستعداد بكل قدراتكم الفكرية لأنها ستنفعكم.

ضحكت "چوليا" وهي تقرأ تلك الورقة الصغيرة المليئة بالرسومات والنكات، أمَّا "چيبّو" فكان ينتهي من نقل ترجمة اللاتينية من كشكول "إرنستو" بسرعة معهودة.

- إنها سنوات تكوين يا أبنائي، حتى إن لم تكونوا على علم بذلك، العمل الذي تقومون به هنا سينفعكم دائمًا.

- مَن أرسل هذا الرجل؟ "نوستراداموس"؟

لم يهتم أحد بالرد على "ميكيلِه".

كان "ماركو" رفيقه في المقعد قد استفاق من المشروب المنوم فقط لبضعة دقائق، لكن سرعان ما عاد إلى نعاسه.

- الجديد في الأمر هو أنني لن أعطي دروسًا في التاريخ أو الفلسفة في هذا الفصل. مواد لها كل الاحترام، لكن استخدامها في المجتمع قائم على لغة ميتة.

التصريح غير المتوقع أعاد إلى القاعدة كل السفن الفضائية الصغيرة المتناثرة وانتقل تيَّار غير مرئي من واحدٍ للآخر ليولد طاقة. تركوا خيالات الجنس والمخدرات وحدقت ستة وخمسون عينًا في "فيديريكو سيربييري".

كان "چورچو جريجور" يتباهى بسلوكه كقائد، وبحسه القوي للحماية تجاه النفوس البسيطة مثل "لويچي ريڤولي"، المعروف لدى أصحابه باسم "چيبّو". كان معتادًا منذ أن كان طفلًا على أن يسأل عن سبب كل ما يحدث حوله. وقد نهض واقفًا وتدخَّل قائلًا:

- عذرًا يا أستاذ، التاريخ والفلسفة جزء من البرنامج الوزاري. أعتقد أن حضرتك على علم بذلك.

قام "سيربييري" بتقييم الفتى بداية من قميصه الجميل المقلم، ولغته الإيطالية التي تخلو من اللهجات ونبرة صوته المهذبة. وقبل أن يجيب، ترك مكانه خلف مكتبه وبدأ يسير بين مقاعد الطلاب.

- ما اسمك؟

- "چورچو جريجور".

- نعم يا "چورچو"، البرنامج يتضمن هاتين المادتين، لكن ليس لدي نية في اتباعه. الآن أحتاج إلى أقصى درجة من التركيز وأتوجه أيضًا إلى العقول الأقل تركيزًا.

توقفت نظرة "سيربييري" عند "چيبّو"، الذي كان منشغلًا بالتلوين بالأصفر والأحمر رسمة عضو ذكري ضخم منحوت على مكتبه. قام "چورچو" بنغزه بالكوع، فترك الفتى ما كان يقوم به في المنتصف دون أن يكمله.

عبر الأستاذ الفصل بالعرض ليجبر المستمعين على الاستدارة بجذع الجسد بشكل كامل، ثم هيأ نفسه وسط ذلك المشهد، كممثل، وبحركة بارزة سحب خطًا خياليًا في الأفق وقال:

- أخبروني كيف يُمكن للفرد أن يفكر إذا كان دون عقل؟

بدأت العصبية تنتشر بين الأولاد.

مال"چيبّو" بجسده ضاحكًا نحو "چورچو" الذي يجلس بجانبه، وقال ساخرًا:

- هل تعرف على أستاذة "جالّوسّي"؟

تابع "چورچو" بكل ترحاب تعليقات صديقه، الذي يقع تحت حمايته، لكنه قال له فجأة بلهجة حادة غير متوقعة:

- اخرس! دعنا نسمع ما يريد قوله.

- العقل، يا أولاد، في عمركم هذا يجب أن يكون ذاخرًا، لامعًا، وحاضرًا. سيكون هناك وقت دائمًا من أجل التاريخ والفلسفة...

كان الأستاذ الذي يقلل من مادته يُعد خارج البرنامج التقليدي على الأقل.

- هل معرفة أسباب وتطور الدكتاتوريات الكبيرة، وفكر "چوردانو برونو" سيساعدكم على الحياة بشكل أفضل هذه الأيام؟ فكّروا جيدًا في الأمر. بالإضافة إلى ذلك، أنتم جيل معرض للانقراض.

هنا تركت اليد اليمنى لـ"چيبّو" القلم الرصاص وطارت نحو فتحة أزرار البنطلون، رآه "بييترو" ووجّه لزميله نظرة تفاهم سريعة.

- الانقراض الفكري يا أولاد، على العموم ما زالت الفرصة أمامكم لإنقاذ أنفسكم هنا والآن.

بدا "سيربييري" غير مبالٍ بهمسات الدهشة التي لاحقت خطواته، بينما هو عائدٌ ليجلس على مكتبه.

- أن يجد المرء نفسه في هذا الحيز يمكن أن يكون له معنى واحد: محاولة عدم استنزاف شجاعة مَن هم أكثر جرأة بانجرافات نرجسية وحماية مَن هم أكثر ضعفًا من استسلام كامل للأحداث.

كانت "مارتا" قصيرة ووزنها زائد قليلًا، لها نظرة عذبة تتفق بشكل جميل مع وجهها المستدير. ترتدي زيًّا طويلًا من القطن يصل إلى قدميها، وحول رقبتها الكثير من العقود الملونة. ولأنها كانت خائفةً على الـ"بيرسينج" الجديد، ظلت تلعب في الحلقة الصغيرة المدسوسة في الفتحة اليمنى للأنف متبعة بذلك إرشادات "چوليا"؛ يجب تحريكه بشكل دائري معظم الوقت. أزعجها الأستاذ الجديد، لكن "مارتا" تحب المشاركة، لذا تشجَّعت وتدخَّلت في المسألة.

- معذرةً.. معذرةً يا أستاذ، ربما حضرتك لا تعرف أمرًا ما، لكننا في المدرسة لدينا بالفعل أخصائي نفسي يتابعنا، أو بشكل أفضل يساعد مَن يظن أنه بحاجة إلى ذلك.

عندما انتبه "چيبّو" إلى التلميحات عن صديقه، شعر بنفسه مدعوًا إلى القضية:

- هل حضرتك تريد أن تنتزع العمل من "كاميلّو"؟ ذلك المسكين لا يستطيع أن يكمل الشهر بمرتبه.

أصبح "چيبّو" صديقًا مقربًا للأخصائي النفسي الشاب بالمدرسة، وقد أصبح المريض الأكثر ترددًا عليه.

أراد الأستاذ أن يطمئنه فقال:

- لا تخافوا، فأنا لا أنشغل بعلم النفس، وأنا لا أستطيع معالجة بعضكم، لأنني إذا فعلت، فسوف تعانون من ازدياد في حالة الاضطراب المضادة للمجتمع، فهذا ليس واجبي.

تبع ذلك حالة من الصمت، وعرض "چيبّو"، الذي كانت له روح رائعة، فكرته قائلًا:

- فهمت يا أستاذ، حضرتك تود أن تعمل على راحتنا. أنا متفق مع حضرتك يا أستاذ؛ فهنا داخل هذا المكان ندرس كثيرًا للغاية، وأنا شخصيًّا منهك.

ضحك الفصل كله ضحكات خفيفة وفهم الأستاذ "سيربيبري" أنه استطاع العثور على ذلك الشخص الموجود في كل الفصول، والقادر على نشر البهجة بين الرفاق كلهم. حتى الأستاذ نفسه شعر باستلطاف تلقائي نحو هذا الولد العملاق، الطويل ذي الجسد الرفيع، برأسه المحلوقة عدا بعض الشعر الذي يشبه عرف الديك، مثل أحد رجال قبائل الهورون. الهنود الحُمر الذين كانوا يعيشون في أمريكا الشمالية قبل عمليات الإبادة التي عانوا منها على يد الإنجليز.

- بالعكس، المادة التي سأطرحها عليكم تحتاج إلى الطاقة والتركيز وقوة إرادة ملحوظة.

- هل سيجب علينا تعلُّم القفز بالمظلات؟

وجَّه "چيبّو" ابتسامة لئيمة بعض الشيء إلى الفصل وأعرب زملاؤه عن مشاركتهم له في العبارة المازحة التي قالها. كان "سيربيبري" يدرك نيتهم في محاولة استدراجه فقال:

- أخشى ألا يكون هناك أحد هنا يتمتع بالجسد المناسب، ثم إن مادتي التعليمية يمكن أن أطلق عليها مادة دفاعية أكثر منها هجومية.

انتبه المستمعون من جديد، متفاجئين من لغز كلامه. لهذا الرجل الغريب نبرة صوت أبوية، كما أن عينيه الزرقاوين الجميلتين تُظهران شيئًا فشيئًا عمق التجربة والخبرة.

- يا شباب! الأفكار الرائدة تُفزِع دائمًا، وأعرف أن في نهاية العام سينتظر الجميع، من ناظر المدرسة إلى الآباء، درجة مادة التاريخ والفلسفة في شهادتكم، وسيحصلون عليها، تلك الدرجة عديمة الفائدة. ما أقترحه عليكم الآن هو أن تتركوا خطة الدراسة والوسائل التعليمية القديمة لاستبدالها بآلية للدفاع الشخصي عن النفس.

كان "ميكيلِه" منذ بداية الحصة يسند بقدر من الصبر رأس "ماركو" النائمة على كتفه، فنهض فجأة واقفًا على قدميه ليسبب - بالإضافة إلى الاستيقاظ المفاجئ لزميله - إثارة بعض الفزع للأستاذ الجديد.

- معذرة، اسمعني حضرتك. أنا أمارس رياضة الجودو منذ أن كنت طفلًا، وشاركت أيضًا في بعض المسابقات الإقليمية؛ فأنا بالتالي على ما يُرام بالنسبة للرياضة.

- لا، لا. أنا لا أقترح عليكم أبدًا أي أنشطة جسدية، هي بالأحرى طريقة للتحكم الداخلي بالذات.

- يا أستاذ، هل يمكنني السؤال عن شيء ما؟

خلعت "چوليا" سمّاعات الأيبود من رقبتها، وبعد أن ألقتها على المقعد، قامت واقفةً بسرعة، وبحس من التحدي لم تُخفه، أخذت تتقدم نحو مكتب الأستاذ.

- هل من الممكن معرفة ماذا تريد أن توضح حضرتك بالضبط؟

دون أي لحظة من التردد، نهض "إرنستو" أيضًا؛ فقد كان كل ما تفعله "چوليا" يعنيه بشكل مباشر. اقترب من صديقته، وبضغطة خجلة على ذراعها حاول إعادتها إلى الخلف، لكن دون نجاح. وقد لاحظ الأستاذ "سيربييري" محاولته جيدًا.

- "چوليا"! توقفي عن ذلك، لقد حصلتِ على ثلاث ملاحظات سلبية.

- لا تقلق يا "إرني"، أود فقط توضيح الموقف.

توقفت الفتاة عند الصف الأول بالقرب من المقعد الثالث وذراعاها متشابكان ومحدقة في الدخيل الجديد.

- أنا لا أريد اتباع برامج تأمُّل، ولا تعلم أنظمة تحكم في الذات أو أن أخضع إلى محاولات انتحال. أرجو أن أكون متحدثةً باسم الجميع.

قام الزملاء بإبداء موافقتهم، كالعادة منبهرين من وقاحة "چوليا". وكان التكشير عن أنيابها هو الأمر الغريزي الأول بالنسبة لها وعادة كان الآخرون يتركونها تبدأ بالهجوم. بدا الأستاذ سعيدًا بجرأة الفتاة الجميلة النحيفة، ذات الجدائل الشقراء. بدت كلوحة مرسومة لـ"بوتّيشيلّي" وبطرقها التي لا تبدو نابعةً من عصر النهضة.

- ما اسمكِ؟

- "چوليا براتيزي".

- "چوليا"! لقد كنتِ واضحة جدًّا، لكن أنتِ والزميل الذي سبقك بعيدان عن الوصول إلى لب الموضوع.

نظرت "چوليا" إلى "إرنستو" الذي كان لا يزال ممسكًا بذراعها، وبكل طوع تركته يقودها إلى المقعد. ولكن العناية التي حرص بها الشاب الطويل النحيف على الحالة المزاجية لصديقته، هي الحركة العاطفية التي أثَّرت في "فيديريكو سيربييري".

- وأنت...

كان "إرنستو" قد انحنى لتوه ليلتقط قلمًا عندما قام الأستاذ باصطياده من بين المجموعة.

أجاب وقد احمرَّ وجهه قليلًا:

- "إرنستو جرادي".

- جيد يا "إرنستو". هل أنت أيضًا ليس لـديك فـضول تجـاه الأمـر الجديـد الـذي أقترحـه عليكم؟ ألم تتكون لديك أي فكرة عن ذلك؟

لم تكن لدى "إرنستو" أي آراء يريد أن يضعها في إجابة عن سؤال الأسـتاذ. هـو عـلى هـذا الحال منذ فترة. حتى حينما يتعرض لمواقف غير متوقعة، لا يعطي لها أي رد فعل مميز.

- يا أستاذ، الأمر هو أنني.. خيالي محدود.

رفع "چورچو" عينيه إلى الأعلى في يأس وابتـسم "سـيربييري" ابتـسامةً كـشفت عـن صـف أسنان ليس به ولو خطأ واحد. أدرك أنه بالنسبة لذلك الطالب جذب الانتباه كان يشبه السير على حافة هاوية. وبالتالي قام الأستاذ بجذب الانتباه العام نحوه.

- كي نعود إلى المادة الجديدة، سيتم عمـل تـصويت عـلى اقتراحـي؛ فـإن قامـت الأغلبيـة باختيار دروس التاريخ والفلسفة، سأجد الطريقة لكي يتم استبدالي بشخص آخر يكـون عنـده برامج أكثر تقليدية.

قامت الفتيات بتلقي تلك الاحتماليـة بتنهيـدات تعـبِّر عـن الاعـتراض؛ حيـث شـعرن بـأن وجود ذلك الرجل كان سيجعل صوت المنبِّه كل صباح أقل بغضًا.

- إن حدث العكس ووجدتُ أن الأغلبية منكم تريد اتبـاع هـذه المـادة الجديـدة، سـأظل أعلمكم، وأجعل منكم رجالًا ونساءً أكثر قوة، وعلى وجه الخصوص، أكثر حرية.

أمِل "چورچو" في أن يجد أي رد فعل على وجه "إرنستو"، لكن صديقه كان شاردًا في يـدي "چوليا" اللتين كانتا عبارةً عن مجموعة من الملصقات الخاصة بـ"جرينبيس" Greenpeace.

- القرار يرجع إليكم. أنا متأكد من أنكم ستكونون على مقدرة من تطبيق قواعد الديمقراطية.

ربما لم تكن مجرد صدفة أن تتجه نظرة الأستاذ إلى "چورچو". كانت العينان الحيويتان للفتى تتابعان الأستاذ باهتمام، حريصًا على ألا تفوته أي تفاصيل. لم يكن "چورچو" يوافق "سيربييري" الرأي حول الفلسفة والتاريخ، لكن ذلك الأستاذ دخل الفصل وهو مصمم على إزالة الأتربة التي تراكمت على البرامج التعليمية للوزارة، وكان هذا كافيًا لجعل "چورچو" يهتم بالاقتراح.

لذلك نهض واقفًا على قدميه، وبوصفه الخطيب توجَّه إلى الفصل كاملًا:

- اسمعوا، المدرسة الثانوية الكلاسيكية أصبحت من إحدى الحفريات الضخمة، ودراساتنا أصبحت منفصلةً تمامًا عن المجتمع وبعيدةً عن التطبيقات الواقعية.

استمع "سيربييري" إلى حوار "چورچو" باهتمام. روح المشاركة تلك ستصبح مثمرةً يومًا ما. في الماضي، كان ليفضل أن يكون له مساعد مثل "چورچو جريجور"، ليس من أجل تدريس التاريخ والفلسفة، ولكن من أجل المادة الجديدة. ففي ذلك المجال كانت ستكون لملاحظاته البارزة فائدة كبيرة. استمر الفتى في خطبته:

- يجب أن نتحرر من ذلك العفن، والنهضة يمكن أن تبدأ من مدرستنا، التي تُعدُّ واحدةً من أقدم وأشهر مدارس المدينة. سأشرح بشكل أفضل: إن كان الأستاذ "سيربييري" ينوي تجميع مجموعة جديدة حوله، يمكننا أن نطلق عليها مثلًا "جيل بيت[1]"، أو شيئًا من هذا القبيل، فأنا معه.

---

(1)- (**جيل بيت** (بالإنجليزيةBeat Generation):) هي مجموعة من الكتاب والجيل الذي تأثر بكتاباتهم في الولايات المتحدة الأمريكية ظهر في عقد خمسينات القرن العشرين بعد الحرب العالمية الثانية.

قام بعض الزملاء بالتصفيق. أمَّا "بييترو"، الذي أثارته فكرة حرية تداول أي مواد مزاجية، رفع بحماس يده اليسرى المرسوم عليها وشمٌ وقال:

- "جيل بيت" فكرة عظيمة!

ابتسم "چورچو" لانطلاقة صديقه، بينما بدا على الأستاذ أنه يخزِّن هذه المقترحات ليستخدمها في الوقت المناسب: ذلك الطفل ذكَّره بنفسه في مرحلة شبابه، فهو مستعد دائمًا لمعرفة المزيد.

سأل "چورچو جريجور" ليبدو دائمًا أكثر اهتمامًا بالمسألة:

- هل توجد أي أعمال نُشِرَتْ من قبل عن هذه المادة؟

- تقول أعمال نُشِرَتْ؟ بالتأكيد، وقديمة جدًّا، ونصوص بكل اللغات.

- جيد، ونحن مستعدون للاستماع.

نظر "جريجور" حوله، حيث أحاطت به مجموعة من الطلبة تقول: "نعم". أدرك الأستاذ أن جزءًا من الفصل يعتبره قائدهم. كان لا يزال صغيرًا جدًّا، ولكنه كان أكثر يقظةً من بعض زملاء الأستاذ الذين وصلوا إلى التدريس. ويا ترى عن طريقة أي ضربة حظ!

- "چورچو" يا عزيزي، أشكرك على ثقتك، وبالنسبة لشباب لامعين مثلك سيكون مفيدًا اكتساب الإرشادات التوجيهية لبرنامجي. الآن نتحدث عنا.

في لحظة من الصمت والسكون، أمسك "سيربييري" بقطعة من الطباشير كما لو كان يمسك بخنجر، معجبًا بحالة الانتظار التي سيطرت على الطلَّاب. أعطى ظهره للفصل وكتب على السبورة: "الآثار الخطيرة لحالة الحب على الأجيال الحديثة".

عندما استدار من جديد نحو الطلاب الثمانية عشر، استطاع أن يجد الطريقة لاختلاس نظرات سريعة هنا وهناك ليرى العديد من الوجوه الشاحبة.

- هذا اسم برنامجي الدراسي لهذا العام الدراسي لفصل 3/2.

بدا وكأنه كشف السر الثالث لـ"فاطيما"[(2)] أمام مجمع من الكرادلة، وغير عابئ بنظرات الأعين المذعورة، ترك قطعة الطباشير تسقط على الأرض.

- في مدارس مختلفة، تم تطبيق برامج تعليمية حول مخاطر إدمان الكحوليات وحول الإدمان بشكل عام، لكن العشق وعواقبه الوخيمة، والحب بين الآخرين كان لا يزال مرضًا مؤلمًا ومرهقًا، على الرغم من أن الاتجاه الأدبي الرومانسي يجده عذابًا ممتعًا.

لم يكن الأولاد معتادين على التوتر الذهني، فبدوا كمن التقط في الهواء مزهرية مينج الصينية قبل سقوطها على الأرض. كان الصمت يُعدُّ وقتئذٍ الإجابة الأقل تعبيرًا. كان "چيبّو" أوَّل من حطم ذلك الصمت المحير وتوجه لقائده قائلًا:

- يا "چو"! ما رأيك؟ هل يجب أن نتصل بالإسعاف؟

لم يستطع الصديق - الذي كان لا يزال تحت أثر الصدمة - الإجابة على الفور. كان قد اقتنع لتوه بأنه قابل مرشدًا حكيمًا، ووجد فجأةً أمامه مريضًا نفسيًّا. استمرت حالة عدم القدرة على الكلام التي أصابت "چورچو" لعدة دقائق، بينما الأستاذ الجديد، بعد أن أعاد حامل الصور إلى مكانه في الحقيبة

(2)-ظهرت مريم العذراء القدّيسة في قرية فاطيما (البرتغال) على 6 ظهورات متتالية من 13 أيار إلى 13 تشرين الأول (أكتوبر) 1917 لثلاثة من الرعايا، لوسي دوس سانتوس (11 عامًا)، وقريبيها جاسينتا (8 أعوام) وفرانشيسكو (11 عامًا). كشفت لهم العذراء مريم عن ثلاثة أسرار، يتعلّق الأوّل برؤيا عن الجحيم ويشير الثاني إلى تكريس روسيا لقلب مريم الطاهر. رسالة مريم في فاطيما كانت تتضمّن أيضًا سرًّا ثالثًا يتعلّق بهوية المسيح الدجّال الذي ظهر في فلسطين سنة 1948. كان على باباوات روما أن يعلنوا هذا السر في سنة 1960، كاشفين بذلك هوية المسيح الدجّال. لكن، بدءًا من يوحنّا الثالث والعشرين، جميعهم خانوا هذا الواجب المقدّس، خوفًا من هذا المسيح الدجّال القوي.

مع أغراضه الشخصية، توجَّه نحو الباب. وقبل أن يخرج، أهدى ابتسامة تشجيع للفصل، غير عابئ بالنظرات المذعورة.

- فكَّروا في الأمر يا أولاد. لقد انتهينا اليوم.

واختفى هكذا في الممر بتحية من يده.

بدأ على الفور الهمس المدوي، و"چورچو"، الذي كان قد استعاد السيطرة، سواء على نفسه أو على الوضع الجديد، صعد بقدميه على مكتب الأستاذ بقفزة مرنة، وقال:

- الصمت بعد إذنكم! استمعوا إليَّ لحظةً.

بدأت الأصوات تتلاشى شيئًا فشيئًا.

- هل سمع أحد منكم عن اتفاق بين مدرستنا وبعض المؤسسات التي تطبق برامج إعادة تأهيل اجتماعية؟

هب "چيبّو" واقفًا ليعترض قائلًا:

- يا "چو"، أنت تمزح، أليس كذلك؟ هل تظن أن "كاميلّو" لم يكن ليخبرني إن دخل المجانين إلى المدرسة؟

تدخلت "إلاريا":

- في رأيي إن كل هذا ليس إلا مزاحًا، وإن ذلك الرجل ما هو إلا ممثل. ألم تروا كيف كانت عيناه؟

نظر "ميكيلِه" إلى "چيبّو" قائلًا:

- بالتأكيد، إنها مزحة قام بها ذلك الأحمق "كاميلّو"، وربما أنت أيضًا متورط فيها.

- آه يا "ميكي"، كيف خطر هذا ببالك؟ أنت تدخن كثيرًا من السجائر التي أثَّرت على مخك.

شعر "چيبّو" بالإهانة من اتهامات "ميكيلِه"، لكنَّ ابتسامةً وديةً مـن زميلـه كانـت كافيـةً لإنهاء المسألة عند ذلك الحد.

تحدث "چورچو" بجدية:

- لا، هذه ليست مزحة.

أكدت "چوليا"العبارة كما لو كانت صدى لصوته:

- لا، هذه ليست مزحة.

ثم استكملت:

- كان بين يديه دفتر حقيقي، من الواضح جدًّا أنه أستاذ.

جلس "بييرلويجي فلاميني" في الصف الخامس بجانب النافذة يُعطي ظهره لزاوية الفـصل وساقاه مفرودتان أمامه. كان ينظر من حين لآخر في ساعته التـي يبلـغ ثمنهـا أربعمائـة يـورو، وللحظات قليلة كان يرفع نظرته الغامضة عن تليفونـه الــ"Samsung S4" الـذي يبلـغ ثمنـه سبعمائة يورو، ليوجِّه نظره إلى زملائه الذين كانوا يتناقشون. وعنـدما كانـت تتحـدث إحـدى الفتيات، كان يرتسم على وجه تعبيرٌ بعدم الاكتراث.

بعمره الذي وصل إلى تسعة عشر عامًا والسنوات الدراسـية الكثـيرة التـي رسـب فيهـا، لم يكن لـ"بييرلويچي" أصدقاء في ذلك الفصل، ولكن بعض المتواطئين، مثل "إلاريـا"، التـي ظلـت فتاته لفترة قصيرة من الوقت. قابل وصول الأستاذ الجديد بـلا مبـالاة كاملـة، واكتفـى بمراقبـة تحركات "چورچو" من حـينٍ لآخـر. ذلـك الكريـه "چورچـو جريجـور"، حيـث اتهمـه في العـام الأول من الثانوية بالعنصرية أمام الجميع، مـن الطلبـة والأسـاتذة، فقـط لأنـه وصـديقين لـه، قاموا بضرب أحد زمـلاء المدرسـة وكـان هنـديًّا، حيـث قـابلوه خـارج أحـد المحـلات. وعـلاوة

على ذلك، كان "چورچو" مؤمنًا بأنه صاحب العبارات التي تمـدح "بريبيـك"[3]، والتـي ظهـرت على أسوار المدرسة.

كان كل ذلك حقيقيًّا، وكان "بييرلويچي" يضع في الاعتبار دائمًا إمكانية إرسال "چورچو" إلى المستشفى وبه أحد الكسور. لكن خصمه كان خطيرًا، وكان أبوه قاضيًا، لذا فهو مـستعد دائمًـا بمجموعة دفاع مستعدة باستمرار للتدخل. وبالتالي انحصرت هجمات "بييرلويچي" في معارضة "چورچو جريجور" بكل الطرق الممكنة. وهكذا فيما يخص وصول الشخـصية غريبـة الأطـوار، قبـل أن يتخـذ موقفًـا، كـان "بييرلـويچي" يفـضِّل معرفـة موقـف "چورچـو" حتـى يـستطيع معارضته.

قال "لورينزو" حاسمًا رأيه ومنطلقًا نحو الباب:

- حتى ولو كان أستاذًا، لكنه غير طبيعي، سأذهب إلى ناظر المدرسة.

أوقفه "چورچو" قائلًا:

- انتظر لحظةً، من فضلك يا "لورينزو"، فلنتناقش في هذا الأمر مع الجميع.

وكالعادة بمهارته في جعل الآخرين يشعرون بأنهم مسؤولون، نجـح "چورچـو" بـسهولة في الإقناع. عـاد زميلـه لـيجلس مكانـه، لكـن الفـوضى بـدأت مـن جديـد، وانهمـرت الاقتراحـات كالسهام. كاد الخوف يتمكن من الجميع، لكن عندما اخـترق الأجـواء صـوت خطـوات كعـب أستاذة الكيمياء التي يعرفها الجميع، قرروا بسرعة عقد اجتماع عاجل للفصل.

ذلك الشخص غير العقلاني طرق باب فصل 3/2. وكان يجب اتخاذ قرار بكيفية استقباله.

***

---

(3)- إريك بريبيك (Erich Priebke) رجـل عـسكري ومجـرم حـرب ألمـاني وعميـل البـوليس الـسري الألمـاني (Getsapo)، ونقيب وحدات شوتزشتافل أثناء الحرب العالمية الثانية.

داخل إحدى الشقق المضيئة، في إحدى المناطق السكنية بالمدينة، انتشرت رائحة حامضة أفسدت الهواء بكراهيتها، وفي البلكون ماتت زهور اللقلقية. وقطٌّ يموء أمام وعاء فارغ، وامرأة في السابعة والأربعين من عمرها، استيقظت، مثل كل صباح، مستسلمة لآخر يوم في حياتها.

فتَّحت "تشيتشيليا باسّاني" عينيها فجأةً بعد ليلةٍ من الأحلام المُخيفة، وبما أنها لا تجد "كارلو" في السرير، كانت تتذكر بألمٍ كيف أصبح المستقبل بلا ملامح بسبب غيابه.

مالت على حافة السرير كي تشاهد العديد من قطع المناديل الصغيرة المُكوَّمة على الأرض. أصبحت أشياء ذات ضرورة أولية الآن. امتدت يدها نحو التليفون لكي تُخبر "بينا"، البوَّابة، بضرورة توفير أربع علب على الأقل. كانت تصل إليها عبوات الـ"كلينكس" غالبًا في الفترة الأولى بعد الظهر، وفي اليوم التالي، وفي الساعة نفسها، تكون هذه اللفَّة قد انتهت.

كانت عينا "تشيتشيليا" تبدوان وكأن بهما خزينًا لا ينتهي من الدموع، حيث انتشرت دموعها في كل مكان: فوق الوسادة، وفي فمها، وفوق مجلة السودوكو، وسيلة التسلية التي لا فائدة منها، وحتى طعم المياه في الكوب الموجود بجوار السرير كان أكثر ملوحةً. كانت الدموع تخرج تقريبًا بمفردها، حتى إنها أحيانًا لم تكن تنتبه إلى سقوطها.

الجلد عند وجنتيها يؤلمها، ووجهها منتفخ ومقرَّح من كثرة فركه بالمناديل الورقية. لكن، عندما قررت منح نفسها غسلةً مُنعشةً للوجه، أرعبتها بشدة فكرة مواجهة مرآة في أحد الأجزاء المتوارية بالمنزل، وهكذا تراجعت عن قرارها.

كانت تعود على الفور إلى السرير، لتدخل من جديد في حالة من الهذيان متداخلة مع لحظات اليقظة التي لم تكن أقل عذابًا من النوم. كذلك تبدأ لحظات المعاناة المعتادة من القلق في بداية اليوم. كانت تنجح في تقليلها

باستخدام الجرعات المعتادة من المهدئات، ولكن في مواجهة الجرح الداخلي لم تكن الأدوية قادرةً على فعل أي شيء.

وكأنها ضحية لعملية بتر عنيفة، على الرغم من أن كل جزء من جسدها في مكانه الصحيح، شعرت "تشيتشيليا" كما لو أنها مثل نصف تفاحة، وللدقة، مثل ذلك النصف الفاسد، الجزء التالف الذي تتم إزالته بحد السكين لكي يُلقى في القمامة.

نجحت في الوقوف على قدميها، والتوجُّه إلى المطبخ وهي تقاوم إحضار المقص وإنهاء الأمر. على الرغم من امتناعها عن الطعام، وذهنها المرتبك، فكَّرتْ أنه بالنسبة للأشخاص الذين ليس لديهم أبناء، يصبح الانتحار أسهل بالنسبة لهم. إنها الساعة الثانية إلا الربع في أحد أيام الإجازة، وهي لديها ابن مراهق يجب سد جوعه. كان من الضروري أن تفتح الغاز حتى تطهو فقط طبقًا من المكرونة. ومع الأخذ في الاعتبار أن جهاز قياس درجة الإحباط الخاصة بها أشار إلى درجات حرارة مرتفعة، وبما أنها وضعت مولودًا منذ سبعة عشر عامًا، كان ذلك يمثل عقبة مزعجة أمام مشروعاتها مما أدى إلى تحطيم نفسها.

كانت على وشك أن تضع الوعاء على النار، عندما شعرت برائحة مقرفة تنبع من تحت حوض المطبخ. عندئذٍ أخرجت كيسًا. فجأةً توقفت عن التنفس، وسيطر القلق عليها. فأمامها صورة "كارلو"، وهو يبتسم ويرتدي زي التزلج على الجليد، بارزة بين رؤوس مقطوعة من البروكلي وأشلاء الدجاج الفاسدة. وسط عقدة من بقايا الطعام ومناديل مستهلكة كانت تظهر مخلفات حياتها: صور ممزقة، وخطابات حب مكومة، وأساور محطمة، وحتى قميص ممزق بعنف.

جزء كبير من هذه الأشياء يعكس ما حدث لها الليلة السابقة.

هكذا عبَّرت "تشيتشيليا" عمَّا بداخلها في لحظات نشاطها النادرة. كما لو كانت ضحيةً لحالةٍ من الهياج. كانت تمسك بالمقص، وبدقة رسَّام الصور

المزخرفة، تقصُّ السنوات العشر التي عاشتها مع الرجل إلى شرائـط. ذلـك الرجـل التـي كانـت ترغب ساعة في معانقته بحنانٍ وساعة في رؤيته يتدلى مشنوقًا بحبل.

ربطت "تشيتشيليا" يدي الكيس، وبينما تبكي بينهـا وبـين نفـسها، ذهبـت لتـضعه بجـوار بـاب الـدخول، ثـم دخلـت مـن جديـد إلى المطـبخ بعـد أن وضـعت جانبًـا المـشروع المرهـق للمكرونة، عادت لعمل حساءٍ بسيطٍ من الجزر.

عندما أحسَّت بصوت المفاتيح في فتحة الباب، جففت عينيها بكُمَّي ردائها.

- "إرني"، أنا في المطبخ.

- حسنًا، أنا قادم.. يا إلهي، ما هذه الرائحة النتنة؟!

استقبلت رائحة مقلب القمامة "إرنستو". أمسك بـالكيس ذي الرائحـة الكريهـة، ووضـعه خارج الباب وترك المشتروات على الكرسي في مـدخل الـشقة. بـدأ القـط في الاحتكـاك بقدميـه لطلب الإغاثة، قام الفتى بمداعبته، لكن لم يكن هذا كافيًا ليملأ معدته.

- كيف تسير الأمور معك أنت؟ أظن بشكل سيئ، اذهب إلى المطبخ، اذهب.

اختفى القط في المطبخ، ودخل "إرنستو" إلى غرفته. ترك حقيبته على الأرض ووجد نفـسه رغمًا عنه أمام فتى شاحبٍ ونحيلٍ. كان مظهره الأرسـتقراطي هبـةً مـن الطبيعـة، لكنـه كـان يذكره بأولئك الشباب النبلاء في العصر القديم الـذين يـسهل تعرضـهم للأمـراض الناتجـة عـن زواج المحارم. عيناه داكنتان، وكذلك شعره؛ ما ورثه من أصوله التي تعـود إلى "صـقلية". كـان أنفه مستقيمًا، وفمه سميكًا، وجسده الذي كان يبلغ طوله مائة وثمانين سنتيمترًا كان قد شهد أفضل أيامه من قبل. في الأعوام التي لعب فيها كرة القدم بانتظام كان جـسده مفتـولًا يتـسم بالمرونة، شاهدًا على الصحة. كان ذلك هو "إرنستو" منـذ زمـن مـضى، أمـا الآن فإنـه ينظـر في المرآة فقط نظرة فاترة على جسد نحيل أهلكه وجع قلبه من أجل الحب. يوشك عـلى التبـدد في يوم من الأيام دون أن يترك أثرًا له.

سأل نفسه مرارًا إذا ما كانت حالته قد تدهورت هكذا لأن "چوليا" لم تكن تحبه، أم أن "چوليا" لا تحبه لأن حالته تدهورت هكذا.

بحثًا عن إجابة أكيدة، أخذ يفتش في درج مكتبه ووجد صورة الفصل عندما كان في السنة الأخيرة قبل المدرسة الثانوية. وبحثًا عن شيء من الحياة السابقة تأكد بمواساة لنفسه كيف كان في تلك الأوقات جميلًا ويافعًا. كانت بوادر السوء واضحة؛ حيث إن نظره لم يكن متجهًا إلى الكاميرا، ولكن تجاه الزميلة التي كانت تجلس في الجانب الأيمن من الصف الأول: "چوليا براتيزي"؛ أمَّا هي فكانت تنظر أمامها.

ثم انتقل بنظره إلى "المشاكس (الستوكر)". كان قد أعطى "چورچو" هذا الاسم.

كان "إرنستو" يعلم بأنه ساعد على تكوين شخصية استحواذية، لكن نيته لم تكن خطيرةً، كان يريد فقط قُبُلات، ومُلاطفات، وعلاقاتٍ كاملةً، وحب "چوليا".

كان الحائط مغطًّى بمجموعة "كولاج" صور مقصوصة ملصقة: "بييترو" على الجيتار، ووالده في شبابه، و"چيبّو" و"چورچو" فوق الموتوسيكل، والمرة الأولى التي وجد الشجاعة كي يتحدث أثناء اجتماعه بالآخرين، حيث قام "چورچو" بتصويره. لكن معظم اللقطات كانت تُظهر "چوليا" منحنيةً بطرقٍ عدة؛ وهي تأكل ساندويتش، وهي ممدة على الأرض، وهي تطلع "مارتا" على إحدى أسنانها التي كانت تؤلمها، وأخرى وهي تربط إحدى فردتي حذائها.

على المكتب، بين الكتب والدفاتر، كان يوجد الجواب العاطفي الذي كتبه لها الليلة السابقة. وبيدين مرتعشتين من النشوة، أو ربما من الإرهاق الشديد، أمسك به وقرأه من جديدٍ. كان على وشك تمزيقه عندما - في لحظة من الصفاء الذهني - اكتشف صعوبة الابتعاد عنها فوضع الجواب مرة أخرى في الدرج.

ذهب ليأخذ المشتريات عند مدخل المنزل قبل أن يذهب إلى والدته في المطبخ. وجدها في حالة من التركيز الشديد لصف الجزر في أحد الأطباق، فوضع "إرنستو" كيس المشتريات فوق دولاب أدوات المطبخ ونظر حوله.

- المكان في حالة فوضى هائلة.

رفعت "تشيتشيليا" رأسها وأرسلت إليه قُبلةً خاطفةً.

- حبيبي، هل أحضرت لي الشهادة الطبية؟

- بالتأكيد. ألم تنتبهي إلى أن القمامة كانت تخرج منها رائحة كريهة لا تُحتمل؟

- ذلك بسبب الدجاج الذي فسد. عندما تأتي "بينا" ستأخذها لتلقيها.

تنهَّد "إرنستو" في نفاد صبر.

- لقد وضعتها بالخارج، هل وجود "بينا" ضروري؟

كانت "تشيتشيليا" تفهم تعبيرات انتقاد ابنها لها، لكنها لم تكن على استعدادٍ لقبول الانتقادات.

- لا تبدأ في هذا يا "إرني"، وإلا سأعود إلى سريري. وإلى وصفة الطبيب بدواء الـLexotan.

كان "إرنستو" يشعر بمزيج من الألم والضيق.

- لقد أحضرتها لكِ.. اسمعي، لماذا لا تجربين أي علاج آخر بدلًا من المهدئات؟

- العلاج الوحيد البديل الذي يخطر ببالي الآن هو الانتحار.

ضحكت "تشيتشيليا" ضحكة مريرة، فلم يكن هناك داعٍ للتفاؤل. كان "إرنستو" يرى والدته تتلاشى كل يوم بشكل أكبر بسبب المعاناة، فذهب ليقبِّل وجنتها، فوجدها تنبعث منها رائحة الأدوية.

- أحضرت الخبز، وشرائح لحم الخنزير، وعبوتين من الجبنة الموتزاريلّا وبعـض الكابوتـشي، هل تودين أكل شيء؟

فهم أن والدته لم تكن لتمس أي طعام، حتى في ذلك اليوم.

- يجب أن تفهمي أنه لا يمكنكِ الاستمرار في عدم الأكل.

- "إرني"، الطبيب قال أيضًا إنه يجب عليَّ ألَّا أُرهق نفسي، هل تتذكر ذلك؟

عاد القط ليفرك وليحتك بالكعب الأيمن لـ"إرنستو". كان يموء بإصرار يائس، فأخذ الـشاب المُشفق عليه علبة الحليب وملأ له الوعاء، ثم فتح باب الثلاجة الذي لم يكن بـه سـوى بَـصَلة واحدة ذابلة.

- يمكنكِ على الأقل محاولة الحركة، فقليل من الهواء قد يكون مفيدًا لكِ.

وضعت "تشيتشيليا" بعض سيقان الكرفس بجانب الجزر.

- لا تضغط عليَّ يا "إرنستو"، إن كنت قد طلبتُ إجازة فهذا يعني أني لست على ما يـرام. هل تفهم ذلك؟ لستُ على ما يُراااااااااام!

كان من الأفضل أن يكف عن ذلك، فأعطى لها ظهره وبدأ في وضع الأشياء في الثلاجة.

- اتفقنا، سأتوقف عن ذلك.

حاول "إرنستو" أن يخرج والدته من حالتها تلك، بعد أن هجرها منذ أسبوعين "كـارلو" أو "كوشّيتّونِه"[4]، كما يطلق عليه أصدقاؤه، دون إبداء أي أسباب، لكن محاولته حطمهـا شـيئان: الأول، فقدانه الطاقة، كأن تطلب من غريق أن يعيد قاربًا إلى الشاطئ، أمَّا الثاني، فكانت تلـك الحالة العصبية لـ"تشيتشيليا" التي فاجأت "إرنستو".

---

(4)- لفظ بالإيطالية يعني فخذ الساق وتقال لمن يمتلك فخذين ضخمين أو للشخص السمين وهنا للاسـتهزاء بالشخص.

ترملت والدته عندما كان عمر "إرنستو" ستة أعوام، فلم يتذكر الكثير عن ذلك الحداد، لكنه – في ضوء الاكتئاب الذي أصابها في تلك الفترة – لم يكن يستطيع تخيل رد فعلها لموت الرجل الذي عشقته، والأكثر من ذلك أنه والد ابنها. كان "إرنستو" يبحث عن الصفحة المفقودة لجرح "تشيتشيليا" العاطفي. أراد الوصول على الأقل إلى سببٍ مقنع لمحاولة والدته الانتحار بعد أسبوعين من العزلة، والاستلقاء على السرير لتستهلك خزين الكلينيكس.

احتجاجه الداخلي وإحساسه المزعج بالذنب وغضبه، كل هذا لم ينجح في تبرير الألم الكبير الذي يشعر به تجاه ذلك الفرد المنبوذ الذي يُدعى "كوشّيتّونِه".

أخذ طبقين ليضعهما على المائدة وساعد والدته في ذلك الجو الكئيب المتعب الذي أصبح غذاءهما معًا.

قالت "تشيتشيليا" كما لو كانت تريد أن تثير جوعه:

- وضعت لك البيض نصف المسلوق.

لكن حتى "إرنستو" لم يكن مهتمًا بأن يأكل، فأجاب بنصف ابتسامة توحي بالعرفان، بينما يراقب بحزن ذلك الجسد النحيف للغاية الذي محا أي أثر للمرأة الجذابة التي اعتادت أمه أن تكونها.

- لا أظن أنه سيكون لديَّ الوقت لكي آكل، فـ"چيبّو" على وشك المجيء.

- ولكنك وصلت للتو.

- أتيت فقط لكي أحضر لكِ المشتريات. لدينا اجتماع استثنائي.

أخذت "تشيتشيليا" كيسًا من خس السلطة من الثلاجة وأفرغته في أحد الأطباق.

- لكن ألا تراني خارج السرير؟

بدا صوت "تشيتشيليا" كنغمةٍ رتيبةٍ لطفلةٍ تود إثارة غيظه.

- كنت أعرف أنكِ شيئًا فشيئًا ستبدئين في التفاعل.

ظل "إرنستو" شاردًا أثناء أكله البيض نصف المسلوق.

جلست والدته بجانبه، بينما يأكل الكابوتشي على مضضٍ، ولم تقل أي شيء لمدة ثلاث دقائق. لكن، وبينما تضع أمامه البيض، بدأت "تشيتشيليا" شكواها البسيطة، عارضةً مسألةً لم تُحل أبدًا.

- هل تعلم ما أكثر شيء يعذبني في هذه القصة؟

شعر "إرنستو" بأن المَناخ العام ينذر بحدوث الأسوأ، فحاول تشتيتها.

- هل قلت لكِ عن تخفضيات محل الأثاث الموجود خلفنا؟

كانت القطرات الأولى للمطر قد بدأت في التساقط بلا رحمة.

- لماذا حدث هذا لي؟ ماذا فعلت لأجعله يهرب هكذا بعد عشرة أعوام؟

كان ذلك السؤال ذاته قد طُرح على "إرنستو" باستمرار في الأيام الأخيرة. في المرة الأولى في المساء التالي لهروب "كارلو"، عندما وجد الفتى والدته تبكي على السرير. ثم سألته إيَّاه عشرات المرات على فترات منتظمة، بين ليالٍ من الأرق ولحظات من الجمود. وعلى الرغم من قلة خبرته، فإن"إرنستو" فهم أن الإجابة لم تكن لتخفف جروح والدته ولو قليلًا. لكنها كانت تعود دائمًا إلى المحاولة من جديد والدوران في دائرة مفرغة.

- أسأل نفسي كيف يستطيع "كارلو" العيش كل يوم بعيدًا عني. كيف يستطيع؟

ابتلع "إرنستو" الكابوتشي والبيض بسرعة ماكينة شفط المياه.

- أمي، حاولي ألا تفكري في ذلك الآن. لماذا لا تتصلين بإحدى صديقاتك وتحاولين الخروج؟

كانت محاولاته تنجح فقط في زيادة توترها.

- كيف وليس عندي القوة حتى لكي أصل إلى باب المنزل؟!

قطع وصول"چيبّو" ورنّه الجرس عليهما الحوار مثل التعزيزات الأمنية.

- يجب عليَّ الانصراف الآن. ماذا عن "ليڤيا"، ألا تريدين رؤيتها؟

- أنا لست في حالة تسمح لي برؤية أحد، يا "إرنستو"، لكن لا تقلق بشأني.

ودّعته "تشيتشيليا" بابتسامةٍ كئيبةٍ، ثم استدارت وهي ترتعش من البرد، على الرغم من أن الصيف لم ينتهِ بعد. اتجهت إلى غرفتها، وابنها يتحدث خلفها:

- بمجرد انتهاء الاجتماع سأذهب لإحضار أسطوانة DVD لكي نشاهدها هذا المساء، هل تفضلين شيئًا بعينه؟

لم تسمعه، لكن عندما وصل "إرنستو" إلى الباب نادته مرة أخرى:

- انتظر، سمعتُ أن أستاذ التاريخ الجديد جيِّد، فما رأيك فيه؟

ألقت عليه السؤال وهي لا تزال في غرفتها التي تبعد عشرة أمتار.

- عرفته اليوم فقط، ولم أكوِّن فكرتي عنه بعد.

اضطر "إرنستو" إلى رفع صوته.

فسألته "تشيتشيليا":

- ولكن هل تحدث معكم عن شيءٍ ما؟!

كان رنين الجرس للمرة الثانية كالإنذار الأحمر له ليسرع بالنزول.

- لا أسمعكِ يا أمي، سأحاول العودة مبكرًا، هل تحتاجين إلى شيء؟

- نعم، من فضلك اذهب لإحضار دواء الـLexotan لي قبل أن تعود.

- لكن الصيدلية هنا تحت المنزل!

- "إرنستو"، اصنع لي هذا المعروف، نعم أم لا؟

شعر "إرنستو" وكأنه مثل كيس الملاكمة. كان يفتقد شخصية والدته القديمة كثيرًا، شخصيتها الإيجابية التي لم تكن تطرح أبدًا أسئلة غير مناسبة. لماذا لم تستطع التخلص من تلك المعاناة؟

الوصفة الطبية كانت فوق الأثاث في مدخل المنزل، وضعها في جيبه وفتح الباب.

- "إرنستو"، انتظر لحظة.

عادت "تشيتشيليا" أمامه من جديد. اقتربت وأخذت رأسه بين يديها وقبلتها. لحظة الحنان تلك استدعت الدموع على الفور. جفف "إرنستو" دموعها بحنان. عادت "تشيتشيليا" إلى غرفتها، وسمعها وهي تنادي على "المناديل".

نزل أول مجموعة من السلالم جريًا، ثم تذكر أنه نسي شيئًا.

عاد أمام باب البيت وأخذ الكيس ذا الرائحة الكريهة ثم نزل السلالم مجددًا. ظن "إرنستو" أنه ربما يكون هذا هو الفارق الوحيد بينه وبين والدته، أي النجاح في إلقاء القمامة.

بعد سباق يستحق الجائزة الكبرى لمدينة "مونزا"، توقف "چيبّو" و"إرنستو"، الذي استرخى أخيرًا، أمام جراچ "بيبيترو".

دخل الاثنان عبر مجموعة سلالم ضيقة إلى مكان واسع تحت الأرض. كان مخبأهم، سرداب الموتى الحديث، الحارس الدائم للأجواء التأملية والاجتماعات الصعبة، وفي تلك الليلة، كانت حماسة المجتمعين ونشاطهم تكاد تصل إلى حماسة جلسات البورصة.

كان رفاق الفصل يتناقشون بحماس وأصواتهم العالية تتداخل في دوي يصم الآذان.

وُضِعَتْ الأدوات الموسيقية لفرقة "ريد" Red جانبًا. الفرقة الموسيقية التي يقودها "بيبيترو". على الرغم من وجود الكراسي، كانوا جميعًا واقفين بسبب

التوتر. في إحدى الزوايا جلس "بييترو" يضبط أوتار الجيتار، و"چورچو" يحاول تهدئة الجدال بين "مارتا"، التي ترى أن "فيديريكو سيربييري" مريضٌ عقلي فبإمكانهم مساعدته، و"لورينزو" الذي أجابها بأنه في هذه الحالات يجب أن يتدخل مسؤولو هيئة الصحة المحلية، وليس المدارس الثانوية الكلاسيكية.

جدال مشابه لهذا كان يدور بين "چوليا"، الجالسة على ركبتيها على الكنبة الوحيدة، و"بييرلويچي فلاميني". عادةً لا يشارك في تلك الاجتماعات، حيث اعتبر جراچ "بييترو" جحرًا كريه الرائحة مليئًا بالقُراد. ثم، كما لو كان كل هذا غير كافٍ، بل كان عليه أيضًا مواجهة أكثر زميلة يكرهها. العام السابق، تلك "البقرة" (كما كان يدعوها) التي تسمى "چوليا"، على رأس مجموعة من الفتيات، واجهته، وسخرت منه، وأجبرته على أن يتنازل عن إحدى وسائل تسليته المفضلة، وهي أن يجعل إحدى فتيات المدرسة تحضر له الإفطار في الفصل، تلك الفتيات الأكثر ضعفًا أمام سلوكياته الغليظة.

منذ ذلك اليوم وهناك حرب مفتوحة بين الاثنين.

لكن "بييرلويچي" لم يكن يريد الابتعاد ليترك الساحة لـ"چورچو" ورفاقه. وبالتالي ترك "چوليا" تدعم فائدة حضور ساعات التاريخ والفلسفة في ثبات كعادتها، وقاوم رغبته في أن يحطم خوذته فوق رأسها.

كان الجو معبّأ برائحة الماريجوانا، ممزوجة برائحة عفن ورائحة زهور الباتشولي.

استقبل "چورچو" الاثنين المتأخرين بقسوة مايسترو الحفلات في السفارة الإنجليزية قائلًا:

- ألا تمتلكان ساعة؟

اعتذر "چيبّو" قائلًا:

- مهلًا، اعذرني. كنت مع واحدة.

لم يفهم "چورچو" مخططات "چيبّو" العاطفية، الـذي كانـت لقاءاتـه المختلـسة دائمًـا وفي اللحظات الخطأ، والتي تنتهي بمطاردة عنيفة من خطيب الفتاة.

لكنه تغاضى عن الأمر كأن شيئًا لم يكن. حدَّدَ "إرنستو" مكـان "چوليـا"،ثـم اتجـه إليهـا في هدوء، واستند على الذراع اليمنى للكنبة.

- إذًا فلنبدأ، هل لدى أحد منكم أخبار عن الغائبين؟

قام "چورچو" بضرب الطبول لينتبه الجميع، ثم تحدثت "مارتا"،التي عُينت متحدثًا باسـم الزملاء الغائبين:

- "ساندرو" والآخرون غير مهتمين، فلو حتى "دراكولا" قام بالتدريس لهم بنفسه، فهم مع هذا لن ينجحوا هذا العام.

كان من الصعب بالنسبة لـ"چورچو" قبول وجود أشخاص غير مُبالين هكذا أمام ما يمـرون به، لكنه قرر بدء الاجتماع على مضض.

- المسألة بسيطة، إمَّا أن نبلغ الناظر بأن هذا الأستاذ مختل، أو...

قاطعته "إلاريا":

- فلنُبْقِه هكذا وسنموت من الضحك!

تعالت الضحكات غير المنتظمة من جزءٍ كبيرٍ من الحضور.

حاول "إرنستو"،بصعوبةٍ، التركيز في المشكلة بدلًا من التركيز في فم "چوليا". صحيح أن أحد المجانين انضم إلى هيئة التدريس، لكنه، وعلى الرغم من الجـدال الـدائر حولـه، لا يقـدر عـلى شغل باله بأي شيء آخر سوى جسد "چوليا". أمَّا هي فلاحظت النظرات العاشـقة التـي ينظـر بها إليها أفضل صديقٍ لها، لكن أمامها الكوكب الذي يتحتم عليها إنقاذه، لذا فهي لا تستطيع الانشغال بمـشكلات فـردٍ واحـدٍ. وهكـذا فـضلت ألا تجـذب الانتبـاه حـول شيء غـير واضـح، واستمرت في تجاهل ذلك العشق واستقبلته بابتسامة مضللة.

- "إرني"، هل يُمكن معرفة أين كنت؟

- مررت على المنزل، كنت آمُلَ أن تأكل والدتي أي شيء.

- وكيف حالها؟

- ليست على ما يُرام، لكنَّ هناك تقدمًا، لقد وجدتها في المطبخ، على الأقل اقتربت من الثلاجة.

قام "چورچو" بضربةٍ ثانيةٍ بالعصيان على الطبول.

- قمت بالبحث واكتشفت أن "فيديريكو سيربييري" درَّس في جامعة ميلانو، ونشر كثيرًا من الدراسات في الفلسفة.

ملأه الأمل متجاهلًا التعبيرات الفارغة لمن هم في العمر ذاته. لم يكن أحدٌ قادرًا على أن يسعد بالاحتمالات التربوية لمدرس جامعي، وعلى الرغم من ذلك كانت ثقة "چورچو" في البشرية غير محدودة، وهكذا استسلم بتفاؤلٍ للاقتناع:

- اسمعوني، أنا أظن أنه جنون حقيقي منا أن نتنازل عن التاريخ والفلسفة، هل تتذكرون أن العام المقبل لدينا امتحان الثانوية؟

- ومَن يهتم لذلك. الآن يبدو لي أنه حسن حظ كبير أن يتم حذفهما من المنهج المقرر.

نهض "بييرلويچي" واقفًا ثم تقدم بضع خطوات نحو "چورچو".

انتهى "بييترو" من لف سيجارة.

- هيا، فلنصوت بسرعة، لأن بعد ذلك يجب عليَّ اصطحاب أخي إلى طبيب الأسنان.

قال "چيبّو" ضاحكًا:

- هيا، فلنصوت من أجل ذلك المختل.

- أوه، أنت، رفقًا بتلك الأحكام.

- كلنا لدينا بعض الاختلال برؤوسنا، ألا تظن ذلك؟

كان كل من "چيبّو" و"چوليا" يحب الخير للآخر، لكنهما كانا كالأبكم الذي يريد التحدث إلى أصم، وحتى إن كانا يحاولان دائمًا أن يجدا طريقة للتفاهم، حتى ولو بالإشارات. انفجر "چيبّو" في الضحك ونقل العدوى أيضًا إلى "چوليا".

- آه، يا "چولي"، قد تكونين على حق، لكنهم لا يدفعون لي كي أصبح مختلًا.

أمَّا "بييترو" فكان يفكر في توحيد الأفكار، وبذل الجهد من أجل السلام الكوني وإجهاض المسافات الاجتماعية بين الأفراد، وخاصة إن كان أولئك الأفراد أصدقاءه، إضافة إلى أنه كان مقتنعًا بأن تمرير السيجارة الملفوفة على أي حال يجعل أي اختلاف يتبخر.

- "چوليا" تود فقط أن تقول إننا ما زلنا لا نعرف شيئًا عن ذلك الشخص؛ فلنتجنب الأحكام المسبقة البرجوازية المعتادة.

مرر "بييترو" له السيجارة، فأخذها "چيبّو" ورفع كتفيه غير مقتنع تقريبًا. الأستاذ الجديد لم يكن عقله بحالة جيدة، ولم يكن هناك داعٍ للوقوف كثيرًا عند ذلك الأمر، ولكنه لم يتنازل عن قول رأيه:

- الحقيقة هي أنه لم يعد هناك من يريد القيام بتلك المهنة؛ فهم لا يربحون منها ما يستحق الذكر، لذا فهم يذهبون إلى مراكز الصحة العقلية للبحث عن شخص تكون لديه الرغبة في التدريس!

كان الجميع يضحكون، ولكن "چورچو" أراد استغلال الوقت، وقبل أن يعم الارتباك التام، استأنف مرافعته عن القضية.

- اسمعوا، أنا أفهم الأشخاص الذين فقدوا عقولهم. أشعر بالتعاطف معهم، لكننا لا نستطيع الاستغناء عن هاتين المادتين، واضح؟

قليلون مَن كانوا يشاركونه قلقه ولم تكن بينهم "إلاريا".

- آه، لقد أصبح "سيربييري" هذا تحولًا ملحوظًا، ثم إنه وسيم وجـذَّاب للغايـة، وفي نهايـة الأمر ليس ذنبنا إن لم يكن لدى الأستاذ رغبة في التدريس، إنها مشكلة المدرسة.

تدخلت "چوليا" وقالت ساخطةً:

- هل أجروا لكِ عمليةً جراحيةً في فصوص المخ؟

فأجابتها "إلاريا":

- انظري كيف تتحدثين، في وقت قصير للغاية ستبدئين في النباح.

- أحسنتِ، إذًا، ماذا ستقولين لهم في امتحان الثانوية إن ضاع منا عـام مـن مـادة التـاريخ والفلسفة؟

ارتفعت الأصوات في المكان واستمرت الضوضاء، وكان "چورچو" مـن فـترة لأخـرى يـضرب الطبول ليخمد تلك المشادات الكلامية.

- "چوليا" معها كل الحق، ولكن هل تريدون العودة إلى أرض الواقع؟

ارتفع ضجيج من الاحتجاجات إثر كلماته الأخيرة. نظر "بييترو" إلى الساعة التـي كانـت في يد "مارتا" وعاد بالقرب من "چورچو":

- دعهم وشأنهم، فهم تائهون، ولكن علينـا أن نتحـرك. فلقـد طلـب هـذا الرجـل تـصويتًا ديمقراطيًّا، فلنصوت ولينتهِ الأمر.

شعر "چورچو" بحاجةٍ يائسةٍ إلى حلفاء، فأخذ يحرك رأسه علامة الموافقة والتفهُّم.

- "إرنستو"، ما رأيك في هذه القصة الغريبة؟

كتم "إرنستو" تنهيدةً غاضبةً كادت تفلت منه، فصديقه هو ضميره الـذي كـان يـستدعيه من تحت الأرض حيث دفنه.

- هل لرأيي حقًّا أهمية؟

كان "إرنستو" يدافع عن نفسه. هاجمه "چورچو" قائلًا:

- بالنسبة لي نعم، قل لي.

- اسأل شخصًا آخر، فأنا لست مستعدًا.

كان "إرنستو" يدافع عن نفسه مجددًا.

- وإلى ماذا تحتاج كي تتفاعل، إلى صراعٍ نووي؟

كان "چورچو" مصممًا. مرَّ عام وهما على ذلك الوضع.

- أنت تعلم أن لديَّ مشكلات في المنزل، ألا يمكنني أن أتنحى جانبًا من حين لآخر؟

- من حينٍ لآخر. أي كمٍّ من الوقت، أربع وعشرون ساعة في الأربع والعشرين ساعة؟

قاطعت صرخة "إلاريا" الجدال بينهما:

- "ريكي" ينتظرني منذ نصف ساعة في البار! فهل يمكننا أن نسرع في هذا التصويت؟

استنفد "چورچو" الموضوعات والقوة لتحريك صديقه، وأشار إلى "مارتا" كي تعلن النتيجة. كانت سعيدة لاختياره لها للقيام بهذه المهمة. أخذت ورقةً وقلمًا حتى تنقل نتيجة الاستشارة. وبدأ الشباب من جديد في مواجهة غير منظمة.

بقفزة مفاجئة انتزع "بييرلويچي فلاميني" من يدي "چورچو" العصا وضرب الطبول ضربة عنيفة شريرة.

- إن رفض أحد المجانين القيام بعمله، فهذه ليست مشكلتنا، أواضح هذا للجميع؟

ثم ألقى العصا تحت أقدام "چورچو". وبسرعة فسد الاجتماع، وتم الانتقال من مرحلة الصراخ إلى مرحلة السباب في وقت قصير للغاية. فصعد "چورچو" فوق إحدى الموائد، بينما تبعه "بييرلويچي" متجهمًا وأمسك غاضبًا برقبة قميصه ماركة "لاكوست".

- إذًا فلنصوت، ولكن أولًا علينا أن نتفق. نتيجة التصويت يجب أن تُقبل من الجميع، ولن يقوم أحد بفعلةٍ مُشينةٍ بأن يذهب مثلًا ليبلغ الناظر، حسنًا؟

كانت نبرة "چورچو" متزنةً دائمًا.

فوبخه "بييرلويچي" قائلًا:

- ومَن أنت لكي تقول لنا هذا؟

- أنا لا أحد، فبالفعل نحن على وشك أن نصوت كلنا معًا، هل تعرف ذلك الشيء الذي يقومون به في الديمقراطية؟

- اسمع يا أبلَه، سواء قمت بالتصويت أو لا، فأنا أفعل ما يحلو لي.

هكذا استفزه "بييرلويچي"، وحينئذٍ شعر "چيبّو" أن من واجبه الترجمة إلى لغة تجعل "بييرلويچي" يستطيع فهم كلمات حاميه وصديقه، وفي الوقت ذاته قواعد الديمقراطية.

- سأشرح أنا لك ذلك يا "بييرلويچي". ذلك الملعون الذي لن يقبل بنتيجة التصويت ويقوم بالتجسس لحساب الناظر لن يصل إلى بيته سليمًا.

فهم "بييرلويچي" ما قصده "چيبّو" أفضل من الكلام الأصلي فلم يضف أي شيء آخر. وفيما يخص الغائبين فسيصل لآذانهم تهديد "چيبّو" خلال وقتٍ قصيرٍ أيضًا.

كانوا كلهم منهكين من المواجهة، عندما حدد "چيبّو" بدء التصويت برفع اليد.

- إذًا مَن يرد الإبقاء على هذا الأستاذ المختل واقتراحه غير المنطقي، فليرفع يده.

ارتفعت إلى الأعلى عشر أيادٍ مقتنعة، وبعد بضع ثوانٍ انضمت إليهم ثلاث أيادٍ أخرى.

قام "چورچو" بعدهم مرة أخرى غير مصدق لما يحدث، ثم استكمل:

- مَن يرد أن يخبر هذا الأستاذ أننا نريد دراسة التاريخ والفلسفة، سواء معه أو دونه، فليرفع يده.

لم تكن هناك مشكلات أمام "چورچو" ليقوم بعدٍّ أصوات "إرنستو"، و"چوليا"، و"بييترو"، و"مارتا"، و"ميكيله"، الذي انضم إليهم بعد نظرةٍ مُخيفةٍ وجهها إليه "چيبّو"، الذي حاول أيضًا أن يرفع يد "ماركو" النائم على الكنبة الوحيدة، ولكن تم إلغاء ذلك الصوت على الفور.

الأغلبية، أي ثلاثة عشر مقابل سبعة، أرادت تجربة المادة الجديدة، بينما بدأت ثقة "چورچو جريجور" في الإنسانية تنهار.

الفتى الذي كان مخلصًا لمبدأ الواقع حاول مرةً أخرى أن يُعيد التصويت للمرة الثانية التي أكدت نتيجة المرة السابقة، وحينها قام شيطان بتحويل الروح القانونية لـ"چورچو".

- هل يُمكن أن تكونوا حمقى هكذا؟ نحن في المدرسة الثانوية، هل تفهمون هذا؟

لم يدعْ "بييرلويچي" الفرصة تفوته:

- أنهِ هذا الأمر يا "جريجور"، لقد قمنا بالتصويت. تقول عني الكثير، ولكنك فاشي!

- حاول أن تكرر هذا مرةً أخرى!

لم يكن "چورچو" ليرفع يده على أحد أبدًا أولًا، ولكن "بييرلويچي" ألقى عليه كرسيًّا أصاب بدلًا منه "ميكيلِه" ومن هنا بدأ عراك صغير مثل ما يحدث في الملاهي الليلية بين الخصمين اللذين أبعدهما الزملاء عن بعضهما. قام "چيبّو" بصد ضربة كانت موجهة إلى "چورچو"، وتلقت "مارتا" دفعة قوية من "إلاريا". أمَّا "بييترو" فكان يرتب بهدوء غريب آلاته الموسيقية بمساعدة اثنين من أعضاء الفرقة. كانت البنات تصرخ، و"چوليا" تصرخ في الجميع حتى يتوقفوا عن المشاجرة.

نجحوا في التوقف فقط عندما انتبهوا إلى أن أخا "بييترو"، ذا الثمانية أعوام، كان مستعدًا للذهاب إلى طبيب الأسنان، وقد نزل من شقتهم بالدور الأعلى، وهو يبكي بائسًا.



أكتوبر

عواقب الحب



انتهى سبتمبر فجأةً مع الصيف، لتحل مكانه رياح باردة، ودرجات حرارة أقل من المعتـاد. كانت توقعات الطقس للشهر التالي، المعتدلة عادةً، متقلبةً. في تلـك الأيـام الأولى مـن أكتـوبر تقريبًا في كل صباح كانت هناك احتمالية حدوث عاصفة، ولكـن العواصـف المـشحونة كانـت تهدد بآثارها المقلقة مناطق أخرى من المدينة. على أي حال، ذلك التهديـد كـان كافيًـا ليقلـق الملتحقين بمدرسة "مورجانتِه" وطلاب فصل 3/2 بشكل خاص الـذين كـانوا يعتـبرون أنفـسهم ضحيةً لظاهرةٍ خارقةٍ للطبيعة. وإلا فلماذا من وسط سبعة وأربعـين فـصلًا كـان مـن حظهـم ذلك الأستاذ غير المألوف؟

في أحد أيام الإثنين، استيقظ "فيديريكو سـيربييري" كالعـادة في تمـام الـسادسة، واتجـه إلى غرفة "أُوديليا"، حيث كان "فلاك" نائمًا على السرير. كانت الصغيرة قد قامت ببعض الإجراءات لعلاج كلبها اللابرادور.

قبل أن يتناول قهوته، حضَّر الأستاذ وعاءً كبيرًا من الأرز المنفوش ومقرمشات الدجاج. ذلك الحيوان يستغرق خمس دقـائق تقريبًـا لينتهـي مـن تلـك الوجبـة التـي اعتـاد أكلهـا لأسـبابٍ غـير مفهومـةٍ عـلى فترتـين. وبالتـالي هيَّـأ الأسـتاذ نفسه لتناول إفطاره والاستحمام سريعًا في تلك الفـترة القـصيرة. وبمجـرد انتهـاء

الكلب من تناول الطعام، كان حارسه يصطحبه إلى الخارج من أجل الجولة المعتادة حول العمارة.

ظلت غرفة "أُوديليا" كما تركتها وهي طفلة قبل أن تذهب إلى والدتها في مدينة "ميلانو"، وقد أصبح "فلاك" مالكها بلا منافس.

لاطف "سيربيري" بديل ابنته، وأشبعه بالمجاملات الزائدة، ثم أخذ حقيبته المُثقلة بالأوراق واستعد لمواجهة يومه. وصل إلى محطة الأتوبيس وجلس على المقعد تحت مظلة المحطة ثم فتح الجريدة ليغرق في أحداث العالم، فكان يقرأ ويقيِّم حال الإنسانية بين الحروب والأمراض وحوادث القتل والمصائب وكيف كان الشباب كالعصافير الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة متروكين ليغرقوا في بحر من الإحباط. كان يود أن ينقذهم جميعًا، مهما تكلف ذلك من مليارات، لكنه ذكَّر نفسه بالمهمة الوحيدة التي يمكنه القيام حقًّا بها: تخفيف الأوجاع المعنوية. كان ذلك المشروع بالنسبة له طموحًا، ففكر بالتالي أن تلك هي المهمة الرئيسة لكي يركِّز على ما هو أكثر تهديدًا من غيره.

عندما نزل من الأتوبيس بالقرب من البار المعتاد، كان "خالد" بانتظاره في الزاوية بعلبته الخشبية، وبمجرد أن رآه من بعيد، جرى نحوه مسرعًا ويده ممدوة إليه.

- أهلًا يا صديقي.

- صباح الخير يا "خالد".

- أنت دائمًا منضبط في موعدك، كيف تحافظ على انضباطك هكذا؟

- وأنت أيضًا دائمًا منضبط في موعدك.

- ولكن أنا عندي ما يجب عليَّ عمله.

- وهذا من أحد الأسباب التي لا تجعلني أدعك تنتظر.

قام الأستاذ بتحية الشاب السنغالي بضربة لطيفة على كتفه. ثم اتجه بنظره إلى العلبة الخشبية المُعلقة في رقبته، حيث تبعثرت بها عشرات الجوارب البيضاء بلا نظام. تلقَّى "خالد" تلك العلبة كهدية من الأستاذ، ومن حينها يتجول في الحي مثل بائعة السجائر بـ"كرازي هورس" (Crazy Horse)، متعرضًا لسخرية أبناء الحي.

- اليوم أنا على عجلة من أمري قليلًا، أموري كلها مرتبكة.

لم يتمكن "سيربييري" من أن يمنع نفسه من ترتيب بضاعة "خالد"، وبدأ على الفور في القيام بذلك، حيث قام بتقسيم الجوارب إلى صفوف منتظمة، وفقًا لمقاساتها.

بعد انتهائه من الفصل بين الجوارب ذات المقاس 38 و40، سأله الأستاذ:

- هكذا كل شيء على ما يرام، أليس كذلك يا صديقي؟

كان الفتى يقبل دائمًا بكل لطف التصرفات غير المفهومة لـ"سيربييري"، فبعيشه في الشوارع تعرَّف على أشخاص غريبة، وأيضًا أشخاص عنيفة. على أي حال فضل ذلك الرجل عليه كبير؛ فمنذ أن تعارفا ظل يقدم له الإفطار مرتين أسبوعيًا.

كان "خالد" على وشك الزواج في قريته في السنغال، عندما دفعته الظروف إلى السواحل الإيطالية. فهم الأستاذ منه أنه لم يكن هاربًا من الحرب أو المجاعة، وإنما من الحب. فضَّل الشاب أن يدفع بنفسه إلى بلد غريب وغير مضياف لمجرد الهروب من مصير أكثر ظلامًا كان ملاقيه حتمًا إذا حدث وتزوَّج.

في كل مرة كان "سيربييري" يراقب فيها "خالد" وهو يأكل، كان يفكر في أن الجوع أقل خطورة من المصير الذي ينتظر ذلك المسكين في وطنه. بعدما دفع حساب الفتى، افترق الاثنان وذهب الأستاذ تجاه المدرسة. اليوم موعده مع طلبة فصل 3/2، الذين ينتظر منهم ردًا حول اقتراحه الذي قدمه لهم الأسبوع السابق، آخر أسبوع في شهر سبتمبر. وضع في اعتباره إمكانية أن التصويت لن يكون في صالحه، فإذا حدث هذا، كان سيضطر إلى ترك مكانه لأحد زملائه،

حتى يخرج من حياتهم بالسرعة التي دخل بها إليها، لكن على الرغم من ذلك الاحتمال، فإنـه أمِل في الاستمرار معهم.

كان الأستاذ يحمل حقيبـةً ثقيلـةً، بـداخلها مجموعـة أوراق لطـلاب الـسنة الثالثـة، ذلـك الفصل الذي كان يعطي فيه دروسًا عن اسـتقامة العقيـدة، ونـصًا كتبـه هـو بيـده. "المـرأة في الثورة الفرنسية"، ولكن معظم المادة كان مخصصًا لفصل 3/2.

بعد أن سار لمدة عشر دقائق، ظهـر مبنـى مدرسـة "مورجانتِـه" المتـسع العمـلاق أمامـه. تتكون المدرسة من مبنى قديم مُحاط بفنـاء واسـع يـستوعب صـالة ألعـاب ومعمـل كيميـاء وحديقة نباتية هي فخر طلبة السنة الثالثة الذين زرعوها واعتنوا بها. توجـد بوَّابـة حديديـة مزودة بجهاز إنتركم تُحدد الأشخاص المسموح لهم الدخول إلى الفناء، ومن ثم إلى المبنـى. وفي الخارج على الرصيف الواسع أمام البوابة، في ذلك اليوم بالتحديد، ظهـرت طاولـة "جـرينبيس" Greenpeace. وقف حولها ثلاثة فتيان يجتهدون في توزيـع منـشورات بهـا عـشرات الأسـباب من أجل الاشتراك في حملة عالمية لمواجهة السلاح النووي.

كانت "چوليا براتيزي" ترتدي معطف "البونشو" الملوَّن بـألون قـوس قُـزَحْ، وبيـدها مكـبر صوت تشجِّع به زملاءها على المشاركة في تلك الحملة. كان صوتها يهز الفتيان الناعسين وغـير المهتمين في تلك الساعة الصباحية منددةً بالأذى الناتج عن الاختبارات الذرية في جزر مفقودة في المحيط الهادي.

صرخت قائلة:

- بسبب الاحتباس الحراري فقدنا بالفعل 30% من الدببة القطبية في العالم!

شعر "فيديريكو سيربييري" بالدهشة والسرور بتلك الطاقة، فقـد كـان يتمنَّـى أن يعيش عمره وهـو في الـسادسة عـشرة بتلـك الطريقـة، ولـيس فقـط في رفقـة الكتب. كـان يتـابع معجبًا بأفعـال الفتـاة، عنـدما شـتت انتباهـه صـوت محـرك

أحد الموتوسيكلات من الجانب الأيمن، كان "بييرلويچي فلاميني" هو سائقه ويحمل معه راكبًا يبدو مثيرًا للقلق. اقترب متسابق الموتوسيكلات من الطاولة الخاصة بحماية البيئة.

تحدَّث "بييرلويچي" بصوتٍ خافتٍ مع صديقه، ثم رفع مقدمة موتوسيكله، وأعدَّ نفسه لإفساد ما يحدث. كان صوت محرك الموتوسيكل يدوِّي ويخرج منه عادمٌ أسود، لكن يبدو أنه لم يكن يهتم لذلك. جُلُّ اهتمامه كان ينصبُّ على إثبات قوة وسيلة التنقل خاصته. وأضاف إلى ذلك العرض ما يعادل خمسين "ديسيبل" من التلوث السمعي.

لم تكن النظرات المنزعجة للزملاء لتوقف أفعال "بييرلويچي فلاميني"، ولم تكن لدى أحد الجرأة على إيقاف مبادراته غير السلمية والجنونية. لا أحد عدا "چوليا براتيزي"، فتاة تتميز بشخصية قوية تستطيع أخذ حقها بيدها.

- هلَّا تكف عن إخراج كل هذا الدخان؟

كان صوت "چوليا" الذي ضخمه مكبر الصوت قد وصل إلى تل "مونتِه ماريو"، ومن هناك وصل أيضًا إلى القطب وكندا وغابة الدب الكبير.

لم يستغرق رده وقتًا، وقال:

- ماذا تريدين؟

- إنك تلوث رائحة الهواء!

أوقف "بييرلويچي" الموتوسيكل وظل صامتًا لبضع دقائق، لكن بمجرد أن استدارت عدوته "چوليا"، مر أمام الطاولة وألقى رزمة من المنشورات على الأرض.

استدارت "چوليا" فجأةً لتنتفض كما لو كان قد شكَّها دبوس:

- أيُّها الوغد، لقد فعلتها عن عمد!

- هل أنتِ غبية؟ لقد اصطدمت بها دون قصد!

دفعته "چوليا" بقوة، وكان "بييرلويچي" على وشك صفعها عندما تدخل "سيربييري" ليفرق بينهما.

- مهلًا يا شباب، هدِّئوا من روعكما.

وجد "بييرلويچي"، الذي كان يقترب من "چوليا" ويده مفتوحة مستعدة للضرب، نفسه أمام الأستاذ الذي وقف حاجزًا أمامه لحماية الفتاة.

- إنها مجنونة؛ فلتصحبها بعيدًا.

وجَّه إلى "چوليا" نظرة سيئة وابتعد متجهًا نحو الفناء. حاولت ملاحقته، لكنها لم تنجح في الإفلات من يد الأستاذ.

- أنت لن تكون موجودًا دائمًا لكي توقفني، هل تعرف ذلك؟

- العنف سلاح الضعفاء، ثم إنه من الأفضل أن تحتفظي بطاقتك للدفاع عن الحيتان.

ابتسمت "چوليا" ابتسامة بها شيء من الريبة ثم رأت بشيء من الدهشة أن "سيربييري" كان يقترب من الطاولة.

- هل يُمكن أن يعطيني أحدٌ نموذجًا؟ فأنا أود أن أشارك في حملات "جرينبيس"Greenpeace منذ فترة.

قبل أن ينتهي من عبارته، كان قد أمسك بيده بنموذج التحاق، وقرأه بانتباه وملأه ثم ترك تبرعًا سخيًا في الصندوق. كانت "چوليا" تتابع تحركاته بريبة.

- لا تظن أنك ستشتريني هكذا؛ فلقد أعطيت صوتي ضد اقتراحك.

- خيرًا فعلتِ يا عزيزتي، فيجب أن يفكر كل شخص برأسه دائمًا.

ثم وضع الأستاذ قلمه الحبر في جيب سترته.

- سوف نتقابل في الفصل يا "چوليا".

ثم ابتسم بلباقة إلى حماة البيئة الشباب وانطلق هادئًا نحو يومه المليء بعلامات الاستفهام. استمرت "چوليا" في مراقبته لعدة دقائق، ثم انتبهت فجأة إلى تلك الظاهرة الغريبة التي كشفت عن العظمة المختبئة خلف ملامح الأستاذ الجديد. لم تكن لتتخيل على الإطلاق أنها قد تجد أخًا روحيًا في شخص يبلغ الخمسين من عمره من الفئة التي كانت تكرهها أكثر من غيرها، لكن يبدو أن هذا ما يحدث معها الآن.

- أستاذ!

توقف "سيربييري" لانتظارها، وعندما دخلا الفصل معًا، لوَّح الأستاذ أمام التلاميذ بنموذج "جرينبيس" Greenpeace.

- الدفاع عن هذا الكوكب شيء يتعلق بنا جميعًا. وأنصحكم بمساعدة الآنسة "براتيزي" في مشروعها هذا.

رفعت "چوليا" كتفيها غير مبالية بالهمسات الساخرة لزملائها.

انفجر "بييرلويچي" في ضحكة خبيثة، قائلًا:

- إذا قلت حضرتك هذا، فلنا أن نثق بذلك.

لم يبدِ الأستاذ اهتمامًا لمحاولة الاستفزاز تلك، ووضع حقيبته على الأرض، ثم وضع صورة "أُوديليا" على مكتبه، وهو سلوك أثار أيضًا الدهشة، ثم أخذ وسادة مصنوعة من ريش الإوز.

- مَن منكم يُمكنه أن يصنع لي معروفًا بوضعها تحت رأس زميلكم النائم؟

عبَّرت "مارتا" عن رغبتها في التعاون؛ لتلبي بعناية طلب الأستاذ، وهكذا وقفت لترفع بلطف رأس "ماركو" كي تريحها على الوسادة.

- هل تعرف يا أستاذ أنني كل يوم أفكر في أن أحضر له وسادة، لكنني لم أفعل ذلك أبدًا؟

كانت "مارتا" قد احمرَّ وجهها وهي تختلس النظرات إلى زملائها خائفة من تعليقاتهم.

- يجب أن تفتخري بحساسيتك، وأشكرك من جانب "ماركو".

عادت "مارتا" إلى مكانها، وببعضٍ من الاعتزاز بالنفس أضاء وجهها المستدير. ثم تذكرت شيئًا، فذهبت مجددًا إلى مقعد "ماركو"، وأخذت دفتر دروسه وعادت لتجلس.

- هيا، أيها الكاتب الفلورنسي.

هكذا سخرت منها "إلاريا" الجالسة خلفها. وبشيء من الضيق نظرت "مارتا" إلى الأستاذ.

- يفعلون ذلك لأنني عندما ينام "ماركو" أكتب له ما يجب عليه فعله من واجبات.

كان "سيربييري" يدرسها؛ ففي يوم ما ستتمكن "مارتا" من الانتفاع من إيثارها للآخرين، حتى وإن لم يكن ذلك واضحًا لها الآن. وجَّه الأستاذ إليها ابتسامة جديدة توحي بالموافقة، ثم جلس خلف المكتب وشبك يديه منتظرًا.

- هل اتخذتم قرارًا يا شباب؟

نظر الجميع إلى المتحدث الرسمي باسمهم؛ فقام "چورچو" بمشقة واقفًا.

- بسبب ضربة شمس في غير موسمها، الأغلبية هنا...

نظر حوله آملًا في أن يعارضه أحد.

- كنت أقول، الأغلبية اختارت أن تقبل بهذا البرنامج الدراسي الذي اقترحته حضرتك، أو المادة.. كيف يمكننا أن نسميها...

شعر "سيربييري"باحترام عميق تجاه استسلام ذلك الفتى الذكي جدًّا، أمَّا "چورچـو" فـشعر بأنه كالجواد الأصيل المحبوس داخل سور من السياج.

- للأسف يا "چورچو"؛ إنها مساوئ الديمقراطية، أراهن أنك تعرف شعار "ڤولتير".

نظر "چيبّو"، نظرة مليئة بالإعجاب إلى صديقه، وسأله:

- يا "چو" هل تعرفه؟

- أنا أحارب فكرتك المختلفة عن فكرتي، لكنني كما قـال "ڤـولتير": "قـد أختلـف معـك في الرأي، ولكنني على استعداد أن أموت دفاعًا عن رأيك".

هكذا أجاب "چورچو"، بينما كان "چيبّو" يشده إليه بذراعيه الطويلتين، تأكيدًا على ذلك.

- أنت تعرف كل شيء حقًّا، هل تشرح لي ذلك؟

- بالتأكيد، ولكن فيما بعد.

جلس "چورچو" مستسلمًا، بينما دار الأستاذ بعينيه البرَّاقتين في الطلاب.

- شكرًا على ثقتكم؛ سأكرِّسُ نفسي مـن أجـل المـادة الجديـدة فقـط في هـذا الفـصل؛ لأن عمركم هو العمر الأكثر عُرضةً للخطر، وشباب السنة الثالثة مقبلون على امتحانات الثانوية.

علَّق "بييترو" موجهًا حديثه إلى "چورچو":

- أرأيت الحظ؟

فرد هو عليه قائلًا:

- جميل حقًّا أن نكون الشعب المختار.

كان فضول الطلَّاب حليفًا ممتازًا للأستاذ. فعندما أخرج البروجيكتور مـن حقيبتـه، صـمت مؤيدوه ومعارضـوه لمتابعـة حركاتـه. أُطفـئ النـور، وبتوجيهـات مـن الأسـتاذ قـام "ميكيلـه" و"لورينزو" بضبط شاشة صغيرة محمولة ووضعها خلف مكتب الأستاذ.

- لاحظوا الشرائح المعروضة.

أمام أعين الأولاد، بدأت سلسلة من الصور القديمة المعدلـة تظهـر بـاللون البنـي الباهـت بتدفق. في الصورة الأولى، كان هناك شاب نحيف كالهيكل العظمي يرقـد ممـددًا عـلى سريـر. عكس مظهره الهزيل وعكته العميقة. بدا كما لو أن أحـد أجـداد "فيـديريكو سـيربييري"، راح ضحية لحب أليم في شبابه. كما أخبرهم الأستاذ، بشكل خاص، عمَّا يدور في عقله. في الشريحة الثانية المعروضة، رأوا جثة امرأة غرقـت، منتحـرة بـسبب حـبٍّ تعـيس. أمَّـا الـصورة الثالثـة، فكانت الأكثر إزعاجًا، كانت لشاب مشنوق، قتله غريم له في الحب.

أوصى الأستاذ بعدم التقليل من شأن الآثار المدمرة للغيرة.

توالت الشرائح لتصبح أكثر قسوة مع مرورها. بدأ أحد الطلاب يضحك بصوت خافت.

علَّق "چيبّو" بصوت خافت:

- دائمًا ما تعجبني أفلام الرعب.

في النهاية، بعد آخر صورة دامية، أغلق الأستاذ البروجيكتور.

- لا تزال هذه المآسي تحدث حتى اليوم، لكن الحب مـستمر في تـرك سلـسلة طويلة من المعاناة خلفه. تبقـى الطـرق الأكـثر انتـشارًا للانتحـار الـذي لـه علاقـة بالحب هي فقدان الشهية وقطع الشرايين، وبشكل أقل نـسبيًّا تنـاول الـسم. مـن

الإحصائيات البسيطة التي يسهل استخدامها، يمكننا القول إن المخدرات لها ضحايا أقل.

هنا حمد "إرنستو" الله على اختياره ماكينة الحلاقة الكهربائية للحلاقة قبل عامين.

قبل أن ينتهي الوقت، قام الأستاذ بتوزيع نسخ من مسرحية "روميو وجولييت" لويليام شيكسبير.

- لمن قرأه بالفعل فإن قراءة ثانية أكثر انتباهًا سوف تكشف دون شك عن معانٍ جديدة لهذه المأساة العظيمة.

رأى "چورچو" في عيني رفيق مقعده شيئًا من الاهتمام، وتذكَّر أنه كان قد قص على "چيبّو" قصة العاشقين المنتمين إلى مدينة "ڤيرونا" أثناء مراجعة بعض الطلاب لمادة الأدب العام السابق. لدرجة أن ذلك الأخير تطوع وأخذ يتحدث وكأنه ناقد أدبي، فبدا الأستاذ سعيدًا جدًّا لاستماعه إليه. وفق التحليل النقدي لـ"چيبّو"، فإن العاشقين أصبحا ضحية للوقت الذي لعب بحياتيهما. تسبب سوء الفهم مع السم وسوء الحظ في الباقي، وبالتالي فإن المأساة كانت تدور حول مشكلة ذات تنظيم سيئ للغاية.

كان الجميع يضحك، وحتى "سيربييري" بدا مستمتعًا بهذه القراءة العابرة وغير الشعرية للمأساة، ثم أكد أن الحب، الحب فقط، الذي نشأ بين العاشقين هو سبب مأساتهم. بدا "چيبّو" منتبهًا لتلك الافتراضية.

- هل يوجد بينكم مَن هو ماهر في استخدام الكمبيوتر؟

نظر الأستاذ حوله بحثًا عن متطوعين. ووجد الفصل كله ينظر نحو "چيبّو"، الذي تظاهر بالتقاط شيء غير موجود تحت مقعده.

- "لويچي" ماهر للغاية في استخدام الكمبيوتر.

هكذا أفشت "إلاريا" سره بحسن نية، فكانت تعرف جيدًا أن "لويچي ريڤولي" لم يكن ليمد يده أبدًا على فتاة.

همس لها زميلها من بين أسنانه، قائلًا:

- اسمعي، ألا تستطيعين الاعتناء بشؤونك، ها؟

لم تكن لدى "چيبّو" الرغبة في وضع مهاراته في خدمة أستاذ، وخاصة أنه كان مجنونًا بعض الشيء، ولكن "فيديريكو سيربييري" كان يمتلك سلاحًا قويًّا، ألا وهو اللطف والاحترام.

- "لويچي"، يا عزيزي.. هل يمكنني الحصول على مساعدتك؟ أود القيام بتحميل جزء من حصصنا على بعض صفحات الإنترنت، فهل تستطيع القيام بذلك؟

- نعم، أستطيع ذلك.

- رائع! شكرًا، أشكرك من كل قلبي، لا أعرف ماذا كنت لأفعل من دونك.

لم يكن "چيبّو" معتادًا على تلقي كلمات الشكر والتقدير، ولا حتى على أن يتم إسناد أي عمل مفيد له؛ وهكذا، عن طريق هذه الكلمات القليلة والبسيطة، أحس بشعور بالرضا عن تجربة كلا الأمرين المرضيين في صباح أحد أيام أكتوبر. لاحظ مسرورًا تعبيرات الدهشة على وجوه زملائه، الذين أسرعوا للخروج من الفصل مع صوت رنين الجرس. اقترب منه "چورچو"، بينما يضع الكتب في حقيبة ظهره.

- إذًا، يوم الإثنين الساعة الرابعة يناسبك؟

- آه يا "چو"، الآن لا أعرف حقًّا إلى من سأعطي باقي وقتي، هل رأيت ماذا طلب مني هذا المخبول؟

- يا فتى، إنها صفحة على الإنترنت تنشئها بينما تتحدث في التليفون، وتشاهد أحد أفلام البورنو، وتتشاجر مع والدك. هيا يا رجل، لا تختلق الحكايات.

تذمَّر الآخر:

- لا بأس، فلنقل يوم الإثنين.

انتبه "چورچو" إلى أن الجميع اختفوا، فأمسك بحقيبة ظهره ونزل مسرعًا نحو السلالم، وعبر الفناء جريًا. تمكَّن من اللحاق بـ"چوليا" و"إرنستو" وقد انقطعت أنفاسه، بعدما كانا قد وصلا إلى البوابة الحديدية.

- ها.. أنا لن أستسلم. سأبدأ برنامج التاريخ يوم الإثنين الساعة الرابعة عندي، هل ستنضمان إلينا؟ سيأتي "چيبّو" أيضًا.

انتظر "إرنستو" ليعرف قرار "چوليا" حتى يفعل مثلها. استغرقت زميلته بضع ثوانٍ كي تقيِّم ذلك الاقتراح.

- أنا أيضًا لا أرغب في ترك التاريخ، يوم الإثنين لا بأس به.

- كذلك بالنسبة لي.

هكذا رد "إرنستو" دون قلق.

- لم يكن لديَّ أي شك يا "إرني".

كان "چورچو" قلقًا من أجله. فكلاهما كانا ابنًا وحيدًا، وتربيا ونضجا معًا، وفي صيف الثالثة عشرة من عمرهما، تم إرسالهما إلى مدرسة داخلية في "كامبريدج"، وهناك ابتكرا طريقة سرية للتواصل فيما بينهما قائمة على الألغاز اللغوية. وأثناء العودة من تلك الرحلة، قامت "ليڤيا"، والدة "چورچو"، بإرسالهما للمشاركة في مسابقة خاصة بالألغاز، وفاز الاثنان بالجائزة مناصفة مع أحد معلمين المدارس الابتدائية. كانت الجائزة عبارة عن جهاز تسخين التوست. كان ذلك المُعلم سعيدًا بترك الجائزة لهما، تلك الجائزة التي تراكمت عليها الأتربة بسبب عدم الاستخدام، وظلت فوق مكتبة "إرنستو" لسنوات. كان من الطبيعي أن يلتحقا بالمدرسة نفسها، وأن يكونا في الفصل نفسه.

قبل أن يصبح "إرنستو" مريضًا بالحب، كانت فكرة يوم الإثنين محاولة لإحياء ذكرى أيـام صـداقتهما ليتمكنـا مـن الانتهـاء مـن الـسنوات المملـة للمرحلـة التمهيديـة للمدرسـة الثانويـة الكلاسيكية. كانـا يقومـان بقـضاء تلـك الـسنوات في الإبـداع، والألعـاب، والألغـاز، وكـان الفـصل يتبعهما بشكل لا يُصدق. كانا يمثلان ثنائيًا رائعًا مُبـدعًا ومبهجًـا، "چورچـو" و"إرنـستو". وهكـذا، عندما انتبه "چورچو" إلى أن عقل صديقه بدأ رحلة توهانه بـشكل خطـير في تلـك المتاهـة التـي تُدعى "چوليا براتيزي"، أمِل في أن يكون على الأقل حبًا متبادلًا. لكن انتظاره بدا بلا نهايـة، وبعـد مرور عام، ولأن "چورچو" فتى عملي، بدأ يطلب من "إرنستو" أن يعود إلى رشده، ومنذ فترة بـدأ في اختيار طريقة الاستفزاز الساخر معه، لكن جاءت النتائج مخيبةً للآمال على أي حال.

ذلك الصباح كان يدرس تصرفات "إرنستو" سائلًا نفسه إن كانت تلـك الشخـصية الهزيلـة ستعود يومًا ما إلى ما كانت عليه أم لا.

سأل "إرنستو":

- هل نقول لـ"بييترو" كذلك؟

- أي شخص يرغب في دراسة التاريخ. ولكن لن تكون هناك سـجائر ملفوفـة يـوم الإثنـين. اتفقنا؟

رفعت "چوليا" أحد حاجبيها بشيء من الشك، لكنها لم تعترض لاعترافها لـ"چورچـو" بنـوع من السلطة. ثم وصل إليهما "چيبو" بخطواته غير المنتظمة.

- هل كنت بارعًا فيما يخص "روميو وجولييت"؟

استقبله الأصدقاء بالضحكات ونكش "چورچو" له شعره الذي كان على هيئة عرف الديك، مثل رجال شعب الهورون.

- مع الوضع في الاعتبار أنك لم تقرأه أبدًا، فأنت تصرفت بشكل عظيم.

أجاب "چيبو":

- ولكنني جعلته يفرح، ذلك المسكين.

علقت "چوليا" مستمتعة:

- لحسن الحظ لم تكن هناك تليفونات محمولة ليتمكن المرء من التواصل مع الآخر في لحظتها، وإلا لما كتب شكسبير هذه المسرحية.

أضاف "إرنستو" قائلًا:

- والآن، "سيربيبري" العقل، وأنت.. الذراع.

- دعنا من ذلك الآن، وركِّز في المصيبة التي أصبحت فيها بسبب تلك الحمقاء "إلاريا".

لكن، حتى وإن لم يُظهر هذا، كان واضحًا أن "چيبّو" يشعر بالامتنان. وبينما يتحدثون، في طريقهم إلى باب الخروج، جاءهم "بييترو" وهو يجري.

توقف "چورچو" لينتظره، ثم قال:

- ألم تخرج بالفعل؟

- توقفت للتحدث مع "سيربيبري"، فأنا أود أن أهديه العرض الأولي لفرقة الـ"ريد" (Red).

فهم "بييترو" أن عليه أن يشرح لفرقته الصغيرة، تلك الفرقة التي تمنت أن يهجر الأستاذ الجديد أرض الملعب، فقال:

- قد يكون ذلك الشخص غريبًا، لكن من وجهة نظري هو شخص يفهم في الموسيقى، لا أعرف. إنه مجرد إحساس.

فقال له "چيبّو":

- "بييترو".. آخر مرة اتبعت فيها إحساسك، سرق البعض منك كل السماعات. فاترك إحساسك جانبًا.

هنا ضحك الجميع ومعهم "بييترو".

- يا فتى، كانوا من أمريكا الجنوبية، وبدوا أشخاصًا طيبين.

- ياه، تخيل إن كانوا شخصيات سيئة. يبدو أنني لا أستطيع أن أتركك بمفردك للحظة.

مد "چيبّو" يده ليضعها على دوائر الشعر المفلفل لـ"بييترو"، بينما المجموعة تتجه نحو باب الخروج. راقب "چورچو" أصدقاءه وهم يسيرون أمامه. شعر في نفسه بقوة تقاوم الأشياء غير العقلانية. كانوا قلّةً، لكنهم يكفون. مَن يعرف، ربما يستيقظ "إرنستو" من ثباته الطويل. إضافة إلى ذلك، كان مقتنعًا بأن الجزء السليم من عقل الأستاذ الجديد، ذلك الجزء السليم، سيكون فخورًا به.

***

بعد مرور عدة أيام، كان الأستاذ "سيربييري" يعبر فناء المدرسة متجهًا نحو بوابة الخروج، مفكرًا في نتائج الدروس الأولى عن أضرار الحب في فصل 3/2. كان الوقت مبكرًا كي يبتهج، لكن عندما ذكر ثنائية "الحب/الدمار"، بدأ الموضوع يلفت انتباه بعضهم بالفعل، وهذا ما منحه الأمل.

كان قد وصل تقريبًا إلى البوابة الحديدية عندما أوقفت مسيرته امرأة ذات جسد ممتلئ وفاتن، وشعر أحمر ناري، ترتدي قميصًا منقطًا أزرقَ.

- لم نتعرف بعد. أنا "أديلِه بالميري"، أدرس مادة اللغة اللاتينية في الفصول الثالثة للفرق الثلاث.

مدت إليه يدها ذات الأظافر الطويلة للغاية، والمطلية باللون البنفسجي.

- الشرف لي، أنا "فيديريكو سيربييري".

بادلها التحية، راسمًا ابتسامة ودية على شفتيه. ظلت الأستاذة تمسك يديه لوقت ليس بالقليل.

- عرفت أنك وقعت بين ذراعي الموت.

اضطر الأستاذ على الفور إلى قبول عادات هذه الفئة، ألا وهي التعامل بالضمير "أنت" بدلًا من "حضرتك" بين مَن لا يعرفون بعضهم البعض على الإطلاق.

- معذرةً، ماذا؟

قامت الزميلة بالرد على دهشة الوافد الجديد بضحكة رنانة، وقالت:

- بعضنا يطلق ذلك الاسم على فصل 3/2.

كانت تلك المرأة تثير قلقه، وعلى الرغم من ذلك، كونه نشأ تحت إرشادات التربية الجيدة، استمر في توجيه النظرات المرحبة.

- أيتها الزميلة العزيزة، لقد بدوا لي أولادًا مجتهدين وجيدين جدًا.

فردت عليه الأستاذة "باليري" مرة أخرى بضحكة رنانة، هذه المرة شابتها لمحة سخرية.

- وكيف لا، فهناك عناصر ذات مستوى رائع، ففي العام الماضي قام "ريڤولي" بتزوير إمضاء والده لأشهر، ثم ضرب "فلاميني" ضربًا مبرحًا كما تدور حوله شبهات كبيرة للسرقة في صالة الألعاب الرياضية.

- قد يكون "ريڤولي"...

- الكل يطلقون عليه "چيبّو".

- بالتأكيد إنه "لويچي"، أنا أعرف جيدًا مَن هو.

كان دائمًا مقتنعًا بالروح السلمية لشعب الهورون وبسلالته، والذي ينتمي إليهم "لـويچي ريڤولي"، لكن الزميلة لم تكن بالتأكيد تفهمه.

- لم يتوقف الأمر عند ذلك، ففي العام الماضي، بـدأت "براتيـزي" و"بييـترو سولفيتـسي" في زراعة الماريجوانا في حديقـة المدرسـة. ظنًّا أن الأمـر سـيكون سـهلًا دون أن يـتم اكتـشافهما، وكانت "براتيزي" ترويها كل يوم بحجة الحفاظ على البيئة.

استمع "سيربييري" إلى هذه السلسلة من الثرثرة ونفوره يزداد ناحية تلك المعلمة.

- تم إيقافهما لمدة شهر، ولولا "چورچو جريجور"، لضاع العام كله.

- لماذا؟ ماذا فعل "جريجور"؟

- هدد الناظر بالإبلاغ عنه بسبب إلحاق الـضرر، بإثبـات أن أحـد الـزميلين، لا أذكـر مَـن، أُصيب بقطعة حديدية قديمة صدئة، موجودة في الفناء. وهكذا، لكي يتجنب الناظر المزيد من المصائب، ترك الأمر يمر مرور الكرام. لكنني أود أن أقول لك القصة كاملة.

ها هو ذا، فكَّر الأسـتاذ، فريـق التـدريس في مدرسـة ثانويـة رفيعـة المـستوى. زمـرة مـن الجواسيس أصحاب الألـسنة الطويلـة، والتلاميـذ مـضطرون للمعانـاة مـن إسـاءاتهم. كانـت "باليري" مستمرة في الحديث، ويداها السميكتان تتحركـان أمـام أنـف "سـيربييري" يـصحبهما ثرثرة ملحة.

- ... أحدهم رأى "ريڤولي" في المساء السابق للحادثة، وهو يتجول في المدرسة ومعه قطعة حديدية يكسوها الصدأ. هل فهمت يا عزيزي؟ إنها عصابة.

اقتربت "باليري" من أذن زميلها لتؤذي أنفه برائحة عطرها منتهي الصلاحية.

- إن الشيطان يسكن في جسد "جريجور" ذلك، فلا يترك لنا الفرصة لكي نوقعـه في الـشرك حتى لو لمرة واحدة.

كان "سيربييري" معجبًا بروح "چورچو"، تلك الروح الكريمة التي تشبه روح "مَكيافيلّي". كيف يمكن للأولاد أن يقتربوا من "شيشرون" مرورًا بتلك الصورة الخبيثة المؤذية؟ المدرسة الإيطالية كانت في أزمة أيضًا لأن بعض الأساتذة المعلمين كانوا يحملون اضطراباتهم العصبية معهم إلى الفصل، وكان ذلك واضحًا. تحرك "سيربييري" عدة خطوات آملًا في قطع تلك المحادثة البغيضة، لكن زميلته لم تستسلم مقتنعة بأن لديها مهمة يجب أن تقضيها.

- يجب أن تعرف مع مَن تتعامل. بالتأكيد، لدينا الشاعر، ولكن مؤخرًا أراه متقهقرًا هو أيضًا.

- آه، هناك أيضًا شاعر؟

- "إرنستو جرادي"، فهو موهبة أدبية. نشر مجموعة من القصص القصيرة في إحدى المجلات الأدبية، ويكتب شعرًا، وقصائد حب، إنها جيدة تستحق الانتباه، مع وضع سنه في الاعتبار. في السنة الأولى في المرحلة بعد الإعدادية فاز بمسابقة إقليمية.

رأت "بالميري" أخيرًا أنه على الأقل كان لخبر من أخبارها نتيجة طيبة، ولكنهما كانا قد وصلا تقريبًا إلى الشارع، ورهينتها كان قد أوشك على الهرب.

- لكن هذا العام أراه خارج نطاق الخدمة.. هل تريد أن أوصلك؟

لم يهتم "سيربييري" بإخفاء تعبيره القلق.

- لا.. لا تزعجي نفسك، شكرًا، فأنا أحب السير.

ثم حيَّا كل منهما الآخر وألقت الأستاذة على زميلها نظرة تفهم أخيرة قبل أن تضع المفتاح في إحدى السيارات الصغيرة، حمراء اللون.

- "سيربييري"، يا عزيزي.. أنت لم ترَ شيئًا بعد، أقولها لك.. حظٌّ سعيدٌ.

- إلى اللقاء.

سار نحو محطة الأتوبيس وهو يفكِّر في المعلومة المفيدة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من سلسلة الإدانات غير المناسبة تلك. هو يفهم ما يمر به ذلك الطالب، فوراء تلك النظرة التائهة يوجد أكثر من مجرد شاب خجول ومحبط. كان واضحًا للغاية أن المآزق قد أضعفته، وتعوق تفكيره، وتشتت موهبته.

ذلك الطالب لم يكن يستطيع الاعتماد فقط على حب الدراسة، ولا حتى الاجتهاد في المعارك من أجل الحيتان في بحر اليابان أو في الاهتمام بالآخر، ولم يكن يجد النجاة في الموسيقى ولا حتى في روح ثائرة للتمرد. كان وحيدًا متروكًا لألمه.

من الواضح أنه يتمتع بحب الأصدقاء، لكن هذا الحب ليس كافيًا له. فوهم الحب ألقاه في سجن بلا نوافذ عزله عن العالم، ولم يكن في استطاعة زملائه سوى تمرير الطعام إليه من بين القضبان، ولكن بالتأكيد دون أن يتمكنوا من تحريره. وبينما كانت تُفتح أبواب الأتوبيس رقم 22 كان "فيديريكو سيربييري" يشعر بما يشعر به البحَّارة بعد شهور في البحر المفتوح، لتظهر أمامهم أخيرًا قطعة أرض يمكنهم وضع رايتهم عليها. كان يعتبر الشاعر ملعونًا.

***

لطبعه الكريم، اعتاد "إرنستو" منذ فترة مساعدة أصدقائه المتعثرين دراسيًّا. فبداية من العام الأول من العامين التمهيديين للمدرسة الثانوية الكلاسيكية، حمَّل نفسه عبء التبرع بساعات من وقته لمساعدتهم في المواد الأكثر صعوبة. وهكذا، وفي عصر ذلك اليوم كان بيته مفتوحًا. بمجرد أن انتهى من الاستحمام فتح باب البيت على أخره وهو يرتدي ملابس المنزل.

- تعالوا إلى الصالون، هناك سنكون على راحتنا.

ضرب "چيبّو" كف زميله بكفه.

- أهلًا يا "إرني".

كان الفتى العملاق قد دخل ومعه زجاجات البيرة، بينما حمل "بييـترو" و"مارتـا" الكتـب. وضع "بييترو" الكتب التي يحملها معه على الأرض متأففًا، وهو يقول:

- تغيَّر "إرني" تغيُّرًا سخيفًا. ما هذه السلبية؟ لم يعد هناك أي تفاهم..

فأضافت "مارتا":

- آه، أنا لم أجهد نفسي في هذا إطلاقًا.

ثم خلعت معطفها الصغير، فحـوَّل قميـصها أحاسـيس "إرنـستو" وعقلـه إلى اتجـاه آخـر. خلعت "مارتا" حذاءها أيضًا، ثم وضعت الكتب على الطاولة، وفتح الأستاذ "إرنـستو" مـذكرة الملاحظات. اختفى "چيبّو" في المطبخ، ثم عاد بعد قليل بأربعة أكواب.

- "إرني" إن استمررت هكذا، لن أنجح في مادة اللغة اليونانية.

قالت "مارتا" ذلك وهي حزينة، فوضع "إرنستو" يده عـلى كتفهـا برفـق، في محاولـة منـه لطمأنتها، لكنه كان بالفعل يفقد عقله وهو يفكر في "چوليا".

- لا تقلقي، يمكنك تعويض تلك المواد الثلاث، فنحن ما زلنا في بداية العام.

ذهب "بييترو" لفتح النافذة وأشعل سيجارة، وقال:

- علينا أن نحاول، وإلا لماذا نظل محبوسين عصر كل يوم جمعة؟

فتح "چيبّو" البيرة وصبَّها في الأكواب، وقال:

- هيا، فعلينا على الأقل أن نحاول. لا يمكنني أن أسقط في أكثر من مادتين هذا العام.

لم ينتبهوا إلى "إرنستو" الذي بدأ في التحليق بعيدًا عن "إبيقور" الفيلسوف اليوناني. كانـت "مارتا" ترتدي قميص "چوليا"، عذبته رائحة القميص التي تشبه رائحة القلم المبري.

قال "إرنستو" وكأنه يحادث نفسه تقريبًا:

- ابدأي أنتِ يا "مارتا" في الترجمة.

فتحت زميلتهم الكتاب في صفحة الترجمة:

- المُتعة... من أجلنا... على العكس يكون... لا امتلاك... لون، في... عزيز... كورال.

كانت "مارتا" تواجه صعوبة بالغة، لكن "إرنستو" التائه في خيالاته بدا وكأنه ليست لديه أدنى نية في إيقاف التدمير الذي يحدث لفقرة "إبيقور". عندئذ تبادل "چيبّو" و"بييترو" النظرات، وأغلقا تقريبًا في الوقت نفسه دفاتر وكتب اللغة اليونانية.

- هيَّا يا رجل، بهذه الطريقة سنسقط في مادة اللغة اليونانية بالتأكيد.

على الفور احمر "إرنستو" من الخجل، والإحراج.

- اعذروني، لقد سرحت لحظة.

- لحظة! بل قل عامًا.

شرب "چيبّو" من البيرة ثم تجشَّأ بقوة وهو يربت على كتف "إرنستو" معبرًا عن تفهمه لحالته.

- يجب أن تتحدث معها. فأنت تائهٌ للغاية. سيكون من الأفضل لك دخول عالم المخدرات.

مرت عدة ثوانٍ من الصمت، أوضح "إرنستو" فيها إن كان لدى أحد شيء يقوله، فتلك هي اللحظة المناسبة لذلك. أخذ "بييترو" نفسًا عميقًا من سيجارته ثم حبس الدخان في صدره لبضع ثوانٍ. قال وهو يخرج الدخان من فمه:

- لكن، هيا، لا يمكنك الاستمرار بكل هذه السلبية، فهكذا تنقل طاقة سيئة، أنت محبط للغاية.

لم تحب "مارتا" رؤية أي شخص يعاني، أيًا كان هذا الشخص، ولأنها أفضل صديقة لـ"چوليا"، فكَّرت في تقديم مساعدتها لتخفيف آلام "إرنستو".

- "إرني"، إن "چوليا" لا تتحدث أبدًا عن الأولاد أو الجنس أو الحب.. هذا يعني أنه لا يعنيها أي شيء من هذا، وأقسم لك بأن الأمر هكذا.

فكَّر "إرنستو" أن "مارتا" بالتأكيد على دراية جيدة بتزاوج الفقمات، لكنها لن تستطيع التحدث بتلقائية وحيادية عن علاقته بـ"چوليا"، لذا فكلامها لم يعطِ الأثر المرغوب له.

قال "چيبّو":

- كلكن غريبات، من الممكن مع الوقت.. ربما يصبح لدى "چوليا" الرغبة...

كان يحرك يده اليمنى المقبوضة أمامًا وخلفًا.

- أحسنت، هل من رأيك أن يقفز عليهن؟

- لاااا.. ولكن، على الأقل يحاول أن يمد يده، ربما نعم.

كان "بييترو" يرسم بيده اليمنى الحرة زخارف زهرية على غلاف دفتر اللغة اللاتينية.

- هيا يا "إرني"، استمتع بحياتك! وحتى إن كان هناك خطر أن تفشل، عليك أن تحرر عقلك، ويقول ذلك أيضًا أحد معلمي الزن البوذيين: "إن كنت تحب، فأحبَّ صراحةً".

هنا تدخل "چيبّو" قائلًا:

- لا، ليس على "إرني" تحرير عقله... وإنما شيء آخر.

هنا رمته "مارتا" بنظرة ساخطة، بينما فكَّر "إرنستو" في كورال المأساة اليونانية التي كان سيصبح هو بطلها، حيث تدخل "ميديا" الصالون مرتدية

زيًا داكنًا وشعرها ملفوف لأعلى، ووجهها نحيف، والهالات تحت عينيها. تسبب مظهر والدته في شعورهم بالخجل، وانفضت المجموعة الكورالية على الفور.

دخلت والدة "إرنستو"، وقالت:

- معذرةً يا أولاد، أريد أن أحضر كتابًا فقط.

اختارت "تشيتشيليا" أحد الكتب من المكتبة، وقبل أن تخرج فرَّقت شعر "مارتا"، وداعبتها بيد حنونة على خدها، ثم اختفت كشبح وبقي الأولاد على راحتهم.

- يجب أن يأتي أحد لمباركة هذا المنزل يا "إرني"، ولكن هل والدتك على هذه الحالة من أجل "كوشّيتونِه" (أبو فخذ كبير)؟

كان صمت صديقهم دليلًا على معرفتهم إجابة هذا السؤال. فجأةً خطر "فيدريكو سيربييري" على بال "چيبّو" الذي نظر إلى الساعة.

- لقد تأخَّر الوقت.

نهض "چيبّو" واقفًا، و"إرنستو" يراقبه قلقًا.

- إلى أين؟

- الساعة الخامسة الآن، هل نسيت أن "چورچو" سيذهب إلى هناك؟

أدخل "بييترو" الكتب بسرعة في حقيبة ظهره وتوجه إلى "مارتا":

- أنا ذاهب إلى الجراچ للتدريب، هل ستأتين؟

- ولكننا لم نبدأ حتى، وماذا سنفعل في الترجمة؟

كان "إرنستو" يشعر أنه مسؤول عن التفكك السريع للصحبة.

- سأحضرها أنا إليكم مصورةً غدًا في الساعة الأولى، وعد.

راقبهم بانفعال وثلاثتهم يغادرون المكان في تلاحقٍ سريعٍ، ثم لحق بـ"چيبّو" وأوقفه عندما وصل بالفعل إلى الباب.

- هل "چورچو" متأكد حقًّا؟ فمن الممكن أن يحدث شيء غير صحيح.

- أنت تعرفه، فمَن باستطاعته إيقافه. إن لم يصل إلى نهاية هذه القصة فلن يستريح. ولكن لا تنفعل، سأذهب أنا معه.

- لا، سآتي أنا أيضًا.

عاد "إرنستو" من جديد إلى عالم الواقع، حيث يجب عدم ترك الآخر. ارتدى بلوفر بسرعة، وارتدى عليه أوَّل جاكيت قابله، ثم خرج من المنزل ليتبع صديقه.

***

سار "چيبّو" و"إرنستو" في شارع طويل مليء بالأشجار. كان "لويچي ريڤولي"، صاحب الذقن المرفوعة دائمًا، يفحص أرقام المنازل، ومن حينٍ لآخر يسرع الخطى ليبعد عن رفيقه بعدَّة أمتار، فقد كان قلقًا يريد الوصول سريعًا. كانا قد مشيا جزءًا كبيرًا من الطريق عندما توقف "چيبّو" أمام باب كبير داكن اللون.

- ها هو، إنه المنزل رقم 24.

اقترب من جهاز الإنتركم وأخذ يبحث عن الاسم، بينما "إرنستو" يحرك سوستة الجاكيت دون توقف.. إلى الأسفل وإلى الأعلى. أخذت ركبته تهتز بسبب القلق.

- ماذا بك يا "إرني"، هل أُصِبْتَ بمرض الحزام الناري الآن؟

- أنا فقط عصبي قليلًا.

انفجر "چيبّو" في الضحك:

- انظر، ليس علينا أن نخطفه، أليس كذلك؟ هيا فلنتحرك من هنا. سوف ننتظر "چورچو" هناك في الخلف.

قاما باختيار زاوية من الطريق على مسافة آمنة من البـاب الكبـير، وهنـاك تواريـا خلـف إحدى سيارات النقل الصغيرة.

سأل "إرنستو":

- ولكن كيف اكتشف "چورچو" مكان سكن "سيربييري"؟

أخرج "چيبّو" من جيب بنطاله علبة سجائر مكرمشة جدًّا وأشعل منها واحدة.

- أفشى له هذا الأمر أحد طلاب السنة الثالثة، حيث كـان يأخـذ عنـده دروسًـا خـصوصية العام الماضي.

لم يكن "إرنستو" مقتنعًا بتلك المبادرة، وكان "چورچو" غامضًا للغاية، عنـدما طلـب مـنهم الحضور تحت بيت الأستاذ.

- ولماذا اليوم بالتحديد في هذه الساعة؟

تأفَّف "چيبّو"، فبالنسبة له ملاحقة أحدهم كانت أكثر الأمور براءة في الـدنيا، لـذا فهـو لم يحتمل مخاوف زميله.

- اسمع، "روبّي" هذا، الذي يدرس في فصل 2/3، ذلك القصير قال لـ"چورچو" إن عصر كـل خميس كان "سيربييري" يختفي دائمًا فجأة، وفي اليوم التالي يبدو غريب الأطوار للغاية.

- واضح، لقد تحققنا بالفعل أن رأسه ليس على ما يرام.

- بالتأكيد، لكن، "چورچو" معه حق، يجب أن نتعامل معه كظاهرة. ثم، لماذا يكره الحب هكذا، هل سألنا أنفسنا هذا السؤال؟

كان "إرنستو" مستمرًا في السير دون توقف حول صديقه.

- وما الذي سيتغير إذا عرفنا إجابة هذا السؤال؟

- سيتغير الكثير. إذا كان يعارض الحب بهذه القوة، فلا بد أن يكون قد عانى من الحب. ألا ترى أن هذا ممكن، ها؟ على أي حال، أنا أيضًا أشعر بالفضول وأريد أن أعرف السبب.

- أنت تقضي الكثير من الوقت مع "كاميلّو" وهذا غير جيًّد لك.

كان قلق "إرنستو" يختبر صبر "چيبّو".

- لقد أصبتني بالصداع يا "إرني". نحن هنا بالفعل، لذا توقف عن إلقاء الأسئلة وهدِّئ من روعك. اتفقنا؟

كان "إرنستو" صامتًا ومنزعجًا. تظاهر بفحص كيفية عمل السوستة. ندم صديقه على طريقته الصعبة في التعامل معه. فكونه صديقًا لـ"إرنستو"، يعرف مدى حساسيته. فكانت تكفيه نبرة حادة بعض الشيء كي تجعل الدنيا مظلمة أمامه، ولكن بالنسبة لـ"چيبّو" لم يكن من السهل دائمًا تمالك نفسه. لكنه كان ينتبه دائمًا عندما يحزن "إرنستو" من ذلك، وحينها كان يحاول دائمًا، ودائمًا بطريقة مندفعة، معالجة الأمر.

- اسمع يا "إرني".

هنا أخذ الزميل يتحدث بصوت عذب مثل صوت مربية الأطفال حتى وصل إلى درجة الهمس:

- نحن لسنا هنا لأن "بييترو" أحس بوجود خطب ما. وعندما يقترح "چورچو" فعل شيء ما، فإن هناك دائمًا سببًا، وأنت تعرف ذلك.

نعم، في كل مبادراته كان "چورچو" يتبع المنطق، لكنه فضوليٌ للغاية، وهي صفة يمكن أن تسبب المصائب بكل سهولة. و"إرنستو" يود أن يعيش بعيدًا عن أي مفاجآت، إلا إذا فاجأته "چوليا" وأعلنت حبّها له. نظر "إرنستو" إلى صديقه بتسامح، متابعًا إياه وهو يدخِّن. شعر بالندم على اتباع أصدقائه في تلك المغامرة

الغريبة، ولكنه بعد بضع ثوانٍ من النقد الذاتي، رأى "چورچو" من بعيد؛ حيث كان مختبئًا خلف إحدى السيارات المركونة ويلوح بذراعيه لهما.

قال "إرنستو":

- ها هو هناك.

عبر الاثنان الشارع بخطوات سريعة.

وبمجرد أن وصلا إليه قال له "چيبّو":

- يا "چو"، تكاد تصبح أخطر من جاسوس روسي.

رد "چورچو" على "چيبّو" الذي كان منفعلًا من ذلك التجاوز وهما يضحكان معًا:

- معك حق، فما نفعله ليس أخلاقيًّا، أعرف ذلك.

الوحيد الذي لم يستطع الاستمتاع في ذلك الموقف كان "إرنستو". توجَّه "إرنستو" بتلك الكلمات إلى "چورچو" الذي استقبل ذلك التوبيخ:

- من الجيد أن تقول ذلك بنفسك.

- ألا تتفق معي يا "إرني" أن استخدام أحد الفصول لممارسة هواجسي الخاصة يُعد أمرًا غير شريف؟

- لكن، ما الذي تظن أنك ستكتشفه بملاحقتك ذلك المسكين؟

- لا شيء بالتحديد. أنا فقط أود أن أعرفه بصورة أفضل، ربما نتمكن من فهم السبب وراء وقوعه في هذا الهذيان.

- هيا يا "إرني"، نحن هنا بالفعل، أقسم لك بأننا لن نجعل أحدًا يكشفنا.

كان "چيبّو" يحاول التخفيف من وطأة الموقف، لكن ما إن فتح "إرنستو" فمه ليبدأ شكواه، حتى خرج "فيديريكو سيبربييري" من الباب مرتديًا معطفًا

شتويًا رماديٍ اللون وفي يده شمسية سوداء. ودون أن ينظر حوله، واثقًا من وجهته، اتجه نحو اليمين وتحرك الثلاثة على الفور خلفه.

قال "چورچو":

- هيا بنا نذهب، لكن ليس علينا أن نكون خلفه تمامًا.

فرد "چيبّو":

- اعلم.. أنا خبير، فقد قضيت عمرًا في مراقبة البنات.

كان "فيديريكو سيربييري" يسير بخطوات سريعة للغاية، فشعروا بالتعب من ملاحقته، كما فقدوا أثره من حين لآخر، فكانوا يضطرون إلى الجري سريعًا إلى الأمام.

قال "چيبّو" بعد أخر عملية إسراع للحاق بالفريسة:

- انظروا إلى المسافة التي يجريها، سأبقى أنا هنا.

انقطعت أنفاسه. لم يعرف أحد منهم أن "فيديريكو سيربييري" مشّاءٌ ممتاز، لكنهم لم يدركوا ذلك إلا بعد نصف ساعة من المسيرة.

- آه يا "چو"، إن وصل ذلك الرجل إلى مدينة "رييتي" سيرًا على الأقدام، فلن أستطيع المتابعة.

كان "چيبّو" يحاول التقاط أنفاسه فاتحًا فمه بشكل كبير، واضعًا يده على طحاله وكذلك "إرنستو"، الذي كانت لياقته البدنية منخفضة، كما شَحُبَ وجهه.

نبههم "إرنستو" قائلًا:

- يجب أن أتوقف وإلا سأفقد الوعي.

كان "چورچو" أكثرهم لياقة، لكن نظرًا لحال فريقه، أدرك أن "فيديريكو سيربييري" سيهرب منه في أقرب وقت.

قال "چورچو" عندما انتبهوا إلى أن الأستاذ توقف أمام مدخل أحد المستشفيات الكبرى:

- لا بأس، فقط خمس دقائق أخرى ثم نتركه.

- آه، ها هو، جيد، عالجوني هنا.

وهكذا جلس "چيبّو" على حافة الرصيف، وقد أنهكه اللهاث. فعل "إرنستو" مثله على الفور، ولكن بعد ثوانٍ قليلة، وأثناء تألم الاثنين المنهكين، رأوا الأستاذ يدخل من البوابة.

قام "چورچو" بتحفيزهما:

- هذا هو المجهود الأخير يا شباب، يجب ألا نفقده الآن بالتحديد.

نهض "إرنستو" مستعيدًا طاقته فجأة:

- لا، انتظر لحظة. اسمعني يا "چورچو". إنه داخل مستشفى. ربما يكون مصابًا بمرض خطير وله الحق، وأكرر، الحق في ألا يخبر أحدًا بهذا!

قال "چيبّو" مازحًا:

- مهلًا، هل تعرف إلى أي قسم هو ذاهب؟ أنت مدهش.

- كم أنت قلوق يا "إرني"! ربما هو ذاهب لزيارة شخص ما يُعالج بالداخل.

حدَّق "چورچو" في عينيه واثقًا من نفسه. وأكمل:

- أعرف جيدًا متى عليَّ التوقف، وعلى العموم هيا ندخل.

وبالتالي بدأ في التحرك بخطوات حاسمة متبعًا خطى الأستاذ. أخذ "چيبّو" نفسًا عميقًا ثم هب واقفًا وهو يشير بيده إلى "إرنستو"، الذي كان ما يزال مترددًا. استسلم في نهاية الأمر وتبعهما. استأنف ثلاثتهم الملاحقة.

كان الدكتور "كونسورتي" رجلًا ضـئيل الحجـم قلـيلًا، لـه وجـه مـستدير، جبهتـه عريـضة، وبشرته وردية، ويزحف الصلع ببطء على رأسه. له لحية صغيرة رمادية اللون على ذقنه فقط، تركها تنمو ظنًا منه أنها سـتجعل شـكله أفـضل. في ظهـيرة ذلـك اليـوم كـان الطبيـب يبتـسم مسرورًا إلى آخر مرضاه في ذلك اليوم، كان علاجه قد أعطى نتائج ممتازة خلال هذا العام.

السيد المتميز كان قد جاء لأول مرة إلى مكتب ذلك الطبيب قبل شـهور عديـدة في حالـة من الاضطراب، لكن بفضل التعاون المتبادل، أعاده الطبيـب إلى الحيـاة بـشكل طبيعـي. قامـا معًا بتحجيم مشاعر وأحاسيس سلبية وإيقافها، وتمكنا من تحطيم كل الهواجس، وتغلّبـا عـلى هوس الوصول إلى الكمال. وشبح الزوجة السابقة لم يعد يعذبه، كما أن تلك الفكـرة الراسـخة عن أن الحب باعتباره مرضًا اجتماعيًّا قـد بـدأت تـترك مكانهـا، ويحـل محلهـا الاستـسلام. في النهاية استعاد المريض الثقة في الواقع حوله. فقصص الحب تنتهي وتبدأ من جديد باسـتمرار، ولكن ما يحدث نادرًا هو أن تقرر زوجتك بأن تطهو بطة بالبرتقال.

كان المريض متعاونًا إلى حدٍ كبير، لدرجـة أن الطبيـب ظـن أنـه قـد حـان الوقـت لتقليـل أقراص الباروكستين أو الجلسات.

- ما رأيك في مقترحي؟

وضع "فيديريكو سيربييري" يديه المتشابكتين أمامه، الأيدي ذاتها التي رتبت بشكل دقيـق للغاية مكتب طبيبه النفسي قبل عام. لكن الآن كانت إحـدى يديـه تـسند الأخـرى، ولم يكـن باستطاعة الدكتور "كونسورتي" عدم ملاحظته.

- أشعر بأنني على ما يُرام يا دكتور. بالتأكيد أفتقد ابنتي، ولكـن هـذا لا يجعلنـي شخـصًا مضطربًا.

- بالتأكيد لا. بل على العكس، الهدوء الذي تحافظ عليه في علاقتك مع والدة "أُوديليا" يطمئنني كثيرًا. وفيما يتعلق بالجامعة، فسوف ترى أنهم ينتظرونك فاتحين لك أذرعهم.

ارتفعت حالة المريض المعنوية بشكل كبير لم يلحظه أحد.

- أعترف لك بأنني لا أفتقد الجامعة مطلقًا. أعطتني كثيرًا من الإرضاء، ولا أنكر ذلك، ولكن التبادل البشري بين المُعلمين والتلاميذ قد وصل إلى أسوأ حالاته. هناك الشباب يمثلون مجرد عدد، ولكن في المدرسة أنجح في تأسيس علاقات شخصية بنَّاءة للغاية.

- وأنا سعيد بذلك من أجلك، وبالطبع من أجلهم.

هنا نظر الدكتور إلى الساعة.

- حسنًا، إذًا لقد قررنا: سنقلص عدد الجلسات. سوف نتقابل كل أول يوم أربعاء من الشهر، شهر نتقابل وشهر لا. اتفقنا؟

بدا على وجه "سيربيبيري" سعادة توحي بالعرفان، مثل طفل أخذ لتوِّه قطعة حلوى لأنه تصرف بشكل حسن.

- طبعًا اتفقنا وأكثر من اتفقنا. شكرًا.

اصطحب الدكتور المريض نحو باب الخروج.

- ليست هناك فائدة من قولي إننا إن كانت هناك أي مشكلات، يمكننا العودة في قرارنا.

- لن يكون هناك أي مشكلات يا دكتور. إلى اللقاء.

بمجرد أن انغلق الباب خلف "سيربيبيري"، عاد الدكتور "كونسرتي" إلى التفكير في البطة، وبشيء صغير جدًّا من الحظ، كان ليجد صلصة البرتقال

اللازمة لها. ثم خطر بباله ذكرى "دورينا" الزوجة الفظيعة السابقة لـ"سيربييري". كان الأستاذ قد أحبَّها ووهبها نفسه بالكامل، لكنها فضَّلت عليه معيدًا شابًا، وأكثر من ذلك، انتقلت للعيش في مدينة "ميلانو" وأخذت معها الطفلة.

كانت حالة الاضطراب العصبي لـ"فيديريكو سيربييري" قد بدأت مع ذلك الانفصال.

قام "كونسورتي" بتجميع كل الورق المبعثر على مكتبه، وارتدى معطفه الثقيل وخرج إلى الممر. وبينما يسير في الممر الطويل للمستشفى، المهجور في تلك الساعة، أخذ الدكتور يحلم بأن اثنين على الأقل من ضيوفه سيتنازلان عن الزيارة من أجل العشاء، وهو ما يعني بقاء جزء من طعامه الذي يحبه جدًّا من أجل اليوم التالي.

بمجرد أن استدار للزاوية، بين المصعد والسلالم، لاحظ ثلاثة أولاد ينتظرون، ومن النظرات المختلسة أدرك أنه هو الشخص الذين كانوا في انتظاره.

همس "إرنستو" قائلًا:

- ها هو، يجب أن يكون طبيب "سيربييري"، ذلك الذي خرج من الغرفة التي كان فيها الأستاذ. لكن يا له من أمرٍ محزنٍ.

فرد "چيبّو" بصوتٍ خافتٍ:

- طيب، لماذا؟ فنحن في عيادة نفسية.. ويبدو لي أمرًا طبيعيًّا، فهذا هو المكان الصحيح له.

فهمس "إرنستو":

- نعم، ومَن يدري مدى خطورة الحالة.. أنا في حالة من الحيرة والذهول.

مزح "چورچو" بهدوء:

- دعني أتحدث أنا ولا تنفعل، وإلا سأجعلهم يعطونك مهدئًا.

في منتصف الممر، قام الطبيب النفسي بتهدئة حركة سيره مترددًا، لم تكن بالتأكيد المرة الأولى التي يتم فيها الاعتداء على طبيب داخل ذلك المستشفى، ولكن للأسف مثله مثل "دون أبّونديو"[5] أمام الحرس، أدرك أنه لم يكن أمامه أي مخرج، فمن هناك كان يجب أن يمر، وبالتالي استجمع شجاعته وواصل مسيرته. وبينما كان يقترب بخطوات بطيئة قلقة، استطاع أن يدرس تلك المجموعة. أعمار هؤلاء الشباب تتراوح بين السادسة عشرة والثامنة عشرة. ذلك الفتى المستند على الحائط طويل القامة، له عُرف من الشعر في منتصف رأسه المحلوق، يمضغ علكة ويلعب بميدالية مفاتيح سوداء. لا يبدو مسلحًا. أمَّا الواقف على يمينه يدعو أكثر للطمأنينة، شعره مفلفل، ويبدو الاهتمام في طريقة لبسه، ونظرته تبعث على الثقة، لا يبدو مخيفًا كالأول. أمَّا الثالث فكان طويلًا. لون عينيه وشعره أسود. شاب جميل، لكن مظهره أقل نضارة. أنواع غير متشابهة من البشر. أقنع "كونسورتي" نفسه في أمتار قليلة أن ذلك الفتى ذا الشعر المفلفل، وذلك الفتى النحيف كانا من الأقارب المصاحبين للمريض.

عندما وصل إلى مسافة قريبة منهم، قرر الدكتور بأن يبدأ هو المفاجأة باللعب قبلهم.

---

(5)- دون أبّونديو" Don Abbondio هو واحد من شخصيات رواية "الخطيبان (*I Promessi Sposi*) المشهورة للكاتب أليسّاندرو مانزوني. وكان "دون أبّونديو" هو المكلف بإجراء مراسم زواج بطلي الرواية "رينزو" و"لوتشِيا"، ولكن أثناء تمشيته المعتادة قابل حارسين من رجال "دون رودريجو"، وقد قالا له فيما بينهم بألا يقيم ذلك الزواج بنوع من التهديد. و"دون أبّونديو" رجل يتسم بالجبن والكسل والخجل، يستسلم أمام الصعوبات والعقبات التي يقابلها. وللوهلة الأولى يحاول القس "دون أبّونديو" تبرير موقفه، ليبعد عن نفسه مسئولية ذلك الأمر، حيث إنه لن يجني من وراء ذلك الزواج أي مكسب، ولكنه سرعان ما يرضخ لرغبة الحارسين.

- يا شباب، مجموعات العلاج من الإدمان اليوم انتهت، وعلى العموم يتم عقدها في الغرفة رقم خمسة، في الطابق الأول.

ظل الثلاثة مندهشين للحظة، ثم على الفور وقع "چيبّو" على ركبتيه حيث لم يتمالك نفسه من الضحك.

- قلت لكم دائمًا إن وجوهكم وجوه مدمنين!

كان "كونسورتي" مندهشًا من رد الفعل ذلك، ضحك "إرنستو" كذلك، بينما بدأ "چورچو" يفكر بالفعل في كيفية إيجاد خدعة لمواجهة هذا العائق، أي كيفية إقناع طبيب بالإفصاح عن سر من أسرار المهنة. ثم بابتسامة نقية قدَّم نفسه بطريقة مهذبة للطبيب النفسي:

- مساء الخير يا دكتور، نحن طلاب في مدرسة "مورجانتِه"، "فيديريكو سيربييري" هو أحد أساتذتنا.

كان "كونسورتي" غاضبًا لأن أحد المرضى تم تعقبه حتى هناك، ولكنه كان مسرورًا لإمكانية خروجه حيًا من المستشفى، وعندئذٍ قام بمصافحة الثلاثة.

كان ينظر إليهم بحدة، قائلًا:

- أستاذكم لن يكون سعيدًا إن رآكم هنا، ولكنكم هنا الآن، ماذا أستطيع أن أفعل لكم يا شباب؟

تحدث "چورچو":

- نحن قلقون من أجله، فنحن متعلقون به كثيرًا.

لم يكن "كونسورتي" يتخيل أن العلاقات الشخصية البنَّاءة لـ"سيربييري" قد أصبح لها تأثير كبير لتصل إلى هذا.

ثم تشجع "إرنستو" وقرر التدخل ليقول:

- الأستاذ ليس بحالة جيدة بأي شكل من الأشكال وفكرنا أن طبيبه هو الوحيد القادر على مساعدتنا.

كانت تلك الكلمات كافية لـ"كونسورتي" كي يشعر بالشك في أنه تسرَّع في الابتهاج من أجل تطور حالة مريضه. وفي إطار وظيفته كطبيب كان من المناسب أن يحوِّل الموقف لصالحه، وبالتالي أدار مصير المحادثة ليحول نفسه من شخص يتم التحقيق معه إلى محقق:

- أفهم ذلك لكن، ما الذي تعنيه بليس بحالة جيدة؟ فهل مثلًا له سلوك غير تقليدي؟

رد "چيبّو" معلقًا:

- غير تقليدي فقط...

- عليكم أن تكونوا أكثر دقة يا أولاد: فهذا الرجل عانى كثيرًا.

كان "چيبّو" على وشك أن يحكي القصة من البداية، لكن "إرنستو" أوقفه بقبضة حاسمة على ذراعه.

- أعتقد أنك بالتأكيد تحب أن تعرف كل شيء عن مرضاك، ولكن في المقابل يجب أن تقول لنا شيئًا عن قصة الأستاذ.

هنا لم يستطع "كونسورتي" أن يكتم الضحك:

- وكيف لكم أن تفكروا أنني سأحكي لكم قصة أحد المرضى؟ ربما لأجدها بعد ذلك على إحدى وسائل التواصل الاجتماعي؟

كانت قلعة قواعد أخلاقيات المهنة تبدو منيعة وحصينة، وكان الرباعي قد وصل أمام باب المصعد.

- هيا، قل لنا شيئًا، تحدث بشكل عام دون الخوض في تفاصيل.

كان "چيبّو" يصر وبدأ "چورچو" يخشى أن يطبِّق صديقه الطرق الإقناعيـة الخطـيرة، التـي كان مشهورًا بها في المدرسة. وكان من الأفضل منعـه وهكـذا قـرر اسـتخدام طريقـة التظـاهر بمغادرة المكان.

- بالتأكيد، على أي حال كنا نتوقع ذلك. شكرًا على أي حال، يا دكتور، واعذرنا إن كنـا قـد أزعجنا حضرتك.

دخلت المجموعة المـصعد، وكـان "چيبّـو" و"إرنـستو" يـشاهدان المتحـدث الرسـمي لهـما بدهشة كبيرة، فالقائد قد استسلم بسرعة كبيرة ولم تكن هذه من سماته.

ضغط "چورچو" على زر الطابق الأرضي ثم وجَّه نظرة مأساوية إلى الطبيب النفسي.

- لكن يجب علي أن أنبِّه حضرتك يا دكتور، عندما نصبح على دراية بمـا يقـوم بـه مـريض حضرتك، ربما سيكون الوقت قد تأخر للغاية وأخشى أن يحمِّل كثيرون سيادتك المسؤولية.

تلك الإيحاءات جعلت الطبيب يـضطرب، فمـن المؤكـد أنـه كـان يتحـتم عليـه أن يكـون مسؤولًا عن تصرفات شخص مريض باضـطراب عـصبي، بـالطبع، وبالتـالي اسـتنتج بينـه وبـين نفسه أن خرقًا صغيرًا للقواعد مسموح به، مع التحدث بشكل عام والبعد عن التفاصـيل كـما اقترح ذلك المخيف الذي يشبه أبناء الموهوك[6].

- اتفقنا، لن أدخل فيما يتعلق بعلم الأمـراض، لكـن يمكننـي أن أخـبرك بـشيءٍ ما عن تجربته الإنسانية. فبعد انفصاله عن زوجتـه، حـصل الأسـتاذ عـلى حـضانة ابنتـه "أُوديليـا"، طفلـة رائعـة في الخامـسة مـن عمرهـا. لكـن بمجـرد أن تعـرَّض

(6)- قبيلة من الأمريكيين القدماء.

لبعض المشكلات الصحية التافهة، قامت زوجته، امرأة مصابة بوسواس المرض، بأخذ الطفلة معها إلى مدينة "ميلانو" دون حتى أن تستشيره.

هنا قطع الطبيب حديثه لحظة ليدرس آثار كلماته على الأولاد الثلاثة.

- وقد سبب هذا الانفصال لأستاذكم معاناة هائلة، يمكنني القول تقريبًا صدمة، فكانت "أُوديليا" تعشقه وتلك المرأة فصلت بينهما بالقوة. يكفي وضع كل شيءٍ في يد محامٍ، ولكن الأستاذ لا يريد أن يقاضي والدة ابنته. الآن تقضي الطفلة وقتها في مدينة "ميلانو" بمفردها.

كان "چيبّو" قد توقف عن المضغ ليقول:

- يا لها من شنيعة تلك الزوجة.

سيطر على "إرنستو" اضطراب ملحوظ، وهو ما لاحظه "چورچو" بشيءٍ من الراحة، فالصديق الذي كان يبدو دائمًا تحت تأثير مخدر قوي صار يشعر بشيءٍ ما.

- دعونا الآن نَعُد إلى موضوعنا نحن. إن كان لدى الأستاذ سلوك غير عادي، فعليكم أن تقولوا لي كل شيءٍ، من أجله ولمصلحته.

تبادل الفتية نظرات ذات معنى، ثم تحدَّث "چورچو" الذي كان يقيِّم جيدًا عواقب كل فعل يقوم به:

- إذًا ضع في اعتبارك هذا الأمر: بمجرد أن يدخل الأستاذ إلى الفصل، يضع بعناية صورة ابنته على مكتبه مع الأقلام والدفتر.

فهم "إرنستو" على الفور أن تقرير "چورچو" لن يكون تفصيليًّا بشكل كبير، وهو ما خفف شعوره بالاضطراب والانفعال.

فسأل "چورچو" الطبيب:

- ألا يبدو سلوكًا غريبًا لحضرتك؟

تحول توتر الدكتور "كونسورتي" لابتسامة:

- إن كان الأمر كله يقف عند ذلك الحد فليس هناك شيءٌ يدعو إلى القلق. فالـصورة تعـد شيئًا رابطًا، فأستاذكم قد عوَّض "أُوديليا" بصورتها. وهو تعويض يتكـرر بكـثرة، فهـل تعلمـون كم من الناس البالغة ينامون وهم يحتضنون دمياتهم؟!

ظل "چيبّو" ينظر إلى أحد صديقيه للحظة والأخرى ينظر إلى الدكتور، منتظـرًا بقيـة قـصة الأستاذ "سيربييري"، لكن بعد قليل أدرك أن تلك لبقية لن تأتي.

وصل المصعد إلى الطابق الأرضي. وكان "كونـسورتي" أول مـن خـرج، ثـم نظـر مجـددًا إلى ساعته، وهو يقول للثلاثي:

- يجب عليَّ أن أترككم يا أولاد، لكن صدقوني، أنتم محظوظـون، فــ"سـيربييري" رجـل ذو قيمة وثقافة كبيرة. في حقيقة الأمر، ما السيئ في أن ينظر إلى صورة ابنته؟ عليكم بالهدوء.

صافح الثلاثة مجددًا.

- بالطبع.. نحن لم نلتقِ على الإطلاق، أليس هذا صحيحًا؟

غمز بإحدى عينيه إلى "چورچو"، الذي تأكد من أنه قائـدهم. ثـم غـادر مـسرورًا مطمئنًـا منطلقًا إلى بطته. التزم الأولاد الصمت حتى اختفى عن أنظارهم.

كان "چيبّو" أول من تحدث:

- لماذا لم تقص عليه الحقيقة كلها يا "چو"؟ يجب على الأستاذ أن يُعالج.

بدأ "چورچو" و"إرنستو" في السير بخطوات سريعة، أيضًا دون تحدث.

ثم رد "چورچو" على "چيبّو" دون أن ينظر إليه:

- هذا الشخص يبدو لي أكثر غرابةً من الأستاذ، ولا يوحي بأي نوع من الثقة.

تدخل "إرنستو" مضيفًا:

- أتفق معك.

أصبح "چيبّو" الآن المضطرب الوحيد بينهم.

- ولكن الآن، ماذا سنفعل مع هذا المجنون؟

رد "إرنستو" وهو يوجه لـ"چورچو" نظرة تفاهم:

- لا شيء.

- كيف لا شيء؟

ختم "چورچو" ذلك الحديث هادئًا:

- حتى الآن قمنا فقط بمعرفة المزيد عن الظاهرة.

ثم عبر الفتية الثلاثة الطريق واختفى المستشفى وراء ظهورهم.

***

كان "فيديريكو سيربييري" جالسًا على مكتبه يُنهي تصحيح واجبات طلاب الفرقة 3/3 عن "إيمانويل كانت". يوجد طالبان وسط أولئك يتمتعان بميول إلى الفكر الفلسفي، لكن بالتأكيد لم يكن "چورچو جريجور" ليتعلم منهما.

وضع الواجبات جانبًا ثم انتقل إلى إعداد الدرس للسنة الثانية. كان الوقت قد حان لتقديم مشكلة إدمان الحب. سيكتشف الأولاد كيف أن الحب طريق تكسوه المعاناة، ولدعم أطروحته، اختار "أشتات حوار عاشق" لـ"رولان بارت" و"بيت الدمية" لـ"هنريك إبسن"، ودعّم النظرية بمشاهدة فيلم "قصة أديل هوجو"، الابنة الشابة لـ"فيكتور هوجو" وانحدارها نحو الجحيم، فقد كانت رمزًا للتحطيم الذاتي للحب.

رنَّ المنبِّه على مكتبه معلنًا الساعة السابعة إلا خمس دقائق.

كان الأستاذ يعلم أن "دورينا" لم تكن أبـدًا في المنـزل في تلـك الـساعة، وابنتـه تأخـذ عـلى محمل الجد موعدهما على التليفون، كان يتخيل "أُوديليا" بجانب عـدة التليفـون بالفعـل ولم يكن مخطئًا في ذلك؛ فعندما اتصل برقم زوجته السابقة، جاءه صوت الطفلة بعد الرنة الأولى.

- آلو. بابي؟

- أهلًا يا حبيبتي، كيف حالكِ؟

- بين البينين.

توتَّر الأستاذ على الفور، وسألها:

- لستِ على ما يرام؟

بعد لحظة من الصمت، استأنفت الطفلة حديثها بصوتٍ خافتٍ:

- هناك فتاة جديدة لا تعجبني على الإطلاق.

- لكن، "ألدينا" أين ذهبت؟

- لقد طردتها ماما منذ ثلاثة أيام.

منع "سيربييري" نفسه من إخراج تعليق يدل على عـدم الموافقـة. لم يكـن هنـاك أبـدًا أي سبب حقيقي لطرد الفتيات، ولكن بمجرد أن تبدأ الطفلـة في التعلـق بهـن، حتـى تقـوم أمهـا بطردهن ببعض الحجج الواهية. تذَّكر أن إحدى الفتيات اللطيفات كانت من مدينة "بريـشّا"، طُردت لأنها كانت تذِّكر "دورينا" بإحدى عشيقات والدها.

- وما اسم تلك الآنسة الجديدة؟

- "ماريكا" وهي الآن في المطبخ.

- ولماذا لا تعجبكِ "ماريكا" هذه؟

أصبح صوت الطفلة هامسًا:

- لها رائحة غريبة، ثم إنها لا تريد أن تلعب معي أبدًا.

- بالنسبة للمشكلة الأولى يمكنني مساعدتك.

- حقًّا؟

- غدًا في الصباح سأرسل إليكِ هديةً من أجل الآنسة "ماريكا"، عبوة عطر.

- ولكنها لا تستحق الهدية.

- إنه من أجلك، من أجل مواساتك. سوف تسلِّمينه إلى الآنسة "ماريكا" وستقولين لها إنـه من طرف والدكِ.

- وبهذا سوف تتعطَّر؟

- بالتأكيد، وبرائحةٍ طيبةٍ سيكون وجودها أكثر احتمالًا لك.

كانت الطفلة تضحك:

- بابي، متى يمكنني المجيء هناك عندك؟ فأنا أفتقدكما كثيرًا.

بدأ صوت "سيربييري" يرتجف:

- قريبًا، هل تعرفين أن "فلاك" كبر كثيرًا؟

ربما بسبب الوحدة المتكررة، كانت "أُوديليـا" قـد اعتـادت الحـديث إلى الحيوانـات وكـان والدها يرضي هوسها هذا، لذلك نادى الكلب اللابرادور وبعد محاولـة مرهقـة ليجعلـه سـاكنًا وضع سماعة التليفون على الأذن اليمنى للكلب.

- يا "فلاك" كن جيدًا مع أبي، لأنه يحبك، هل فهمت؟

تملص الكلب ليتحرر من القبضة.

- اطمئني، لقد فهم جيدًا. لقد قمتِ بتربيته بشكل جيد للغاية.

تركت الطفلة بعض الثواني تمر من الصمت المليء بالمعاناة.

- لماذا لا يمكنني المجيء عندكما؟

-"أُوديليا"... أنا أرغب في ذلك كثيرًا، يا صغيرتي.

- إذًا؟

- ماما تحتاج إلى بعض الوقت كي تعتاد أن تتركك، ولكن سوف ترين أننا سنقنعها.

- لكنني لا أرى ماما أبدًا! بابا من فضلك، لا أريد أن أبقى دائمًا وحدي.

كان صوت الطفلة قد أصبح أنينًا، وكانت تلك الطلبات المستمرة للجوء عنده شوكًا في قلب والدها، الذي كان في كل مرة يخشى أن يموت من نزيف الدم أو من الألم.

- يا صغيرة بابا، تحمَّلي، فالأشياء ستكون على ما يرام، أعدك بذلك.

كانت "أُوديليا" تتأفف قليلًا ثم تستسلم بعد ذلك.

- حسنًا، أصدقك.

لم تكن مقتنعة تمامًا لكن قبل أن تغلق المحادثة كانت تستعيد دائمًا المزاج الجيد.

- يا بابي، هل ستقول لي فوازير؟

كانت بنبرة صوتها بهجة من جديد.

- بالتأكيد، دعيني أفكر، آه ها هي.. هنا نصنع إيطاليا أو؟

- أعرفها. نفنى.

ضحك الوالد:

- نموت، يا "أُوديليا"، ولكن المعنى واحد.

- يا بابي، تناديني "ماريكا"، يجب أن أذهب للعشاء الآن.

- حسنًا يا حبيبتي، أرسلي لي قُبلةً.

قبَّلت الطفلة سماعة التليفون عدة مرات بصوتٍ عالٍ، ثم بعد أن أنهى الأستاذ المكالمة، ظل بضع دقائق يحدِّق في الجدار؛ فعدم قدرته على حماية ابنته من الوحدة كانت تمزقه. شعر بغُصَّةٍ في حلقه تضغط عليه لينفجر في البكاء، لكنه نجح في التغلب عليها وفي استعادة الصفاء الذهني. وصل إلى غرفة المكتب وعاد إلى العمل، اطلع على بعض الصفحات لـ"رولان بارت" ثم وضعه بعيدًا. كان يجب تبديل برنامج المحاضرة بموضوع أكثر حتمية. كان يجب تعليم الأولاد ضرورة التوقعات الخاطئة والأحلام المحطمة، الطلبات التي لا تلبى والمشروعات الخادعة. وبكلمات أخرى كان هناك ما يجب تعليمه لهم عن الزواج وعن الوهم الكبير.

في اليوم التالي دخل "فيديريكو سيربييري" تقريبًا وهو يجري إلى فصل 3/2، يدفعه استعجال مُلحٍ. كان الطلاب ما زالوا يضعون في حقائبهم كتب اللغة اللاتينية، عندما قام الأستاذ بتحيتهم في عجلة من أمره دون أن ينظر إليهم، وبعد أن وضع الدفتر جذب انتباه المستمعين إليه بضربه على المكتب.

- اليوم استدعاني ناظر المدرسة لأمرٍ طارئ، لكن عندي عشر دقائق أخصصها لكم وأريد استغلالها جيدًا.

وقف "سيربييري" أمام السبورة وبحركات عصبية محا الدرس السابق. تابع الفصل حركات المُعلم بشيء من التوتر. كانت حركات "سيربييري" سريعة وخاطفة مثل حركات الإنسان الآلي. لاحظ الطلاب الأكثر انتباهًا اضطراب الحالة المزاجية له، فلم يكن لديه أي شيء من ذلك الهدوء المطمئن الذي كان يتمتع به في الحصص الدراسية السابقة.

مال "چيبّو" على "چورچو":

- "چو" ماذا نفعل إن حدثت لذلك الرجل نكسة؟

كان "چورچو" هادئًا:

- سوف نجد شيئًا نفعله، لكن سترى أنه سينجح في تخطي ذلك بمفرده.

مرر "سيربييري" يده في شعره غير المسرَّح وجمع تركيزه ليخفي الارتباك الذي سيطر عليه وليضفي جوًّا أكثر طمأنينةً.

- قبل أن ندخل في عصب مادتنا، أود أن أخصص كلمتين لموضوع يمكن أن يبدو لمَن هم في سنكم دون أهمية.

تحدث الأستاذ الآن بشكل أبطأ وقد بدأ يستعيد السيطرة على نفسه، بينما التلاميذ، بما فيهم "چيبّو"، يتأقلمون بالفعل مع ذلك الاختلاف الجديد لشخصيته.

- مع ذلك، وضعت في اعتباري أن بعضكم، من أجل المستقبل، يمكنه أن يبدأ مشاريع تؤدي إلى تحطيم النفس، لذا فأنا لا أستطيع الصمت.

ثم اتجه "سيربييري" نحو السبورة وكتب:

"الوهم الكبير: الزواج".

"كل زواج يحمل بداخله الجرثومة التي تؤدي إلى نهايته".

تصاعدت همهمات معترضة في الفصل.

- لكن يا أستاذ، مَن يفكر هنا في الزواج؟

كان "چيبّو" يستعرض ثقته بنفسه. والأستاذ مسرورًا بهذا التعليق، وجَّه إليه نظرة ودية.

- كنت أتوقع تشككم، فيما أقوله يا "لويچي" يا عزيزي، ومع ذلك ليس لديَّ شكوك في أن نصفكم، قبل عشرين عامًا، أو ربما أقل من ذلك، سينتهي به الأمر إلى الزواج.

فتح كثير من الطلاب الكشكول المخصص للملاحظات على الدروس الجديدة التي وضعها "فيديريكو سيربييري". اقترب الأستاذ من مقعد "چيبّو"، وأخذ بين يديه الكشكول ناصع البياض، وقرأ العنوان المكتوب على غلافه، (الحب لم يعد مناسبًا لنا).

- عنوان جميل يا "چيبّو"، يعجبني، إنه قاطع، ولكنني أفضل حذف الضمير (لنا)، كي نجعل المبدأ أكثر عالمية. طبعًا إن كنت متفقًا معي، بكل تأكيد.

كان "چيبّو" سعيدًا للغاية لإرضائه، حيث قام بتعديل العنوان ليصبح (الحب لم يعد مناسبًا).

ثم عاد الأستاذ إلى مكتبه وتوجَّه بالحديث إلى الفصل كاملًا.

- نعود إلى الزواج. فليكفكم معرفة أن الزوجين يظنان أنهما ينتهيان إلى مصير مدفوع بوهم كبير وهو السعادة. الوهم بطبيعته خادع، فليس من المصادفة أن بين كل أربع حالات زواج، توجد حالة واحدة مصيرها الفشل. أولئك الذين يصمدون تدعمهم دوافع ضعيفة الحماس حقًا. سأكون ممتنًا لكم إن كتبتم في كشاكيلكم الدوافع الحقيقية التي يتم من أجلها اتخاذ تلك الخطوة المتهورة. يتزوج المرء من أجل: "اقتناعات اجتماعية/ مفاهيم دينية/ مصالح مادية". الزواج ليس إلا واحدًا من المصايد الخادعة للحب، وأخطرها. وما هو إلا حب يُمَارس في النظام الاجتماعي ليهديكم مبادئ فارغة مثل (للأبد).

رفعت "سارة" يدها بحماس للدفاع عن نفسها:

- لكن، معذرةً يا أستاذ، فحضرتك تعلم، إن كنت سعيدًا مع شخص، فأنت تؤمن في لحظة معينة بأن تلك السعادة ستستمر للأبد. هذا أمر طبيعي.

تدخل "لورينزو" مضيفًا:

- نعم، يحدث ذلك مع كل أولئك الذين يعيشون معًا.

ثم وجَّه نظرة اتفاق إلى فتاته.

ابتسم "سيربييري" بطيبة إلى الخطيبين الوحيدين في الفصل.

- يا أعزائي، الآن لا يمكنكم معرفة ذلك، لكن كلمة (للأبد) غير موجودة، إنه مفهوم يسيئون استخدامه عندما يجد المرء نفسه مع شريك حياته أمام منصة الزواج.

رفعت "مارتا" يدها:

- يا أستاذ، لحسن الحظ عندنا مسموح بالطلاق.

- بالتأكيد يا "مارتا" يا عزيزتي، لكنه إجراء بغيض وليس من الأشياء المحببة بطبيعة الحال، تم تفعليه لتحديد الثمن الأخلاقي لحريتكم، بالعلاوة على أنه إجراء اقتصادي. شيء مأساوي يشبه درب الصليب، يمكن الاستغناء عنه بكل سرور. فالزواج، بشكل سريع للغاية، هو الأمل في السعادة الذي يذوب بعد أن يربط بينكم، عن طريق القانون، شخص غريب، فتكونون دائمًا عُرضةً لمبادراته، وفي تواصل وثيق مع شخصيات منبوذة، يُطلق عليهم والدا الزوج والأقارب. كل هذا من الممكن أن يصبح بسرعة كبيرة كابوسًا.

تدخلت "چوليا" في الدرس:

- معذرةً يا أستاذ، فحضرتك تضيع وقتك، فالزواج هو اتفاق برجوازي عفا عليه الزمن، كلنا هنا متفقون مع ذلك.

ثم توجهت الفتاة نحو زملائها، لتقول:

- دون خوف، فليرفع يده مَن ليس متفقًا مع ذلك.

لم يرفع أي زميل يده، فهناك مَن كان يخشى أن يسخر منه الآخرون، وهناك مَن كان نائمًا، وهناك مَن كان لا يعنيه الأمر تجاه وجهة نظر ليست وشيكةً.

توجَّهت "چوليا" نحو "سيربييري"، قائلة:

- هل رأيت ذلك يا أستاذ؟ لا أحد يأخذ حتى موقفًا، فلا يستمعون إلى حضرتك. يمكنني القول إن الزواج ليس مشكلةً.

كان "سيربييري" ينظر إليها قلقًا، وقال:

- شكرًا يا "چوليا"، أقدر تفاؤلك، ولكنني لا أستطيع مشاركتكِ الرأي. فعندما تصبحون في العمر المناسب للزواج، الضغوط الاجتماعية حولكم ستكون قوية لدرجة أنه لن ينجح الجميع في الصمود. على كل حال، أرجو أن تكون تلك الكلمات القليلة قد أسهمت في أن تفتح لكم أعينكم، أما الآن فعلي الذهاب.

كان "فيديريكو سيربييري" يعود بذاكرته إلى زواجه، بينما يعيد وضع أشيائه في حقيبته. كلمة "نعم" التي قالها والتي كانت مليئةً بالحب، جلبت وراءها كميةً كبيرةً من الألم، مما جعل الأمر غير ممكن بالنسبة له أن ينطق كلمة التأكيد تلك دون أن يخشى عواقب وخيمة على صحته. فعلى الفور بعد أن تفوه بكلمة "نعم" بحركة ضعيفة لشفتيه من أجل الانفصال، كان قد سقط على الأرض فاقدًا الوعي، وعندما خرجت من فمه كلمة "نعم" أخرى تحمَّل ألم رحيل طفلته إلى مدينة "ميلانو"، كانت قد أصابته حالة من الذعر. وفي النهاية، كلمة "نعم" التي انتزعتها منه زوجته عندما طلبت أن تأخذ معها جهاز الجرامافون الأثري الخاص به، كلفه ذلك أزمة صحية خطيرة في الجهاز التنفسي. كان يعلم أن كل ذلك يعود أصله إلى كلمة "نعم" الغادرة الأولى التي كانت أمام القانون، ذلك القربان الزائف للسعادة.

ربَّما في ذلك اليوم المشؤوم، سيتذكر أحد الأولاد تحذيراته قبل أن يضع في إصبعه خاتم الزواج الذي يُشبه قميص تقييد المرضى العقليين.

استعد الطلاب للذهاب إلى صالة الألعاب الرياضية. لكن "إرنستو" ظل يحدِّق بوجهٍ مُشتعلٍ في الأستاذ. لم يكن واثقًا فيما يريد فعله. في النهاية، تغلب على حيرته واقترب.

- والداي كان من الممكن أن يظلا معًا الحياة كلها.

ردَّ عليه دون أن يرفع عينيه:

- نظرًا لاستخدام صيغة "كان من الممكن"، أستنتج من ذلك أن شيئًا ما لم يتم على النحو الصحيح، يا "إرنستو" يا عزيزي.

كانت يداه تنتقلان بسرعة من المذكرات إلى الكشاكيل.

- لأن والدي توفي. فقط لذلك السبب.

ظل "سيربييري" واقفًا مأخوذًا من النبرة الحاسمة، التي لم يكن يتوقعها من ذلك الطالب، لكن لم يكن لديه وقت لإضافة حتى ولو كلمة؛ فـ"إرنستو" كان قد ابتعد عن مكتب الأستاذ.

***

في تلك اللحظة نفسها، في شقته المضيئة والأنيقة، التي بدت على الرغم من أناقتها كالبازار، كانت "تشيتشيليا" تبحث دون كللٍ عن السترة الصوفية. كانت قد أفرغت أربعة أدراج وألقتها بإهمال بالفعل، وكذلك أفرغت الدولاب، ثم بدأت البحث في غرفة "إرنستو". تدهور ذوق ابنها في الملابس بشكل غريب، ولكن بالنسبة لـ"تشيتشيليا" كان يبدو أكثر عقلانية أن تركِّز اهتمامها مع "كيم"، تلك المرأة التي تقوم بالتنظيف، امرأة ضيقة الأفق، ففطنتها المحدودة واضحة، والدليل على ذلك وضعها دائمًا لجوارب كرة القدم بجوار حوامل الصدر الخاصة بها، فكان من الأهم التنبؤ بأخطائها.

وهي في الطرقة تذكرت أن السترة الصوفية، مثل هدايا كثيرة من "كارلو"، انتهى بها الأمر في الصندوق الأصفر المخصص لتجميع الملابس المراد الاستغناء عنها، لذا قررت تركه واعتباره من الملابس البالية، وقررت ارتداء طقم (twinset) من الكشمير.

بفضل إصرار "ليڤيا"، والدة "چورچو"، اقتنعت "تشيتشيليا" بأن عليها تخطي عتبة سجنها، والذهاب لأحد المحال التجارية الضخمة المزدحمة بالناس، فكان ذلك يبدو برنامجًا مثيرًا. ارتدت ملابسها دون أن تنظر في المرآة لترى كيف تبدو. وسرحت شعرها الأسود الجميل. تركت ورقة بالقرب من التليفون، حيث كانت تعلم أن عدم وجودها في المنزل سيمثل هدية جميلة لـ"إرنستو". كما أعدت لنفسها، كي تتفادى تلك الذاكرة التي أضعفها الـ(Lexotan)، قائمة بالطعام الذي يفضله ابنها.

رأتها "بينا" وهي تخرج من المصعد ومن الدهشة بقيت ثابتة وفي يدها قماشة بالية تتساقط منها قطرات المياه في الهواء.

- سيدتي، لكن حضرتك.. ستخرجين؟

ابتسمت لها "تشيتشيليا" وقالت:

- نعم، يا "بينا"، التقطي لي صورة، فحتى أنا لا أصدق نفسي.

- لكن، هل ستعودين؟

فكرت "تشيتشيليا" في أنه لو كان منزلها تحت تصرف "كيم" والعمارة تحت تصرف "بينا"، لكان لساكني العمارة كلهم فرص ضئيلة للغاية للبقاء على قيد الحياة. فكان من الممكن أن يفجروا أنفسهم.

استقبلتها "ليڤيا" بباب السيارة مفتوحًا. عانقتها بقوة، ثم ألقت عليها نظرة بعينين فاحصتين. كانت "تشيتشيليا" هزيلة، وكان تجويفا عينيها زرقاوين، وبشرتها شاحبة. ذكرتها بشخصية من شخصيات سلسلة حكايات مصاصي الدماء التي كان الأبناء يتابعونها عندما كانوا أطفالًا.

قالت "تشيتشيليا" مازحة:

- أعرف أنني أبدو كمصاصة دماء في الخمسين من عمرها.

- لا تحتملين الضوء، أليس كذلك؟

أغلقت "تشيتشيليا" جفنيها، ونزعت "ليڤيا" النظارة ووضعتها على أنف "تشيتشيليا".

- شكرًا.

قالت "ليڤيا" ضاحكة:

- أحذرك بأن دمي يلطش.

ثم أدارت محرك السيارة وانطلقتا متحمستين لملء ثلاجة "تشيتشيليا".

في المحل التجاري الضخم، الساعة الخامسة يوم السبت، كانت المعركة قد بدأت لتوِّها.

تشجَّعت "تشيتشيليا"، مندفعةً بين عربات التسوق في طريق تصادمي، كانت هناك صفوف طويلة أمام الكاشير، ونداء مُلحٌّ للإعلانات الدعائية والبائعات اللاتي كن يرتدين ملابسًا مثل ملابس الممرضات، كن يلوِّحن بجبن الموتزاريلّا التي كان عليها عرض.

كانت "ليڤيا" قد وضعت لتوِّها في عربة المشتريات المشتركة بينهما عبوتين من الطماطم المنزوعة قشرتها عندما، دون أي سبب واضح، التفتت "تشيتشيليا" خلفها.

ظلت "تشيتشيليا" مصعوقةً من المشهد أمامها، لكنها حاولت أن تشرد بذهنها هاربة نحو قسم المجمدات، حيث بدا لها أنها تتعرَّف على رفيقها السابق في شخص ما يستخدم سماعات أُذن مماثلةً لتلك التي أهدتها لـ"كارلو" في عيد الميلاد المجيد السابق. التفت الرجل، الذي وقف ممسكًا بسمكةٍ في يده، نحوها وابتسم.

"تشيتشيليا"، التي بدأت تشعر بأعراض اضطراب ذعر خفيف، ذهبت إلى صديقتها:

- "ليڤيا"، هذا المكان خطير، فهنا كثير من الذكريات. اعتدت المجيء إلى هنا مع "كارلو".

- الحقيقة هي أنكِ اعتدت المجيء معي أنا، لا تفكّري في الأمر. هيا، أنا ذاهبة لقسم الجزارة.

ابتعدت "ليڤيا" ومعها قائمتها في يدها، بينما توجَّهت "تشيتشيليا" نحو قسم البسكويت والمُربَّى. أمسكت بعلبتين من بسكويت (Gentilini)، ولكن على الفور أدركت أنه لا فائدة من شراء الماركة المفضلة لدى "كارلو"، فهو لم يعد موجودًا لتقتسم البسكويت معه. تحوَّل الرف بسرعة إلى حائط المبكى الخاص بها. كانت "تشيتشيليا" منزعجةً بسبب سلسلةٍ من الذكريات المتتابعة: "كارلو" الذي كان يرتدي البيجاما ويأكل بسكويتًا من ماركة (Gentilini)، الذي كان يطلب منها أن تشتريه، ويضع ذلك في قائمة المشتريات، وهو أيضًا الذي كان، بعد انتهائه من الإفطار، يُقبِّلها بعشقٍ، وفعلًا قُبُلاته في الصباح كان لها طعم بسكويت الـ(Gentilini).

- أخذتُ دجاجة لكِ أنتِ أيضًا، فـ"إرنستو" يحب الدجاج، أليس كذلك؟

مرت "ليڤيا" بجوارها دون أن تتوقَّف وألقت، كما يفعلون في كرة السلة، بدجاجتين ريفيتين، وأجابت "تشيتشيليا" شاردةً، بينما تهاجمها تلك الأجواء التي ما زالت تذكرها بـ"كارلو".

في كل زاوية يوجد اثنان مُحبَّان. كان هناك فتى وفتاة يتبادلان القُبُلات أمام الآيس كريم، وسيدة جميلة في يد زوجها، كانت تهمس بشيء في أذنه بشكل عذب، وهي تنظر برغبة إلى شريحة من سمكة تونة.

- "ليڤيا"، سأذهب إلى الكاشير.

- لكنكِ لم تشترِ شيئًا! أنا أحتاج إلى الأرز.

وقلبها يتقطع إربًا، ساقت "تشيتـشيليا" عربـة المـشتريات نحـو بوابـة الخـروج بعـد تلـك الجولة الطويلة الجحيمية، لكن كانت هناك ضربة جديدة في انتظارها أمام جـدار المـشروبات الكحولية. وقف رجل في الأربعين من عمره تقريبًـا يختـار مـن النبيـذ، وهـو يرتـدي المعطـف (Burberry) ذاته لـ"كارلو" فبدأت عينا "تشيتشيليا" تدمعان. كان الخـروج مـن المنـزل تهـورًا خطيرًا، لم تكن قد طورت الأجسام المضادة بالشكل الكافي. وبما أن "ليڤيا" فهمت الموقف، لكن مقـررة أن تتجنـب فكـرة أن يمـوت "إرنـستو" مـن الجـوع، أنهـت عمليـة الـشراء بـدلًا مـن "تشيتشيليا". ثم أخذتها من ذراعها بعد أن قامت بدفع عربة التسوق بسرعة عاجلة، أدخلتها السيارة مع كل المشتريات.

بمجرد أن جلست أمام عجلة القيـادة، بـدأت "ليڤيـا" في الخطـة الثانيـة، وهـي أن تحـوِّل انتباه "تشيتشيليا" إلى موضوع الأبناء.

- هل تعلمين أن "چورچو" يعطي زملاءه حصصًا لمراجعـة مـادة التـاريخ يـوم الإثنـين؟ ألم يحكِ لكِ "إرنستو" ذلك؟

- لا. لم أكن أعرف ذلك، إن "چورچو" مجتهد حقًا، أنا سعيدة بذلك.

- لقد تنصتُّ من الباب لعدة دقائق، وأقسم لـكِ بأنهـا كانـت تبـدو كمحـاضرةٍ جامعيـةٍ. تعلمين أن "چورچو" كتوم، ولكن عندي إحساس بـأن هـذا تـأثير ذلـك الأسـتاذ الجديـد. هـل سمعتِ عنه؟

انفجرت "تشيتشيليا"مُصدرةً شهقةً.

- "تشيتشي" لا تفعلي هذا، فالأولاد يـذاكرون بجديـة، تخـيَّلي أننـي قمـت بالقـضاء عـلى نباتات الماريجوانا التي كانوا قد زرعوها عندي في الشرفة وسط نبات اللبلاب ولم يقوموا حتى بالاعتراض على ذلك.

لم تكن "تشيتشيليا" تستطيع الاستماع إلى تلك الكلمات المطمئنة:

- "إرنستو" يشعر بشيء يعذبه، أنا أشعر بذلك، ولكنني لا أستطيع البقاء بجانبه. لقد حوَّلته إلى ممرض!

اقتربت "ليڤيا" من حافة الطريق. تركت "تشيتشيليا" نفسها بين ذراعي صديقتها، وظلا هكذا، مضمومتين إلى بعضهما، لدقائق غير منتهية، على الأقل بسبب الازدحام الذي كان حولهما.

- "إرنستو" سيتغلَّب على تلك الحالة، سيتغلَّب عليها، لأنه في عمر جميل، ولديه عقل جميل، يجب فقط أن يستعيد حيويته، وأنتِ بالذات، لماذا لا تعودين إلى العمل؟ فهذا سوف يكون في صالحكِ أنا متأكدة من ذلك.

- لا أستطيع يا "ليڤيا"، فليس عندي الطاقة كي أبدأ من جديد، قد يبدو ذلك غريبًا لكِ، وخاصة أنا التي أقول ذلك، ولكن الأمر هكذا.

لم ترد "ليڤيا" على ذلك، ولكن استراتيجيتها كانت تنتظر أيضًا الخطة الثالثة، ألا وهي أن توجهها إلى الحديث عن الأثاث.

أن تؤخذ "تشيتشيليا" إلى أحد محلات الأثاث، كان كإطلاق عنان طفل في حديقة ألعاب (Luna Park): فعندما كان يقوم أي شخص من أصدقائهما بإعادة هيكلة منزله، كانت تتم استشارتها هي أولًا، كما لو كانت "بيثيا" للتصميم الداخلي. وبعد عشرين دقيقة من التجول في أحد محال الأثاث صديق البيئة، لاحظت "ليڤيا" بأقصى علامات الرضا أن نظرات "تشيتشيليا" كانت تلمع من الاهتمام. لكن عندما وصلا إلى منطقة الأرائك، أفسد أحد الباعة المتصنعين بيديه الجميلتين المبادرة الجيدة لـ"ليڤيا".

أراد الشاب استعراض نفسه، وبمجرد أن بدأ في تحريك الكنبة، عادت "تشيتشيليا" بذهنها إلى الأوقات التي كان "كارلو" يفتح فيها الكنبة السرير في حجرة المكتب، حيث كانا يتحابان، بكل عشق، في الشهور الأولى لعلاقتهما.

قال البائع:

- هل ترين يا سيدتي؟ في ثانية واحدة تفتحينها وتغلقينها.

راقبت "ليڤيا" وجه "تشيتشيليا" وهو يتغير.

- أرجوكِ يا "ليڤيا"، خذيني إلى المنزل.

- جميل جدًّا، ربما نعود مرةً أخرى، اتفقنا؟

رأت "ليڤيا" صديقتها تتوجَّه بحزمٍ نحو بوابة الخروج، تاركة البائع بإحدى الوسائد في يديه، جرت وراءها. وأثناء رحلة العودة، لم تكن لدى "ليڤيا" الشجاعة لتفتح فمها أيضًا؛ لأنها لم تكن قد وضعت الخطة الرابعة. وعلى العموم كانت "تشيتشيليا" تكرر بصوت ضعيف ابتهالًا:

- لا يمكنني أن أتخلَّص من ذكرياتنا نحن الاثنين معًا، لا يمكنني.. لا أنجح في ذلك يا "ليڤيا"، أنا أشعر به دائمًا قريبًا مني، إنه عذاب.

توقَّفت السيارة بجوار عمارة "تشيتشيليا"، لم تنجح صديقتها في إخراجها من حالتها. أمسكت "تشيتشيليا" البائسة كيس المشتريات بسرعة، وأعطت صديقتها قبلة سريعة، وانصرفت. رأتها "بينا" وهي تنطلق كعدَّاء سرعة المائة متر. جرت "تشيتشيليا" على السلالم وتوقفت لاهثة أمام الباب، دخلت المنزل وارتفعت معنوياتها عندما اكتشفت أنها وحدها بالمنزل. ثم، للحظة قبل أن تقبل بعدم قدرتها على التناغم مع الوجود، أغلقت على نفسها الباب بثلاث تكات وتركت نفسها لبكاء هستيري.

نوفمبر

الوهم الكبير



كانت "مورجانتِه" مدرسة ذات تقاليد عريقة. فعند رؤيتها للوهلة الأولى، تُذكِّرنا ببيت إصلاح وتهذيب من القرن الماضي، بسبب تصميمها الضخم المستطيل، وحوائطها الرمادية المتهالكة والتصدعات التي لا يُمكن تلافيها. كان كل ذلك في الواقع نتيجة للتأجيل المستمر لعمليات الترميم، وكان ذلك التأجيل دائمًا بسبب نقص الموارد المالية. ومع ذلك، داخل ذلك المبنى الإسبارطي، تم تأهيل فلاسفة وعلماء رياضيات ومحامين وصحفيين. أولئك الشباب أصحاب الآمال الجريئة والعزيمة الحديدية، أصبحوا فيما بعد البرجوازية المستنيرة للعاصمة. وبطبيعة الحال كانت مدرسة انتقائية ولم يُسمع عن حالات رسوب فيها من قبل.

لم يكن أحد يستطيع أن يتخيل أنه يوجد داخل ذلك المكان المتميز اضطرابًا عقليًا قد استوطن دون عقبات، ليجند متعاطفين معه. كان طلاب فصل 3/2، بدايةً من الشخصيات الأكثر تمردًا، يظهرون هدوءًا مريبًا، وأرجع الأساتذة سبب هذا الهدوء إلى أن طلبة ذلك الفصل يشعرون بأهمية الامتحان النهائي للمدرسة الثانوية في العام التالي.

وبفضل الأساليب المهذبة والثقافة القادرة على ربط قواعد وتخصصات مختلفة، نجح "فيديريكو سيربييري" في كسب الطلاب والناظر والعمَّال. فقد بدأ الجميع في اعتباره نيشانًا يُضاف على الفور إلى شعار النبل الخاص بالمدرسة. لم يرَ أحدٌ قط أحد عناوين حصة 3/2 المكتوبة على السبورة، "حب" و"وحدة" أو "نظام التعلق العاطفي"، والتي كان من شأنها بالتأكيد أن تقلق الطلاب والناظر والعمَّال الذين كانوا يعشقونه.

كانت المادة الجديدة، المدعومة بدماثة صاحبها، تكسب شيئًا فشيئًا أمام أعين طلابه المختارين الاحترام نفسه للمواد الأخرى. أصبح "چيبّو" المساعد الخاص بكل ما يتعلَّق بالكمبيوتر، مُسهِمًا في نشر المادة بذلك. بعد المدرسة كان الفتى يعمل "كاشير" في مطعم والده، ولهذا كان يطلق على نفسه الطالب العامل، على الرغم من أنه من الناحية العملية لم يكن يظهر ميلًا لأي من النشاطين.

في ذلك اليوم، بينما كان يجلس على كاشير مطعم والده مستسلمًا لمصيره، أعطاه "نينو"، الجرسون، ثلاثمائة وخمسين يورو.

- ممن هذه النقود؟

رد "نينو":

- من هؤلاء الأمريكان الأربعة الجالسين على المائدة رقم 6، بالقرب من الأخصائي النفسي الخاص بك.

ألقى "چيبّو" نظرة على المائدة رقم 5، حيث كان "كاميلّو" يلتهم طبقًا من مكرونة "الفيتّوتشينِه"، ثم نظر إلى رقم 6، حيث كانت هناك مجموعة من الأمريكيين السكارى والمزعجين يقومون بتنظيم أنفسهم للوصول إلى باب الخروج.

حدَّق الجرسون بابتسامة ساخرة في رأس "چيبّو".

- تليق بك القبعة كثيرًا حقًّا.

- اذهب للعب بعيدًا يا "نينو".. هيا اذهب.

توقف "چيبّو" عن النظر إلى الجرسون الأكبر سنًا، عندما رأى والده يخرج من المطبخ ليقترب من مائدة الأخصائي النفسي.

عندما كان "كاميلّو" يذهب ليأكل في المطعم، كان "ماريو ريڤولي" يطلب تقريرًا عن نتائج الدعم العلاجي لابنه، جاهلًا بحقيقة أن "چيبّو" والأخصائي النفسي عقدا اتفاقًا سريًّا: وجبات غذاء مجانية مقابل تقارير مطمئنة.

- إذًا يا دكتور، كيف حال "لويچي"؟

انتهى الأخصائي النفسي الشاب من ابتلاع مقدار شوكة من مكرونة الـ"فيتّوتشينِه"، وبتلك الروح المهذبة دعا صاحب المطعم للجلوس معه.

فأجاب السيد "ريڤولي":

- شكرًا، لكن لا يمكنني البقاء، فالمحاسب التجاري ينتظرني.

نظف "كاميلّو" شفتيه من الصلصة وضبط وضع نظارته على أنفه.

- إذًا سأكون موجزًا: "لويچي" يتقدم تقدمًا ملحوظًا. ابن حضرتك نضج حقًا، وربما حضرتك أيضًا قد انتبهت لذلك، كما أعتقد.

كان "ماريو ريڤولي" رجلًا بسيطًا وصريحًا.

- في الحقيقة لا. ففي الصيف الماضي أخذوه إلى قسم الشرطة مرتين، وهذا بالطبع دون أن نذكر ما يفعله في المدرسة.

لم يستطع تصديقه. لكن "كاميلّو" كان مطلوبًا منه أن يخدع "ريڤولي"، تمامًا كمن يحاول بيع النبيذ المصنوع في المنزل على أنه نبيذٌ أحمر من ماركة "مونتالشينو" (Montalcino) المشهورة.

- انظر حضرتك، أداء "لويچي" في المدرسة ليست له أهمية كبيرة.

- هل حضرتك تعتقد ذلك؟

- بالتأكيد، فالعمل الذي نقوم به مع ابن حضرتك أكثر صعوبة، إن "لويچي" يتعلم الآن كيف يكوِّن لنفسه هوية بتدعيم الـ"أنا" الخاص به، فهو يحاول أن.. أن يكون أكثر جرأةً.

- آه، إذًا فمن وجهة نظر حضرتك، هو عليه أن يكون أكثر جرأةً من ذلك؟

تمنى "ماريو ريڤولي" تصديق أن ابنه قد عولج بالفعل، كان يودُّ أن يصدق أنه من شأن تلك التقارير المشجعة إبعاد ابنه عن المصائب.

قال "كاميلّو" منهيًّا تقريره:

- بالنسبة لـ"لويچي" من المهم ألّا يقمع نفسه، وأن يشعر بأن والده يثق به.

لم يكن "ماريو ريڤولي" يصدِّق أن تقدم ابنه ملحوظ هكذا، وهو على بُعد عشرين مترًا فقط منه. فلم يكن "چيبّو" بالتأكيد يقمع نفسه في اللحظة التي سحب فيها خمسين يورو من حساب الأمريكيين ليضعها في جوربه الأيسر، ثم يضع بعد ذلك بقية الحساب داخل الخزينة. وتلك العاهرة التي كانت تستقبله في شارع "ماركوني" كل أربعاء كانت خبيرة، ولكن بالطبع لم تكن تكلفتها رخيصةً. تابع "چيبّو" والده بالنظرات بينما يبتعد عن "كاميلّو" ليخرج من المطعم. لم يكن يشعر بأي ذنب، فعلى كل حال هو بكل بساطة يعيد التوازن إلى الدرجات الاجتماعية، كما كان يطلق عليها "چورچو"، ثم إن والده يجني الكثير جدًّا من المال، وفي أغلب الأحيان لم يكن يصدر الإيصال الضريبي، كما أجبره على الذهاب إلى المدرسة الثانوية الكلاسيكية. لذا فمن حقه أخذ التعويض المناسب.

وضع "نينو" الأطباق المتسخة على الرف ثم اقترب وقدَّم إليه فنجان قهوة. فأخذ "چيبّو" الفنجان بابتسامة، لكن الجرسون بدأ يحدِّق من جديد في رأسه مُصدرًا ضحكةً. فكاد "چيبّو" ينساق وراء رد فعل عنيف عندما ابتعد "نينو"، الذي ربما أدرك الخطر، دون أن يكف عن الابتسام. ثم التف "چيبّو" نحو باب

الدخول ووقفت أول رشفة من القهوة تقريبًا في حلقه. كان الأستاذ "سيربيري" واقفًا أمام باب الدخول. وكان كالعادة يرتدي زيًّا أنيقًا وعلى القدر نفسه من النظام الذي ينبغي أن يكون عليه أي مدعو إلى افتتاح أحد المعارض المهمة. كان يتأمَّل الأجواء العامة التي يُسجن بها يوميًّا أكثر طلابه شغبًا. لم يكن يتخيل أن يكون المحل مريحًا هكذا. يوجد نبيذ عالي الجودة من مختلف الأنواع يغطي الحوائط بمتتالية، وفي السقف توجد أحد الزخارف لأوراق الشجر الجافة مع أحزمة البصل والثوم والفلفل، فكان ذلك هو تصميم حانات الريف، وكانت الموائد إلى حدٍّ كبير مشغولةً.

خلف "چيبّو"، في وسط الحائط، يوجد قناع خشبي مطلي له فم أحمر ضخم، وحواجب غزيرة سوداء. كان شيئًا مفزعًا، غريب بشكل كامل على الأجواء العامة للمكان.

- أستاذ.. ماذا تفعل في هذا المكان؟

بدا عليه التأثر بسبب الوصول غير المتوقع لضيف الشرف ذلك.

- صباح الخير يا "لويچي".

شرد "سيربيري" على الفور في القُبَّعة السوداء التي يضعها الفتى مضغوطةً على رأسه، ووجَّه إليه نظرةً استفهاميةً.

أخبره "چيبّو" قائلًا بنبرة صوت تدل على الاستسلام:

- إنه والدي الذي يريدني أن أضعها، يخاف أن تفزع قصة شعري الزبائن.

- اختيار غريب، أنا أجدك أكثر تهديدًا بتلك القبعة السوداء.

- قلتُ ذلك أيضًا.

كان "كاميلّو" يتفحص عن بعد الوافد الجديد. وجَّه له الأستاذ، بكل لطفٍ، إشارةً بالتحية، تم ردَّها بكل عنايةٍ وسرورٍ.

قال "چيبّو" للأستاذ:

- لو تحب حضرتك يمكنك اقتسام المائدة مع "كاميلّو".. وإلا فيجب الانتظار بعض الوقت.

- شكرًا، لكنني لست هنا من أجل الطعام، لقد أتيت إلى هنا لوالدك.

توتر "چيبّو" قليلًا، كان يظن أن اللقاء بين والده والأساتذة، وخاصة أولئك غير المتوقعين مثل "سيربييري" كان يجب أن تتم فقط في مناسبات استثنائية.

- لقد خرج.. هل تود حضرتك الحديث إليه عن المدرسة؟

- ليس بالضبط، فقط عنك.

اقترب جرسون آخر ومعه بعض النقود الورقية بين يديه.

- إنها خاصة بالمائدة رقم 1.

- معذرةً يا أستاذ.

- لا عليك، افعل ما عليك فعله.

بكل أدب تنحَّى "سيربييري" جانبًا، بينما كان "چيبّو" يضع النقود في الخزينة دون أن ينظر حتى إليها، قلقًا يود العودة إلى ضيفه.

- أستاذ، آسف جدًّا ولكن والدي خرج لتوِّه وسيعود متأخرًا، أظن ذلك.

لم يبدُ الأستاذ قلقًا لهذا الأمر، واقترب من تلميذه بشكل حميمي.

- اسمع يا "لويچي"، أزل عني فضولًا ما.. لماذا أنت ماهر هكذا باستخدام الكمبيوتر؟

رفع الفتى كتفيه كما لو كان السؤال لا يخصه:

- إنها مجرد صدفة، فمنذ عامين وضع أخي أحد أجهزة الكمبيوتر بين يدي، وبدأت في تحليله، قرأت كُتيبين، ومن هنا بعد بعض الوقت أعجبني.

- وما رأي والدك في هذا؟

- وماذا سيقول؟ لا يعرف شيئًا عن ذلك.

كان يبدو آسفًا لذلك، وشعر الأستاذ بنوعٍ من الحسرة من أجل هذا الشغف المُحبَط.

- اسمعني، أنت موهبة مهدرة في المعهد الكلاسيكي للمدرسة الثانوية، فإن التحقت ببرنامج علوم الحاسبات سوف تشعر بأنك أكثر إفادة. ألم تفكر أبدًا في ذلك؟

- بالنسبة لي، تلك المدرسة لا تعجبني مطلقًا، كل ما في الأمر أن بها أصدقائي، وعلى الأقل عندي حجة كي أراهم كل يوم.

- أفهم ذلك، لكن تذكر أن الأصدقاء الحقيقيين يفضِّلون دائمًا أن تكون سعيدًا، ثم إنك تستطيع رؤيتهم على أي حال.

بدت الفكرة المجنونة لـ"فيديريكو سيربيبري" فجأةً لـ"چيبّو" جديرة بالوضع في الاعتبار. رفع الأستاذ نظره نحو القناع.

- جميل. هذا قناع إحدى الأرواح الخاصة بجزيرة "بالي"، واسمه "سيدها كاريا".

- هل تعرفه حضرتك؟ جميل، أليس كذلك؟ لقد أهدوني إياه، وبالتأكيد في مثل هذا المطعم بين الثوم والبصل لا يبدو في مكانه، ولكن بمجرد أن أجد مكانًا صغيرًا سأخذه وسأضعه في واجهة زجاجية مخصصة كلها له.

كان يتأمَّل القناع بفخر طفولي. واستقبل الأستاذ فكرته بإشارة تدل على الموافقة، ثم أخرج ظرفًا.

- هذا الخطاب من أجل والدك، اعتنِ به.

استلم "چيبّو"، الذي هدأ الآن، الخطاب. وجَّه الأستاذ إليه ابتسامة طيبة.

-إذًا، أتمنى لك عملًا طيبًا، وسنلتقي في الفصل.

- إلى اللقاء يا أستاذ.

انتظر "چيبّو" حتى يخرج وظل لبضع لحظات يتأمَّل الظرف وعليه اسم والده مكتوبًا بالخط المتعرج لـ"سيربييري".

ترك مكانه خلف الخزينة ووصل إلى الممر بين المطابخ. تأكد من عدم وجود أحد من الجرسونات ثم توقَّف في زاوية متوارية قليلًا. وجب عليه تحرِّي دقة غير معتادة ونجح في ألا يمزق الظرف ثم أخرج الخطاب من داخله وبدأ في قراءته.

"السيد الموقَّر "ريڤولي"،

يتوجب عليَّ أن أخبر حضرتك، إن لم تكن على دراية بذلك، أن "لويچي" خبير ممتاز بعلوم الحاسبات ومهارته أسدت لي خدمات كثيرة مفيدة.

أرجو من حضرتك، من أجل مصلحة ابنك، في حالة عدم تمكنه من اجتياز العام الدراسي، أن تضع في الاعتبار برنامجًا جيدًا في علوم الحاسبات، الذي من الممكن أن تفتح شهادته لـ"لويچي" فرص عمل مهمةً. وأسمح لنفسي بأن أرفق قائمة بالمعاهد الأكثر تأهيلًا.

مع خالص تحياتي

الأستاذ "فيديريكو سيربييري".

ملحوظة أخيرة.

إن حوائط مدرستنا ضيقة للغاية لفتى مثل "لويچي" الذي وُلد لكي يركض في المراعي".

ألقى "چيبّو" نظرة على القائمة بأسماء المعاهد العشرة الخاصة بعلوم الحاسبات الملحق بها عناوينها.

- يا له من مجنون.

ثم ثنى الحافة السفلى للخطاب مزَّق عنه السطرين الأخيرين القادرين على كشف الحالة المقلقة لـ"فيدريكيو سيربييري"، ثم أغلق الظرف بعناية من جديد، وذهب إلى مكتب والده وترك له الخطاب على مكتبه.

كانت دروس يوم الإثنين في التاريخ للمجموعة المنشقة مستمرة في بيت "چورچو"، لكنها ظلت لفترةٍ مستمرةً من دون "إرنستو". وعلى الرغم من أسفه لذلك، فإن "چورچو" كان قد سلك طريقه دون توقُّف أسبوعًا تلو الآخر، مدركًا حجم المسؤوليات التي كانت على عاتقه. أما الآن وقد وصلوا إلى عتبات الثورة الفرنسية، فقد رفض "چورچو" الاستمرار تاركًا صديقه متأخرًا.

قرر في تلك الظهيرة أن يذهب إلى منزل صديقه، وبعد أن لاحظ التدهور الجسدي لـ"تشيتشيليا"، تسحَّب بكل صمت ليدخل غرفة "إرنستو" بالاضطراب نفسه الذي يصيب من يجول في قصر مسحور ومسكون من الأشباح والمشعوذين.

كانت الغرفة مظلمة. نظر "چورچو" حوله. لا يزال الوقت عصرًا، لذا فمن الممكن أن يستثمر "إرنستو" وقته في بعض الأنشطة المناسبة، ربما في مذاكرة التاريخ والفلسفة، أو تنظيم مجموعة للتعمُّق في المظاهر الجديدة للعنصرية، أو كتابة قصائد حب، أو أضعف الإيمان ممارسة الجنس مع شخص ما. لكنه على خلاف ذلك كان نائمًا على بطنه، كعجوز في ظهيرة الصيف. جسده النحيف، المكسو بسرواله الداخلي، وقميص نصف كم، تغطيه سماعات "الآي باد"، وسماعات التليفون المحمول، وسماعات تستخدم للاستماع إلى الموسيقى، وكانت هناك بعض الملابس المبعثرة هنا وهناك.

كان جهاز الكمبيوتر مفتوحًا على مكتبه، ولكي تكتمل الفوضى مع عدم النظام كانت هناك أوراق مكومة، وكوبان متسخان، وأنابيب ملونة لعدة مراهم. فكَّر "چورچو" في أي وسيلة غير مؤلمة لإيقاظه، عندما لاحظ بالقرب من الكمبيوتر جوابًا، جواب الحب الموجَّه إلى "چوليا". قرأه بسرعة دون أدنى

قلق أو تحفظ وتأكَّد من أنه يعكس الأسلوب الأفضل لـ"إرنستو"، أسلوب جليل ولكنه مع ذلك بسيط، تميزه كتابة نثرية بها عناية فائقة، وبفقرات شعرية ذات ذوق وحساسية. بالنسبة لـ"چورچو" جواب حب مثل هذا لم يكن يعني له الكثير أو يمثل أهمية، فمثله مثل مصدر الوحي والإلهام، كانت "چوليا" ذات تأثير واضح، ولكن لو كانت قد قرأت هذا الجواب، لم تكن لتقدره.

شعر "إرنستو" ببعض الضوضاء ففتح عينًا ورأى صديق طفولته يفتش في الأشياء على مكتبه.

- "چورچو".. هل تفهم ما تعنيه كلمة الخصوصية؟

قابل "چورچو" الصوت الغليظ الذي أتى من خلفه بإخفاء الجواب تحت أحد الكتب، ثم اقترب من "إرنستو" وجلس بجواره.

- اسمع أيها النائم الجميل! هل يمكن معرفة سبب عدم مجيئك إلى دروس يوم الإثنين التي ننظمها لدروس التاريخ؟ ألم تكن موافقًا عليها؟

أعطاه "إرنستو" ظهره، ولم يكن يبدو أن لديه النية بأن يفتح عينيه.

- هل ترون "چوليا"؟

- بالطبع نراها، فهي تسير في طريقها، بك أو من دونك.

لم تكن لدى "چورچو" أي مشكلات في التحدث بوضوح، وبملاحظة حالة "إرنستو" وضع في الاعتبار أنه في حالة لم يحصلوا على أي درس مفيد من حصص "سيربييري" ونظرياته، فيمكن لدروسه هذه على الأقل أن تمنحهم بعض النقاط التي يمكن أن يبدأوا من عندها. فتح "إرنستو" عينين ناعستين وحزينتين.

- "چو".. لا أستطيع أن أراها دائمًا أمامي، منشغلة بكل شيء، بكل شيء.. حيوانات الفقمة، والنووي، والصديقات، والتاريخ، كل شيء.. عداي أنا.

نهض "إرنستو" من سريره واتجه بثقل نحو النافذة وفتح الستائر على نهار مغيم ومظلـم. ظل هكذا لبضع ثوانٍ يتأمَّل الفراغ، مقهورًا، حزينًا، وبرعشة عاد لينـام تحـت اللحـاف. تابعـه "چورچو" بقلق.

قال "إرنستو":

- ربما تكون مسألة أولويات فقط، لا يهمني أي شيء آخر في هذه اللحظة.

- ليس من الأفضل لك على الإطلاق أن تضع "چوليا" في قمة أولوياتك. صدقني.

- ولكن ماذا يبقى لي يا "چورچو" غير ذلك؟ ففـي الآونـة الأخـيرة أشـعر بـأنني عـلى قيـد الحياة ولو قليلًا فقط عندما أكون مع "چوليا".

ختم "چورچو" قائلًا:

- تبدو ميتًا أيضًا في تلك اللحظات، وهيئتك تثير الشفقة.

أجابته ابتسامة حائرة من صديقه.

ضربه "إرنستو" بوسادته، فدافع "چورچو" عن نفـسه سـعيدًا بلحظـة اللعـب تلـك التـي انتهت سريعًا، فصديقه يبدو وكأنه لا يملك القوى الكافية. قال "چورچو" بنبرةٍ هادئةٍ:

- اسمع.. عندما هجرتني "لاڤينيا" العام الماضي، شعرت بضيق، ولكن بعـد فـترة اسـتعدت حياتي الطبيعية.

ضرب "إرنستو" جبهته بكف يده ضربة خفيفة.

- نعم، أذكر ذلك، بعد ربع ساعة!

- لا، حقًّا، لقد كنت في حالةٍ سيئةٍ للغاية.

- ومتى كان هذا؟ فأنت لم تُغرم أبدًا بـ"لاڤينيا"!

لم يكن هناك حتى أي تلاقٍ بين "چورچو" والحب، وكان "إرنستو" يعلم ذلك جيدًا.

- ولكن هل من المعقول أن تتدهور حالة شخص إلى ذلك الحد لأنه مُغرم؟ وفي السادسة عشرة من عمره!

أنهى "چورچو" الحوار، وتحوَّل "إرنستو" فجأةً إلى الجدية.

- خطبة مقنعة جدًّا يا "جريجور"، سيكون "سيربييري" فخورًا بك!

- لا تحاول معي يا "إرني" فذلك المسكين مريض. أقول فقط إنه من الممكن أن تكون قد أحببت الشخص الخطأ.

- جيد، جد لي أخرى تتحرك وتتحدث وترى وتسير وتغضب وتمزح مثل "چوليا". قل لي كيف يمكنني أن أجد أخرى.

- كفى!

نهض "چورچو" من فوق السرير.

- أنت ملبوس، وأنا لست مجهزًا لطرد الأرواح الشريرة.

ثم تحرَّك بخطواتٍ متعبةٍ نحو الباب، والتف مجددًا نحو "إرنستو":

- ولكن لماذا لا تبحث أنت عن أي تحول في هذه القصة؟ تحدث معها! أليس ذلك أفضل؟

تنهَّد "إرنستو" وقال:

- نعم، يجب عليَّ فعل ذلك، ولكنني لا أستطيع فهمها.. "چوليا" غريبة الأطوار، تربكني.. وتقضي عليَّ.

- هذه هي الحقيقة المؤكدة الوحيدة.

بدا "إرنستو" أصغر من عمره. كان مرتبكًا وتسيطر عليه حالة من الشك، وهو ما جعل "چورچو" يشعر بالمزيد من الضيق.

- سينتهي بك الأمر أنت و"تشتشيليا" كمثالٍ على الحالات المرضية للحب في نظريات "سيربييري" الجنونية. حالتك مرضية بالفعل. ألا ترى ذلك؟

بحث "إرنستو" عن شيء يلقيه به، فالتقط من تحت سريره الأوزان الخاصة بصالة الألعاب، فجرى "چورچو" خارجًا من الغرفة. وبينما كان "إرنستو" يكتشف عدم قدرته على حمل الأوزان التي تزن كيلوجرامين، نظر "چورچو" مجددًا إليه من الباب، وقال له:

- أمر وحيد حتمي: تنفَّس مع "چوليا"!

أخفى "إرنستو" رأسه تحت اللحاف.

***

اكتشف "بييترو" السبت التالي إحساسَ ومتعةَ الظهور في حفل موسيقي حقيقي. حتى وإن لم تكن حفلة اختبار لدى إحدى شركات الإنتاج الفني، فرقة "ريد" كانت تعزف لأول مرة أمام عددٍ ملحوظٍ من الأشخاص.

كان الأستاذ "سيربييري" قد استمع بانتباهٍ إلى المقطع التجريبي من مقطوعات الفرقة، ثم أرسل إلى "بييترو" تعليقًا فنيًا مطولًا ومُفصَّلًا، وقد كان كريمًا في مدحه، لكنه كذلك انتقد بعض النقاط. في النهاية شجَّعه على محاولة العزف بأفضل ما في استطاعته، فالموسيقى يجب أن تُعامل دائمًا باحترام، حتى وإن كان ذلك في أماكن غير معروفة في الضواحي وأمام جمهور غير مُنتبهٍ.

كان "فيديريكو سيربييري" الأستاذ الوحيد الذي يستحق الدعوة، حيث ذهب إلى تلك الحفلة كما لو كانت إحدى حفلات الأوبرا. كان يرتدي معطفًا أسود من الساتان، مع البابيون والزرائر المعدنية الأنيقة التي توضع في الأكمام. جلس إلى

طاولة بعيدة عن المنصة مع "چورچو"، الذي ارتدى قناعَ شبحٍ وشيئًا ما يُشبه الملاءة. كان يتصفح باهتمام الكتب التي سلمها إليه الأستاذ من قبل.

قال الأستاذ:

- هذان هما أول جزأين من أعمال "فرنان بروديل". إنها نصوص أساسية. وحتى الآن أستطيع أن أقول إنه بإمكانك البدء من هنا، يا "چورچو".

- جيد، هل يمكنني أيضًا الحصول على ملازم حضرتك؟

- بالتأكيد، ولكن هناك العديد من الفصول باللغة الإنجليزية.

- لا مشكلة.

رتَّب "چورچو" الملازم في إحدى حافظات الملفات، وفي اللحظة التي التفت فيها الأستاذ نحو المدخل، دخلت "چوليا" و"مارتا".

كانت كل واحدة تمسك بيد الأخرى. ارتدت "جوليا" زي الساحرة الشريرة، بينما ارتدت "مارتا" زيًا قصيرًا للغاية، كأنها أرملةٌ متشحةٌ بالسواد. سارت "مارتا" مترنحةً على الكعب العالي للغاية مثل العاهرة الشابة التي تعيش بالظلمات. اقتربت الفتاتان من "بييترو"، وهمستا بشيء في أُذنه، ثم ابتعدتا بحثًا عن طاولة.

كان "بييترو" وعازف الجيتار الكهربائي منشغلين بترتيب عشوائي للمقطوعات المقرر عزفها عندما اقتربت فتاة طويلة لها شعر شديد السواد، وتضع مكياجًا ثقيلًا. كانت ترتدي قميصًا أسود يبرز صدرها الكبير. قالت:

- هل تغني لنا الأغنية الأخيرة لـ"كِيارا"؟

رد "بييترو" دون أن يلتفت:

- لمَن؟

ابتعدت الفتاة رافعة كتفيها. لم يُرِد "بييترو" أن يتزامن وقت عرض حفلتـه الموسـيقية مـع عيد "الهالووين". فالجميع احتفلوا به بالفعل منذ عـدة أيـام، حيـث انتـشرت ديكـورات عـلى شكل عناكب وثمرات القـرع والعبـاءات الـسوداء في المدينـة. وهـا هـم الآن يرتـدون الأقنعـة ويجلـسون في ذلـك المحـل، ويبـدون كفرقـة متـاعيس. لكـن المعهـد الفنـي المقابـل لمدرسـة "مورجانتِه"، تقدم باقتراح تقاسم إيجار المكان. اسـتغرق بعـض الوقـت لتجميـع المـال، ففـات تاريخ العيد.

اندماج المدرستين معًا في ذلك المكان، قدَّم مزيجًا مختلفًا من الشباب. كان "بييـترو" يظـن أن تلك الفتاة بعينيها المكحلتين وطلبها الذي ليس له معنى، كانت هناك للتأكيـد عـلى صـحة وجهة نظره في رغبته باختيار البيئة المناسـبة، وفي تلـك اللحظـة نـسي تمامًـا الأهميـة التربويـة للموسيقى التي كان يدعو لها "سيربييري". استدعى فرقتـه محـاولًا أن ينـسى الحالـة الميـؤوس منها لجمهوره، الذي كان من المتوقع ألا يفهم الفرصة الكبيرة للتحضر التي يمنحها لهم. كـانوا يحاولون اختيار المقطوعة التي سيبدأون بها عندما دخل "إرنستو"، الذي بـدا ثمـلًا، متنكـرًا في هيئة مصاص دماء. بدا تنكره مقنعًا تمامًا. اقترب من "بييترو" محاولًا عدم لفت الانتباه إليه.

- أحتاج إلى نفسين.

أخذ "بييترو" يتفحصه لبضع ثوانٍ.

- تبدو لي مضطربًا بما فيه الكفاية.

ثم تجاهله والتفت يحدِّث "چيمّي"، المشغول بتركيب الطبل. بدا "إرنستو" متعبًـا. ونظـرًا لكون الآخرين كلهم مدينين له دائمًا، فعندما يطلب "إرنستو" مـنهم الـسجائر، كـان القليلـون فقط هـم مَـن يرفـضون طلبـه. أشـار لـه "بييـترو" بـأن يتبعـه، عـلى الـرغم مـن احتجاجـات الموسيقيين الآخرين. بعد أن اختبأ الاثنان خلف ستارة، تشاركا في سيجارة ملفوفة.

في الناحية الأخرى من المكان، شاردًا عـن حـماس تلاميـذه حولـه، كـان "سـيربييري" يتـابع بفضول تحركات "إرنستو".

بعـد الـنفس الأخـير، عـاد "بييـترو" إلى المنـصة، لتبـدأ الحفلـة الموسـيقية بـين الـضجيج والصفارات. بدا "إرنستو" كـروح بـلا سـلام داخـلي، متجـولًا بـين الأدخنـة والكلـمات المتكـررة للأغنية. كان يبحث عن طاولة "چوليا" وعندما عثر عليهـا، توجَّـه نحوهـا وهـو يـترنَّح. أفـسح لنفسه الطريق بين الزحام ليـصطدم بــ"مارتـا"، التـي بـدأت نوعًـا مـن التعـارف عـلى طـلاب المدرسة الأخرى. تركت صديقتها كي تتحدث مع ولدٍ من منطقة "أتشيليا".

- "إرني" أنت لا تستطيع الوقوف مستقيمًا.. هل يمكنني مساعدتك؟

- لا، لا. شكرًا، أنا بخير.

كانــت "چوليــا" تــشرب البــيرة وتهــز رأســها مــع الموســيقى. بمجــرد أن اقــترب منهــا "إرنستو"،استقبلته بالابتسامة المعتادة غير المفهومة. كانـت ركبتـاه ترتجفـان، وضربـات قلبـه متسارعة بسبب الأدرينالين. شعر بالغثيان الناتج عن الكحوليات ودوران الرأس الذي سببه له الحشيش.

الطريقة الوحيدة لإنهاء مـا كـان مقـدمًا عـلى فعلـه، هـي ألا يكـون في حالتـه الطبيعيـة. وهكذا، وقف أمـام "چوليـا" وهـو يكـاد ينهـار، وصرخ بعلـو صـوته لتـسمعه وسـط صـخب الموسيقى، قائلًا أصعب جملة يمكن أن يقولها في حياته:

- يجب أن أتحدث إليكِ، هل نذهب إلى مكان ما؟

- هل من الضروري أن يكون الآن؟

- نعم، الآن.

أملت "چوليا" أن يكون هناك خبر جديد ذو خـصوصية، فتبعتـه وهـي تجـر خلفها رداء الساحرة الشريرة الثقيـل. عـلى أي حـال أثارهـا الفـضول لمعرفـة مـا

يخفيه. عبر الاثنان الصالة بين الراقصين المتحمسين، ثم توقفا في أحد الأماكن الخالية بين حمَّام السيدات وحمَّام الرجال.

كانت تلك هي اللحظة.

بدأ "إرنستو" يحدِّق بها في حالة من اللاوعي كأنه تحت تأثير التنويم المغناطيسي.

- "إرني"، ماذا هناك؟

بدأت "چوليا" تضرب الأرض بقدمها منفعلةً؛ كانت فرقة "ريد" قد انتهت من عزف مقطوعاتها وانتقلت إلى عزف بعض المقطوعات الموسيقية المعروفة، كانوا يعزفون: "نو ومان، نو كراي" No Woman, no cry، وهي لم تكن تستطيع المقاومة أمام Bob Marely "بوب مارلي"؛ كادت تُجنُّ كي ترقص.

كان "إرنستو" يبدو كمن يستعد للقفز من مكان مرتفع دون مظلة.

- كنت أود أن أقول لكِ...

مدَّ يده واضعًا إياها على شعرها، بمداعبةٍ طويلةٍ وعذبةٍ، ثم جذبها إليه وطبع قُبلةً خفيفةً على فم "چوليا".

- "إرني".. ماذا تفعل؟

دفعته بعيدًا عنها فارتطم ظهره بالحائط.

- لا تأتِ إليّ لتقول إنك ثَمِلٌ، لأن هذه الحماقات لا أُطيقها.

هكذا صرخت "چوليا" رافعة صوتها للغاية حتى يعلو فوق صخب المكان.

بدأ "إرنستو" يرى ضبابًا، لكنه سمعها جيدًا. حذرته "چوليا"، دون أن تضع حالته في الحسبان، بأن يتحكم في غرائزه، ثم انتقلت إلى نقد النماذج الاجتماعية المنتشرة التي تبحث عن الجنس بأي ثمن. لم تتوانَ عن ذكر مقطوعات من بحث أختها عن Luce Irigaray "لوسي إيريجاري" وفكر

الاختلاف. استمر توبيخها له خمس دقائق بالتمام والكمال. كان "إرنستو" يبدو كمركب شراعي يحاول الثبات أثناء العاصفة.

قررت "چوليا" أن هذا كان كافيًا، وتركت صديقها المترنح الذي ظل واقفًا على قدميه. حدثت المشكلات التنفسية بعد ذلك بقليل، بدأ "إرنستو" يلهث. آخر ما رآه كانتا يدَي "فيديريكو سيربييري" تصفعانه على وجهه.

***

رأى "إرنستو" والده أمامه، حيًّا وشابًّا، مثل تلك الصورة التي يبتسم فيها في حجرته. عاد لتلك السنوات القليلة التي قضاها معه. شعر وكأنه يشم رائحة عطره من جديد. كانت الصور تتوالى أمامه بطريقة عشوائية. تمنَّى لو تمكَّن من إيقافه حتى ولو للحظة، لكنه اختفى. تركه الشاب، الذي كان يرتدي الأبيض والأسود، في سرير المستشفى والدموع تغرق وجهه، والمحاليل مُعلقةٌ حوله.

رأسه ثقيل، لكن معدته في حالة تحسُّن طفيف. كان المخدر منتشرًا في جسده، مصيبًا أطرافه بالتنميل.

كما لو كان ينظر عبر غشاء، لمح "چورچو" و"چيبّو" وهما يبتعدان. عندما نجح في رفع رأسه لمح شكلين، أحدهما يرتدي زيًّا داكنًا، والآخر زيًّا أبيض.

قال ذو الزي الأبيض:

- يجب أن نعيد قياس السكر في الدم ونحاول إعادته إلى معدلاته الطبيعية، لن يستغرق الأمر الكثير من الوقت، بعدها يمكنه الخروج.

- ابن أختي فتى لا غبار عليه، لكن هل رأيت ما فعله؟ أول مرة يشرب فيها ينتهي به الأمر إلى غيبوبة بسبب الكحول.

كان صوت "سيربييري" هادئًا ومتزنًا. لم يدرك "إرنستو" في لحظتها أين هو ابن الأخت ذلك الذي يتحدثان عنه.

- عندما تعرف أختي بفعلته تلك ستقوم بحبسه في المنزل لمدة أسبوع. وسيكون معها كل الحق في ذلك.

العرق الذي أخذ يتصبَّب من "سيربييري" نجح في مفاجأة "إرنستو" في تلك الظروف، فأستاذه كان يؤدي دورَ خالٍ من القرن السابق، وبشكلٍ مُقنعٍ للغاية.

- بعد هذا الرعب، سترى حضرتك أن ابن أختك سوف يكون أكثر حرصًا في المستقبل. مع أطيب أمنياتي بالشفاء يا أستاذ!

سلَّم الطبيب على "سيربييري" باليد ثم أكمل جولته، اقترب الأستاذ من سرير المريض:

- كيف تشعر الآن؟

لم يستطع "إرنستو" أمام ابتسامة الأستاذ الحنون منع نفسه من البكاء. كانت الدموع تسيل على خديه لتنتهي في فمه.

- أنا أشعر بالخجل كثيرًا، أنا حقًّا أحمق.

رفع يده بتلقائية ليجفف دموعه، لكن تم إيقافها بشكلٍ عذبٍ.

- ابكِ كما شئت، لكن علينا أن ننقذ القسطرة.

قام "سيربييري" بتجفيف دموع "إرنستو" بمنديل من الكتان.

حاول "إرنستو" أن ينهض، قائلًا:

- يجب أن أخبر والدتي.

- استكمالًا لقصتنا التمثيلية، ابتدع "چورچو" القصة التالية: الحفلة انتقلت من مكانها إلى "ساباوديا" في بيت "بييترو"، لكنك لم يكن لديك الوقت الكافي لإخبارها بهذا التغيير المفاجئ؛ لأن إحدى الفتيات – سنطلق عليها اسم "ڤيولا" – شعرت بالتعب فطلبت منك مرافقتها. عندئذ قررت أن تنصرف أنت. ما رأيك؟

همس "إرنستو" بشيء من المتعة:

- لا بأس بها.

كان يشعر بأنه أصبح أفضل حالًا. ولأنه سيخبره عن وجود فتاة، سيضطر إلى إعطاء "تشيتشيليا" وصفًا كاملًا لها. ودَّ لو يحكي عنها للأستاذ، لكنه رأى أنها ليست اللحظة المناسبة.

اتصل "إرنستو" بـ"تشيتشيليا" في الصباح التالي، بعد أن خرج من المستشفى. وجد والدته هادئةً وسعيدةً لأنه استمتع مع أصدقائه.

وضع "فيديريكو سيربييري" مجموعةً متنوعةً من القمصان والبنطلونات أمام الفتى ليختار منها. جرَّب "إرنستو" كل هذه الملابس واكتشف أن ارتداء مقاسين أكبر لم يكن مشكلة لنفسيته المحطمة. وفي الوقت نفسه كان الأستاذ يعطيه فوطًا نظيفةً.

- أرجوك، اعتبر هذا المنزل مثل منزلك.

دخل "إرنستو" الحمَّام وأغلق على نفسه ليأخذ دُشًّا يعيد إليه حيويته، ثم ارتدى الملابس النظيفة بأجواء تشبه الموسيقى الخلفية لـ"حلاق إشبيلية"، بينما كان الأستاذ في المطبخ يعدُّ أكلةً خفيفةً أساسها الخبز وعسل النحل والفاكهة. قرر الفتى – الذي كان لا يزال مرتبكًا بعض الشيء – استكشاف بيت أستاذه الذي كان عبارة عن مكتبة ضخمة حرفيًّا.

كان بالشقة ممر طويل على شكل حرف الـ"U" مُعبَّأ لدرجة كبيرة بالكتب لدرجة تجعل رؤية الأرفف صعبة جدًّا.

كانت موضوعات الكتب مهمةً للغاية، ومرتبة ترتيبًا أبجديًّا حسب اسم المؤلف. أحد الجدران، البالغ طوله ثلاثة أمتار، مقسمًا بين الأدب والفلسفة، وأخر ثلاثة أرفف مخصصة للشعر، بينما الأرفف العليا الموجودة فوق الأبواب

مليئة بالعديد من مجلدات التاريخ، أمَّا الأرفف الموجودة تحت النوافذ فبها كتب القانون والاقتصاد.

عبر "إرنستو" الممر كله وفي النهاية دخل غرفة "أوديليا"، حيث كان "فلاك" نائمًا على السرير، ثم نهض وخرج من الغرفة.

غرفة الطفلة أيضًا مكتظة بالكتب: حكايات خرافية قديمة وحديثة، وقصص للأطفال، ومجلدات من الكتب المصورة عن الجغرافيا والعلوم. وبالقرب من الدولاب توجد مجموعة من الصور. صور للأستاذ وابنته.

تشبه الطفلة والدها، لكن جمالها أكثر روعةً وبريقًا.

دخل "سيربييري" حاملًا في يديه زجاجة ماء وكوبًا.

- أستاذ، ابنتك طفلة...

قاطعه الأستاذ، وردَّ عليه كما لو أن الضيف قد اكتشف إعاقة خطيرة عند "أوديليا".

- أعرف ذلك. إنها جميلة جدًّا.

تنهَّد "سيربييري" بينما يضع الزجاجة على الكومودينو.

- أودُّ ألا تضع طفلتي في حسبانها هذه الفاجعة، لكن مستقبلًا أشك في ذلك. الجمال سلاح غير مناسب، وأنا لا أريد أن تسير "أوديليا" وتتجوَّل مسلحة.

وضع الأستاذ لـ"إرنستو" كوبًا من الماء وأوصاه بالشرب كي ينظف كبده ويرطب جسده.

كان "إرنستو" منجذبًا إلى كتب الأدب، وبالتالي عاد الاثنان إلى الممر، حيث أمسك الأستاذ بسلم وصعد عليه حتى وصل إلى الرف الثاني من الأعلى وأخذ مجلدًا ضخمًا وأعطاه إلى الفتى.

- هذه هي الأعمال الكاملة، أردت إهداءها إليك منذ فترة.

قلب "إرنستو" بين يديه أشعار "لورانس".

- قرأت بعض الأشياء لـ"لورانس"، لكن لم أقرأه كله. ألف شكر.

قبل أن يدخل إلى مكتبه، اتفق "سيربييري" على موعد فسحة مهدئة للأعصاب، فالتمشية ستفيد في إيقاظ الخلايا التي أنهكتها الكحوليات.

افترق الاثنان وقرر "فلاك" بنوع من الإصرار اصطحاب الضيف.

لأكثر من ساعة جلس "إرنستو" يقرأ بنَهَمٍ أبيات القصائد الأكثر جمالًا للشاعر الإنجليزي. توقَّف عند بعض القصائد مثل: "قصيدة حب"، و"منبوذ"، و"العروس"، و"الالتماس"؛ فكلما كان ينغرس في الصفحات الزاخرة بالعشق كان يشعر بأن قوة هوسه تخمد. ربما كان ذلك هو الطريق الصحيح كي يتعافى؛ أن يطهو نفسه على نارٍ هادئة في ذلك الشعور حتى يجعله عاديًّا. كان للعملية فرصة بأن تنتهي على خير. في تلك الساعات، شغل "إرنستو" نفسه بالقراءة وشرب المياه. ثم بدأ ما حدث يعود إليه ببطء. أخذ يقنع نفسه أن عشقه لـ"چوليا" وليد خياله. كان يشعر بأعراض النقاهة، وبدأ يكتشف أن الحب في الأصل شكل من أشكال العَتَه الذي يُمكن العلاج منه.

استكمل العلاج وحده، وهكذا انتقل عن اقتناع إلى قراءة "آلام ڤيرتر"، ثم قرأ نصوصًا رومانسية أخرى، إلى أن جلب لنفسه شعورًا واضحًا بالغثيان.

في تمام الساعة السادسة وعشر دقائق، خرج "سيربييري" من مكتبه ومعه طوق الكلب ونادى على "فلاك". وبعدما تأكد من أن "إرنستو" أنهى زجاجة المياه، دعاه كما كان مخططًا للتمشية.

تبعًا لما أوحى له ما قرأه، فهم الفتى أن بإمكانه تغيير نظرته إلى المشكلة، وهو ما بدا واضحًا على وجهه؛ حيث أصبحت نظراته أكثر يقظة ولمعانًا، وهو ما انتبه الأستاذ إليه على الفور.

- عزيزي الشاب، اليوم تبدو شخصًا مختلفًا.

أجاب "إرنستو" بابتسامة مسرورًا:

- حسنًا! إذًا فلنتعرف. أتشرف بمعرفة حضرتك. أنا "إرنستو جرادي".

قام "سيربييري" ضاحكًا بالسلام باليد على "إرنستو" الجديد:

- الشرف لي، أنا "فيديريكو سيربييري" ومرحبًا بك من جديد إلى العالم.

ومثله مثل الأستاذ "هيجينز" في "بجماليون" أمام بائعة الزهور الصغيرة التي لا تعرف القراءة والكتابة، كان الأستاذ يهنئ نفسه بإسهامه بطريقة ما في ذلك التحوُّل السعيد.

خرجا إلى الشارع. استنشق "إرنستو" هواء المساء وملأ به رئتيه. في هذه اللحظة بدت له الحياة قائمة لا نهاية لها من الاحتمالات. تذكر الأشياء الكثيرة التي تركها مُعلقةً. لم يعد يفكر في "چوليا". سار الأستاذ والتلميذ في صمت لبضع دقائق.

فجأةً سأل "إرنستو":

- أستاذ، هل تودُّ معرفة سبب تدهور حالتي هكذا؟

أجابه الأستاذ:

- ليس هناك داعٍ لذلك يا "إرنستو"، انسَ كل شيء، فلقد أعطى العلاج ثماره.

وبنبرةٍ أكاديمية رد "إرنستو":

- اتفقنا، ولكن أودُّ أن أفهم الظاهرة. ما الخطأ الجسيم في الرغبة في الحب؟

- ثق يا فتى بأن المرء يتعلم أكثر عندما يكون غير محبوب مقارنة بالعكس.

- مع ذلك لا تستطيع حضرتك إنكار أن وجود شخص يضعك في مركز حياته شيء مُرضٍ.

كان الأستاذ متفهمًا لشكوك الشاب الذي كان يتحرك كجدي وُلد لتوه.

- بالتأكيد، ولكن هذا ليس واقعيًّا. النفع الذي تشعر به عندما تكون تحت تأثير الحب هو خداع كبير. لن تكون أبدًا أكثر جمالًا، أو أكثر ذكاءً، أو أعلى مما أنت عليه حقًّا فقط لأن شخصًا ما يضعك في مركز أوهامه وهذيانه. بكلمات أخرى يصبح الناس ضحايا في عملية تمثيل كبيرة.

كان "إرنستو" يتأمَّل "فلاك" الذي كان يقضي حاجته مقوسًا ظهره المليء بالشعر.

- لكن لماذا حضرتك متأكد من ذلك هكذا؟

ارتدى "سيربييري" زوجًا من القفَّازات البلاستيكية، ثم أخرج جاروفًا وكيسًا وجمع فضلات "فلاك" وكأنه بستاني يهتم بحديقة من زهور الأوركيد.

- أُتيحت لي الفرصة لدراسة الظاهرة والتفكير فيها. التجربة العاطفية للحب خاطئة، خاصةً في عمركم هذا. الإنسان يحتاج إليها لأنه يطمح في الأمان، لكن إن وضعنا في الاعتبار أن وجودنا في تطور مستمر، فأيضًا الاستقرار شيء ببساطة وهمي.

ألقى "سيربييري" فضلات "فلاك" وقفَّازات الجرَّاح التي كان يرتديها في صندوق القمامة. بينما "إرنستو" يفكر فيما قاله أستاذه.

استكمل الأستاذ حديثه:

- لكن أحيانًا يحدث أن نقع في فخ الحب. ومن الأفضل أن ينظم المرء نفسه حتى لا يرضخ. فمثلًا أنت الآن تستطيع استثمار هذا الوضع.

- كيف؟

- بأن تستعد كي تصبح "لورانس" الجديد مثلًا.

كان "إرنستو" مستمتعًا بالثقة الجديدة التي منحه إياها الأستاذ دون مناسبة.

- في النهاية فإن التفكير في الأمر هو الطريقة الوحيدة الصحية لاستغلال هذا الهذيان الذي يُدعى الحب؛ فالكثير من الفنانين في كل عصر تفهَّموا ذلك جيدًا. ومن هذا المنطلق، وفقط هذا، يُمكن أن يصبح عاملًا منتجًا.

شعر "إرنستو" باستعادة شجاعته بهذه الكلمات التي كانت، بطريقة مدهشة، لا تحمل أي أمل.

أنهى الأستاذ الحوار، قائلًا:

- من الأفضل أن نعود الآن؛ أنت ما زلت ضعيفًا، كما أن موعد الاتصال التليفوني لطفلتي قد اقترب.

انطلقا نحو المنزل في هدوء، وقد ربطتهما حميمية جديدة. كان "فلاك" يسير مهرولًا حولهما. وبينما ينظر إلى ذلك الرجل الأنيق المهذب وهو يسير بالقرب منه، فكَّر "إرنستو" في أبيه، ذلك الرجل الذي أحب كثيرًا دون تحفظات. ومع ذلك لو كُتبت له الحياة، لأراده أن يكون مثل "فيديريكو سيربييري" في كل شيء.



ديسمبر

قوة مضادة للمجتمع



لم يتَّفق أساتذة فصل 3/2 في "مدرسة مورجانتِه" على سياسة تدريس مشتركة بينهم لهـذا الفصل. على أي حال، كان هيكل أعضاء هيئة التدريس غير متناغم؛ فمـثلًا سـتجد شـابًا يقـوم بأول مهمة كُلِفَ بها، وسيدةً توشك على الوصول إلى سن المعاش، وأخرى غريبة الأطوار ثرثارةً لها أظافر طويلة جـدًّا، ورجـلًا عجـوزًا قاسـيًا يـدّعي معرفـة مـا لا يعـرف، بالإضـافة إلى اثنـين احتياطيين تعبا من تعاقدهما المؤقت. لكن في ذلك اليـوم في نـصف ديـسمبر، أثنـاء الاجـتماع الأخير للفصل الدراسي الأول، تشاركوا جميعًا في إحساس واحد: ضيق غير متوقع تجاه زمـيلهم الجديد، أستاذ التاريخ والفلسفة.

كان فصل 3/2 يمثِّل دائمًا مـشكلة للجميـع. فالعنـاصر القليلـة الـصالحة أظهـرت تعاطفًـا مخيفًا تجاه الفوضوية. انقسم الأولاد إلى مجموعات تتآلف وتتحد بشكل عجيـب أمـام عـدو مشترك؛ الأساتذة.

المعلمون الأقل جنونًا كانوا يتساءلون كيف لفصل مثل هذا، ليس لديه أدنى تقبُّل لمبدأ النظام، أن يكتشف بالإجماع هوسه بدراسات التاريخ والفلسفة. ما نوع الـسحر الـذي جعـل الطـلاب، الـذين كـانوا فقـط في العـام الـسابق يقومـون بنقـل حـروب ومعاهدات من قـرن لآخـر، أسـاتذة في التـاريخ؟ وكيـف لــ"لـويچي ريڤـولي" العـصي

على أي تعليم أن يستحق بكل إعجاز الحصول على تسع درجات من عشر؟ هذه الأسئلة وأسئلة أخرى كانت تؤرِّق بعض المعلمين، ولكن المرافعات الدفاعية لـ"سيربييري" كانت حماسية لدرجة أنه لم يجرؤ أحد على التحقيق في ذلك.

بعد حوارات "سيربييري" المطمئنة حول ذلك الإنجاز، استطاع الأولاد أيضًا أن يتحسنوا في درجات السلوك، وهو حدث مثير لقلق زملائه. ربما كان حقيقيًا، كما اضطر هو نفسه للاعتراف بذلك، أن الأولاد كانوا يقضون وقتًا أقل على الكتب مقارنة بالوقت الذي يقضونه في الشارع، ولكن في المقابل كانوا يولون اهتمامًا وانتباهًا كبيرين للنقاش الذي يدور في الفصل كما يشاركون مقدمين إسهامات مفيدة.

اعترضت "أديلِه بالميري" على هذا الحضور المُبالغ فيه:

- "سيربييري" تذَّكر أنك أستاذ ولست أبًا.

استغل الفرصة ليعرب عن فكرته في التدريس فقال:

- ولكن يا زميلتي العزيزة من المعلوم أنه مطلوب منا القدرة على أن نكون آباء وأمهات علاوة على كوننا معلمين.

هذا الخلط في الأدوار كان يقلق الزملاء كثيرًا. وهكذا عندما حاول "سيربييري"، كأي أب غيور، التدخل في التقييم النهائي للمواد الأخرى وبمهارة بلاغية في تحويل الدرجات الثلاث إلى ست درجات، قامت جبهة متماسكة برفع الدروع لصد الهجوم.

لعبت الشكوك في عقل أستاذ مادة تاريخ الفن، فقال:

- "سيربييري"، هل تنتمي إلى إحدى الجمعيات الدينية؟

- لا، على الإطلاق، يا "موديستي"، فمفهومي عن المدرسة علماني حتى النخاع.

جلس المدرس المُسن في صمتٍ حائرٍ.

وبنـبرة صـوت تـشبه تلـك النـبرة المـستخدمة في التحقيقـات بـشكل يثـير الـضيق، قالـت "جالّوسّي" أستاذة الكيمياء:

- هل صحيح كما أخبروني بأن "ماركو ڤالينتي" نادرًا ما ينام أثناء الشرح أثناء حصصك؟

- نعم، الأمر هكذا فعلًا. فـ"ماركو" في حصصي يقضي بعض الدقائق في حالـة مـن اليقظـة، وفي بعض الأحيان ينجح أيضًا في المشاركة.

أرادت "جالّوسّي" أن تعرف شيئًا فقالت:

- معذرةً يا "سيربييري"، لكن كيف تفسر هذه الظاهرة؟

- لستُ خبيرًا؛ فما اكشتفته عن مـرض التغفيـق هـو أن النوبـات تـصيب المـريض عنـدما يستقبل دافعًا ضعيفًا من البيئة المحيطة، هـل أنـتم متأكـدون مـن أنكـم تبـذلون أفـضل مـا لديكم لإبقائه يقظًا؟

بعد هذه الكلمات حصل الأستاذ على تأكيدات غاضبة مـن زملائـه عـلى كـل الـضيق مـن هؤلاء الطلاب ومن كل مَن يدافع عنهم. وبالنظر حوله، اقتنع أنه لو كان مرض التغفيق ذلـك معديًا لكان الكثيرون ممن كانوا داخل تلك الحجرة أكثر من راضين.

تم رفع درجات السلوك الست التي حصل علـيهم "چورچـو جريجـور" إلى سـبع درجـات على الرغم من وصفه لـ"جالّوسّي" بـ«المرأة المحدودة»، وجاء سبب الرفـع أداء "چورچـو" دور البطل في أحد الدروس المهمة في حصص التاريخ.

عندما أخذ الطلاب شهادة نتيجـة الفـصل الـدراسي الأول إلى المنـزل، شـهد الجميـع، حتـى المعارضـون لـه، بالتـأثير الـسحري لــ"فيـديريكو سـيربييري". وبطبيعة الحال كان الأستاذ يشعر بتزايد القبول الصادق لما يقـوم بـه. وذلـك

بخلاف مجموعة من المعارضين يتزعمها "بييرلويچي فلاميني"، التي قررت أن تحوِّل ذلك الأستاذ غريب الأطوار إلى ضحية مستهدفة لعمليات مزاح هزلية.

في أحد أيام الإثنين قبل بدء الإجازة بأيامٍ قليلة، كان الفصل لايزال خاليًا عندما طلب "بييرلويچي" سرًا من "إلاريا" أن تراقب له الباب. قام اثنان آخران من المشاركين في الأمر بمساعدته وهما يكتمان ضحكاتهما. وبغراء قوي للغاية ألصق رسمة على مقعد الأستاذ. كانت رسمة كاريكاتيرية لـ"سيربييري" وهو يرسم على السبورة عضوًا ذكريًّا ضخمًا يخرج منه رذاذ السائل المنوي. وبمجرد أن سمعوا جرس انتهاء الفسحة، عاد "بييرلويچي" والقليلون المتورطون معه بسرعة إلى مقاعدهم. وفي ظل أجواء الإثارة التي لا نهاية لها، لم ينتبه الطلاب الآخرون لفصل 3/2 على الفور إلى المفاجأة التي تنتظر الأستاذ. ولكن عندما ذهبت "مارتا" كي تغلق النافذة لاحظت الرسمة، وصاحت قائلة:

- "إرنستو"، يا إلهي! انظر.

اقترب "إرنستو" الذي استدعته للإغاثة وتحوَّل فضوله بسرعة إلى غضب، وقال:

- يؤسفني ذلك يا "مارتا"، عندما يكون المرء غبيًّا هكذا، يجب أن توضع له نهاية.

تحرَّك الكثير من الطلاب لإخفاء تلك الرسمة الكاريكاتيرية التي كانوا يخشون أن يتورطوا هم أنفسهم، رغمًا عنهم، في وقاحتها.

قال "إرنستو":

- هيا، تحرَّكوا!

ومن أجل سلامة "بييرلويچي فلاميني" قرَّر مراقبة "چيبّو"، إلا أن ذلك المحارب المقاتل كان منشغلًا في نقل واجب الرياضيات فلم يساهم في حل المشكلة.

ردت "مارتا" قائلة:

- يجب أن تختفي الرسمة قبل أن يأتي.

تسلَّح كل من "إرنستو" و"مارتا" مسرعين بمساطر وقواطع وأخذا يواجهان الغراء الشيطاني. دخل "فيديريكو سيربييري" مع "چورچو" و"چوليا" في اللحظة نفسها التي انشغل فيها الاثنان بإزالة القطعة الأخيرة من الورقة التي كانت لاتزال ملتصقةً بالمقعد بقوة.

سأل "سيربييري" مندهشًا لوجودهما منحنين بالقرب من مكتبه:

- ماذا تفعلون؟

نظر كل منهما إلى الآخر مرتبكين وآسفين. اقترب الأستاذ ورأى الورقة المتدلية من أحد جوانبها.

فقالت "مارتا" محرجة وبصوتٍ حائرٍ:

- لم نرغب في جعلك ترى هذا.

- أشكركم لمجاملتكم، ولكن الآن اذهبوا واجلسوا في أماكنكم.

حل الصمت المصحوب بالتوتر على الفصل، وانتزع "سيربييري" الرسمة من المقعد وأظهرها للفصل بأكمله.

علق "سيربييري" بهدوء، بينما كانت عيناه تبحثان عن الطالب المسؤول عن رسمة الكاريكاتير تلك، وقال:

- اقتراح مهم. سنصل إليه يا "فلاميني"، ولكن في الوقت المناسب.

ثم كوَّم الرسمة وألقى بها في السلة. ارتسمت ابتسامة على شفتيه، فتنهَّد الأولاد بشيء من الراحة. كان على "بييرلويچي فلاميني"، وخيبة الأمل على وجهه، أن يعيد حساباته مع ردود الفعل غير المتوقعة لـ"فيديريكو سيربييري". توقَّف الأستاذ عند "لورينزو" و"سارة"، اللذين كانا يتبادلان نظرات الأعين في شرود عن كل ما حولهما؛ هذه الظاهرة أقلقت الأستاذ أكثر من أي رسمة كاريكاتير خارجة وقبيحة.

ولكي ينقذهما من تلك الحالة، اختار عنوانًا لتلك الحصة: "مفهوم الحرية وحالـة الغـرام". وأشرك بالتحديد "لورينزو" و"سارة" في عرض عملي، وعمل على وضعهما على راحـتهما، ولكنـه في المقابل طلب منهما الصراحة المتناهية.

- عزيزي "لورينزو"، هل لك أن تخبرنا بالأفعـال التـي قـد تنفـذها بكامـل إرادتـك، لكنـك تخفيها خوفًا من إثارة غضب "سارة"؟

كي يرضي الأستاذ بالمواجهة، قام الفتى على الفور بالتقدم للعـرض بمنتهـى الكـرم في سرده. كـان "لـورينزو" يفكـر في خطيبتـه لعـدة سـاعات في اليـوم، مخـاطرًا هكـذا بأدائـه في مـادة الرياضيات، تلك المادة التي كان دائمًا بارعًا ومتميزًا فيها. ثم اعترف بأن اصـطحابه لهـا للقيـام بالتسوق كان أصعب من خلـع ضرسـه دون مخـدر. وفـيما يخـص "سـارة"، كي تـرضي رغبـات "لورينزو"، فكانت تبتعد عن صديقاتها؛ وحكت أيضًا للجمهـور النـسائي كيـف كانـت تـضحي بأيام الأحد لتجلس مع فتاها وتشاهد رجالًا بالملابس الداخلية يجـرون وراء كـرة، ثـم تـستمع إلى تعليقات رجال يرتدون المعاطف وربطات العنق حتى المساء على الرجـال الـذين يرتـدون الملابس الداخلية، وهو ما كان يصيبها بالملل القاتل.

كان جزء كبير من الفصل مندهشًا مما يقوله الاثنان، أمَّا الذين يمرون بأمور مشابهة، فقد استقبلوا تلك الاعترافات كنوعٍ من التحرير.

- شكرًا لكما؛ فقد كان شرحكما شاملًا جدًّا.

ثم توجَّه "سيربييري" إلى الفصل كله:

- نستنتج ممَّا قاله الاثنان أن الحب عملية مستمرة من النفاق. كما أنه يتـسبب في إنتـاج تصرفات معادية للمجمتع بقوة.

بدت تلك الحصة مفيدةً للغاية، ومنـذ تلـك اللحظـة، قـرر كـل مـن "سـارة" و"لـورينزو" الاستفادة مما تعلَّماه فيها، وقررا عدم السفر معًـا إلى الجبـال واسـتغلال الإجـازة لفـترة راحـة للتفكير.

ولكن بالتحديد في ذلك الصباح، في نهاية حصته في فصل 3/2، لاحظ الأستاذ يدي "چيبّـو"، صدمه ما رآه، وأضعف من حماسه. وضع الفتى السماعة في أذنيه، بينما أخذ يلقي بـالكلمات في الهواء متبعًا أداء الموسيقى، وعلى مفصل الخنصر كان مرسـومًا حـرف (مـيم) كبـير بـاللون الأزرق، وعلى البنصر حرف (هـاء)، وحـرف (بـاء) عـلى الوسـطى، وحـرف (لام) عـلى مفـصل السبابة. كونت تلك الحروف كلمة كـشفت عـن شيء لم يكـن في حـسابات النظريـة الخاصـة بـ"سيربييري" بعد.

وبصوت هادئ، ناداهم الأستاذ ليعودوا إلى أماكنهم، بعـدما كـانوا جميعًـا قـد وصـلوا إلى الباب:

- يا شباب، لقد أغفلت شيئًا مهمًا في حصصي هذه.

توقف الأولاد عن استعداداتهم للخروج وعادوا منتبهين.

- الجنس. بفضل إلحاحات "فلاميني" الصريحة، ليس فقط لهذا السبب، إلا أننـي أدركـت أنني لم أتحدث عنه من قبل قط.

انتزع "بييترو" السماعة من أذن "چيبّو":

- لقد حانت لحظتك؛ دعهم يروا مَن أنت!

لاحظ "سيربييري" أن الطلاب زادوا حماسًا بشكل خاص، بينما يعود كـل مـنهم إلى مكانـه متنازلين عن الفسحة بين الحصص.

- في هذه اللحظة سأقول لكم فقط هذا: الجنس ليس بالشائبة الخطيرة، بل على العكـس فهو نشاط طبيعي جدًّا.

ابتهج كل ذكور الفصل بوجهة النظر هذه التي كانوا يتفقون معها بسهولة.

- في عمركم هذا على وجه الخصوص يجب إشباع رغباتكم الجنـسية، لكننـي لا أرغـب في إرباككم، لكن يمكن فصل تلك الرغبة عن حالة الحب.

بدا القلق في نظرات الفتيات.

- أعتقد أن تحريم ممارسة الاستمناء ما هو إلا ظلم، وأتحدث عن الجنسين، فأنا مقتنع بأنه ينفع الحالة المزاجية، وبأنه أقل ضررًا من الحب. في الحصة القادمة سوف نتناول هذه المسألة.

بينما الجميع يناقشون الأفكار الجريئة لـ"سيربييري"، اقترب "چيبّو" من "بييترو" وقال له:

- "بييترو" هل يمكن أن تقول لي معني هذه الكلمة.. الاستمناء؟

رد "بييترو" ضاحكًا:

- الاستمناء يعني العادة السرية، ليس إلا العادة السرية يا "چيبّو".

- آه، أخيرًا أصبحت خبيرًا.

ثم تحرّك الأولاد وهم يتهامسون نحو الباب متصافين في مجموعات صغيرة أمام الأستاذ. كان كل من "إرنستو" و"چوليا" يبحثان عن بعضهما بنظراتهما؛ انتظرت هي حتى يصل هو إليها في أعلى درجات السلم، ثم أخذته على الفور تحت أحد ذراعيها.

- هلّا تسامحني يا "إرني"؟

كانت نبرة صوت "چوليا" وديعة. قابلها "إرنستو" بابتسامة مطَمْئِنة.

- عن أي شيء؟

- عن عدم انتباهي لِكَم كنت بحالة سيئة، وتركي لك وحدك هناك، كم أنا أنانية!

تأمَّلته. بدا عليها التغيُّر. كان مكياج وجهها في حالة سيئة، حيث ساحت المسكرة، وكونت كتلًا داكنة حول عينيها. بدا شحوبها جنائزيًّا. كان هناك "بيرسينج" جديد في شفتها السفلى التي بدت على وشك أن تلتهب.

شد الفتى على يدها في حركة توحي بالتفهم، وقال:

- كانت أمسية يجب أن تُنسى، فقد كنت بحالة سيئة للغاية وارتكبت المصيبة تلو الأخرى.

- لكنني يجب أن أدفع ثمن ما فعلت؛ لذا قررت أن أحجز جلسة مع "كاميلّو".

ضحك كلاهما.

- لا! لا تعاقبي نفسكِ لهذه الدرجة.

ضربته "چوليا" ضربة خفيفة على كتفه، وقالت:

- اتفقنا، إذًا سنعتبر هذه الأمسية البائسة وكأنها لم تحدث قط، ولكن من الآن فصاعدًا سأبقيك بعيدًا عن زجاجة الخمر.

طبعت قُبلةً على وجنته، عدَّل "إرنستو" من وضع الكوفية الخاصة بها، ومع هذه الحركات الأسرية واللغة المشتركة بينهما، بدأت علاقتهما تعود إلى ذلك الشعور الخاص الذي كان دائمًا يجمع بينهما.

- وعلى "مارتا" أيضًا أن تنسى تلك الأمسية؛ تخيل أنها سقطت بالحذاء ذي الكعب العالي واستلفت حذاء شخص ما من منطقة "أتشيليا".

كان "إرنستو" مستمتعًا وهو يشعر بذلك التجانس الذي قرَّبهما لأول مرة في العامين المؤهلين للثانوية.

خرجا إلى الفناء وهما يمزحان، لكن ما إن خرجا حتى وجدا نفسيهما أمام مشهد غير متوقع. فبالقرب من شبكة ملعب الكرة الطائرة، كان هناك فتى أشقر يلاحق قبعته التي ظل "بييرلويچي" وأحد أتباعه المنحطين يتبادلان إلقاءها لبعضهما، بينما طالب الصف الأول، بدعم من صديقين مذعورين له، يحاولون لاهثين استعادة القُبَّعة. لكن بسبب خوفه وضآلة جسده، لم يتمكن

مـن ذلـك. كـاد الفتـى، ذو الأربعـة عـشر عامًـا، يـبكي وهـو يجـري منهكًـا دون توقـف بـين "بييرلويچي" والفتى الآخر.

تابع "إرنستو" تحركات "بييرلويچي"، وعيناه الـداكنتان تـزدادان سـوادًا. تحـدثت "چوليـا" بحدة، قائلة:

- ما الذي تفعله يا سيد "فلاميني"؟ هل تتشاجر مع الصغار الآن؟

فعلق "إرنستو" قائلًا:

- إنه أبْلَه حقًا.

كانت نظرة واحدة كافية كي يدرك أن "چوليا" تـستعد للهجـوم، وبعـدها بـدأت صـديقته بالهجوم.

- أيها الأحمق القبيح، أعطه قُبَّعته في الحال.

اتجه "بييرلويچي" نحوهما، وقال:

- كانت تنقصنا، كالعادة، البلهاء المدافعة عن البيئة.

اسـتجمعت "چوليـا" قواهـا ورأسـها منخفـضة، ودون أن تفكـر في عـدم تكـافؤ قـواهما الجسدية، قفزت فوق زميلها في الفصل مستهدفة القُبَّعة، ولكنه بدفعة عنيفة ألقاها أرضًا.

عندئذٍ قال له "إرنستو":

- تواجه الأضعف منك، يا لك من رائع!

وانقضَّ بدوره على "بييرلويچي"، لكن ذلك الأخير تفاداه بسرعة، متنحيًا جانبًا، ثم قال:

- انظر، يا لك من أحمق، أنت لا تستطيع حتى الوقوف على قدميك.

ثم وجَّه إلى معدته ضربة وفر هاربًا يتبعه صديقه تاركًا "إرنستو" على الأرض يتألم.

وسط تلك الأجواء المتوترة، جلست "چوليا" على الأرض لتسعفه، وسألته:

- هل أصابك الأذى؟

فرد هو، هامسًا:

- دعكِ من هذا، ما من مشكلة، سيمر كل شيء. ماذا عنكِ أنتِ؟

- تمزَّق بنطلوني فقط.

ساعدته "چوليا" على النهوض على قدميه. ابتسم، وهو مُنحنٍ إلى الأمام ويده على معدته، إلى الصبية الذين أحاطوا به على الفور، لكن "چوليا" أبعدتهم بحركة بيدها مثل الدجاجة التي تدافع عن صغيرها الكتكوت.

طوال تلك الأمتار التي ساعدته فيها "جوليا" على السير، كان "إرنستو" يشعر بظاهرة نهاية الحب تلك. فعلى الرغم من ملامسة جسده لجسدها، فإنه لم يشعر بذلك الإحساس المضطرب، كما لم تكن الضربة التي تلقاها في معدته هي السبب. بل على العكس تمامًا، فكل ما شعر به كان بالتأكيد شعورًا متبادلًا بينهما بالطمأنينة. فبعد انتظاره الطويل لذراعي "چوليا"، كانت الأحاسيس الوحيدة التي بدت كهدية عيد الميلاد في ذلك الصباح، هي إحساس المودة والدهشة لشجاعته.

فُصِلَ "بييرلويچي فلاميني" لمدة ثلاثة أيام عقابًا له على الاعتداء الذي قام به في فناء المدرسة. أخبرت "چوليا" "چيبّو" بما حدث أثناء صعودهما السلم.

- هل لي أن أعرف لماذا لم تقوما بمناداتي؟

كان "چيبّو" يفوقها في الطول كثيرًا. خلعت "چوليا" ربطة شعرها لضبط ذيل الحصان الخاص بها، وقالت:

- لم يكن لدينا الوقت، ثم...

التفت الاثنان لانتظار "إرنستو" الذي كان يصعد أحد السلالم في الأسفل.

أكملت "چوليا" جملتها:

- كان بإمكاننا إنهاء الأمر جيدًا بأنفسنا.

وجَّه "چيبّو" نظرة ساخرة إلى زميلته، ثم قال:

- من الواضح أنكِ لست عنيفة، لكن هل نظرتِ إليه جيدًا؟

لم تنجح القمصان الكثيرة التي يرتديها "إرنستو" في إخفاء نحافته، بينما كان يحمل حقيبة ظهره الثقيلة على كتفه اليسرى، بصعوبة على ما يبدو. في النهاية تمكن من اللحاق بهما.

سألته "چوليا":

- كيف تشعر الآن؟

ثم أخبره "چيبّو" قائلًا:

- ذلك الحشرة في إجازة صغيرة لمدة ثلاثة أيام.

رد عليه "إرنستو" بنصف ابتسامة، أثناء دخولهم الفصل مع الطلَّاب الآخرين الذين بدوا كسربٍ من النحل:

- سنفتقد فضله.

كانت تلك هي الحصة الأخيرة لـ"فيديريكو سيربييري" قبل إجازة عيد الميلاد المجيد. كان الجميع في حالة اشتياق إلى الإجازة. عندما دخل الطلاب فصل 3/2 وجدوا الأستاذ على السبورة منهمكًا في الانتهاء من رسمة إعدادية. التفوا حوله يدفعهم الفضول. كانت الرسمة هي الجهاز التناسلي الأنثوي،

وبجانبه الجهاز التناسلي الذكري. وبين الرسمتين في وسط السبورة كانت هناك كلمة "رغبة".

وبمجرد أن انتبه "سيربييري" إلى الهمسات المرحة لتلاميذه، أسرع في التوضيح، فقال:

- لا تخافوا، لا أود أن أشرح لكم كيف تولد الأطفال.

ردت "چوليا" محاولة إغاظته:

- خسارة يا أستاذ فيبدو أن هناك مَن لا يعرف كيف تولد الأطفال.

انصرف الطلاب ليصلوا إلى مقاعدهم معجبين بما قالته. أعلن الأستاذ عنوان درس ذلك اليوم: "الرغبة والنشاط الجنسي".

وضع الطباشير على قاعدة السبورة ثم نظَّف يديه من تراب ممحاة الطباشير، ثم وقف أمام مكتبه. بدا الأستاذ سعيدًا بالنظرات الخبيثة المرحة التي انتشرت بين الطلاب.

- كما أشرت لكم المرة الماضية، من المهم تعريف مجال النشاط الجنسي، الذي في كثير من الأحيان في عمركم هذا، يتم الخلط بينه والحب. فمعرفة المزيد عن ذلك الموضوع ستساعدكم على عدم الدخول إلى منطقة الخطر.

نهض "چيبّو" واقفًا على قدميه وحذَر زميلاته ضاحكًا:

- يا فتيات، هل فهمتن؟ عندما كنت أقول ذلك لم يكن يصدقني أحد. وأحب أن أضيف أنه عند ممارسة الجنس ليس هناك داعٍ للثرثرة.

صدرت ضحكة مدوية أثبتت للأستاذ أن بعض الطلاب الذكور موافقون على ذلك الفصل بين الجنس والحب.

تدخَّلت "چوليا" لتقول ساخرة:

- بالتأكيد كل ما يهمكم هو الإيقاع بالفتيات، لكن بعد ذلك يصبح الجنس مجهودًا لا طائل منه.

أشارت الزميلات بالتأييد لكلامها.

ثم أضافت "سارة":

- من ناحية أخرى، عندكم عقدة الجنس.

كان الأستاذ قد أوقف الدرس وأخذ يتابع تلك المشاحنات مستمتعًا.

ثم قال "ميكيلِه" وهو يوجه لـ"چيبّو" نظرة تفاهم:

- أي عقدة يا "سارة"؟ فالأمر يرجع دائمًا إلى كيفية التعامل مع مَن تجدها أمامك.

كانت الأجواء يعمها الفوضى والمرح، لكن "مارتا" أخذت ذلك الدرس على محمل الجد، حيث دعت زملاءها بنبرة كادت تتحول إلى التوسُّل بالعودة إلى النظام:

- من فضلكم، هلّا تتركوا الأستاذ يستأنف الدرس؟

مدت "چوليا" يد العون بقوة لصديقتها، قائلة:

- "مارتا" معها حق، فلنصمت قليلًا.

أسكتت بذلك الذكور والإناث، شكرهما "سيربييري" بحركة لطيفة برأسه واستأنف حديثه.

- إذًا يا شباب فلنبدأ بالرغبة الجنسية. إن الرغبة الجنسية دافع يستثار تجاه جسد الآخر نستخدمه لمتعتنا. يبدو أنه تعريف قاسٍ بعض الشيء، لكن، إن تحدثنا عن الجنس، فالأمور هكذا بالضبط. وبالتالي فإن الرغبة الجنسية الجارفة عادة لجسدنا، أو من الأفضل أن نقول إنها احتياج فسيولوجي كالأكل والنوم.

قالت "مارتا":

- معذرةً يا أستاذ إن كنت أقاطع حضرتك، لكن إن لم يأكل شخص ما فسيموت.

وهنا تدخل "چيبّو" وقال:

- إن كنتِ ستموتين لأنك لم تمارسي الجنس، فلتحولتم جميعكم هنا إلى زومبي.

بهذه العبارة استطاع أن يجمع كـل الفـصل في ضـحكة أخـرى ومعهـم "سـيربييري" الـذي استأنف حديثه قائلًا:

- أنتم على حق، فالقيام بعلاقات جنسية ليس بالاحتياج الأول، ولكن من المثبت أنه يعود بالنفع كثيرًا على صحة الفرد. فبالنـسبة للنـساء يـؤدي إلى إفـراز هرمونـات الإسـتروجين التـي تساعد على تحسين حالة الجلد، والأوكسايتوسين المفروز هـو مـسكن قـوي لـلآلام، وبالإضـافة لذلك فإن القيام بعلاقات بشكل منتظم يحفز نظـام المناعـة. وبالنـسبة للرجـال فإنـه يكـافح الإجهاد والتوتر، ويدعم القلب، ويقوي العظام والعضلات.

في لمحة بصر أخذ "چيبّو" يد "بييترو" ووضعها على أسفل بطنه، وقال:

- تحسس هنا يا "بييترو"، تحسس عضلات بطني، تحسس، تحسس!

ابتسم "بييترو" وهو ينتزع يده قائلًا:

- يا لكَ من أحمق!

التف "سيربييري" مجددًا نحو السبورة وتحت جهاز الأعضاء التناسلية الأنثوية كتب:

"المناطق المثيرة للشهوة الجنسية لدى الإناث".

وتحتها حدد خمس نقاط في منطقة حساسة من جسد المرأة

وبعدها أضاف إليهم: الفم / الرقبة / الصدر".

ثم كتب تحت الجهاز التناسلي الذكري:

"المناطق المثيرة للشهوة الجنسية لدى الذكور".

وحدد ثلاث نقاط من المنطقة الحساسة في جسد الرجل،

وأضاف إليها: النظر / اليدان / الظهر".

ثم قال:

- هذه هي النقاط الأكثر حساسية، منفصلة فيما بينها، ولكنها كلها متصلة بالعقل الذي يظل المصدر الوحيد للإثارة.

- أستاذ، لكن هل نجد معك أيضًا الخريطة للوصول إلى البقعة چي؟

كانت تدخلات "چيبّو"، التي تقبَّلها الأستاذ بترحاب، تنشر حالة مزاجية جيدة عامَّة وتذيب حيرة بعض الأصدقاء الأكثر خجلًا.

كانت "إلاريا" تتحدث مع إحدى زميلاتها بصوت عالٍ أزعج عرض الأستاذ وأثار ضيق الزملاء. عندئذٍ حاولت "چوليا" التدخل، فقالت:

- هلا انتهيتما من التصرف بحماقة؟ فأنتما لا تجعلاننا نفهم أي شيء.

نظرت إليها "إلاريا" نظرة سيئة وشعرت أنها أغاظتها فهَمَّت واقفة وتحركت نحوها قائلة:

- اسمعي، لا يروق لنا أن نسمع الحديث عن تلك الأشياء. مفهوم؟ ربما أنتِ عليكِ الاستعداد لفيلم بورنو؟

بدأت الأجواء في الفصل تحتد.

ردت عليها "چوليا" دون أن ترفع نظرها من على السبورة:

- اذهبي للقيام بجولة إن كان الأمر لا يعنيكِ.

أدركت "إلاريا" أن اعتراضها تم تجاهله فأشارت لصديقتها وانطلقت الفتاتـان نحـو البـاب بحسم، لكن الأستاذ حاول إيقافهما.

- يا بنات، بطبيعة الحال، يمكنكما الخروج، لكن ربما عليكما محاولـة التغلـب عـلى ذلـك الكسوف وتلك الحيرة. فالنشاط الجنسي أساس الحياة. وفي نهاية الأمر كلكـم موجـودون هنـا لأنه عند نقطة معينة يقوم الرجل والمرأة باتصال جنسي. فكروا في الأمر.

قال "چيبّو":

- على العموم يستحق الأمر معرفة أشياء أكثر، أليس كذلك؟

كان "چيبّو" مهتمًا بشكل خاص بالدرس وكان يبحث عن موافقة الفصل وخاصـة العنـصر النسائي. ظلت "إلاريا" واقفة في حيرة من أمرهـا عـلى بعـد أمتـار قليلـة مـن مقعـدها، بيـنما اقتنعت صديقتها بالأمر وعادت إلى مكانها، وقالت:

- نعم، أنا سأبقى.

بعد ثوانٍ قليلة تبعتها "إلاريا". تابعهما "سـيربييري" بنظـره ثـم اسـتأنف الـدرس الجـريء. وقال:

- فيما يتعلق بالبقعة چي يا "چيبّو" يا عزيزي، فإن الكثيرين يعتبرونها اختراعًا مـن علـماء الجنس الأمريكيين؛ فالمسألة ما زالت مفتوحة.

سألت "مارتا":

- لكن ما المقصود بالبقعة چي هذه؟

أجاب "سيربييري":

- حسنًا يا "مارتا" يا عزيزتي، إن "البقعة جـي" منطقـة تقـع داخـل المهبـل وتعـد منطقـة حساسة بشكل غير عادي. وهذا وفقًا لما قاله الأستاذ "جرافِنبِرج"، وهو الباحث الذي زعم بأنه من اكتشفها، ولذلك تعود تسميتها إليه.

بدأ كل الأولاد في تدوين الملاحظات عدا "إرنستو" وعدد قليل من الآخـرين. ذلـك العـرض البارد تقريبًا، والـذي يـشبه عـرض عـالِم الحـشرات، عـن الاتـصال الجـسدي لشخـصين جعـل "إرنستو" غير مبالٍ بالأمر. ما أهمية معرفة "البقعة جي" واكتشاف المناطق الحساسة في جسد امرأة كما لو كان موضوعًا لأحد دروس العلوم أو جسدًا ممتـدًا عـلى طاولـة أخـصائي تـشريح متخصص في علم الأمراض؟ فهو متأكد أنه عندما تحين اللحظة سيجد الطريق إلى المتعة فقـط عبر البصيرة والإحساس.

استأنف "سيربييري" قائلًا:

- في الختام أود أن أجذب انتباهكم إلى سلسلة من المعلومات التي من الممكـن أن تكـون مفيدة لكم كشباب في هذه المرحلة.

ثم حدد على السبورة المناطق المثيرة للنشوة الجنسية عند الإناث، ثم حدد المناطق المثيرة للنشوة الجنسية عند الذكور.

صاحب كتابة هذا الكلام الجديد صياح متفرق وهائج.

أكمل الأستاذ الشرح:

- عندما يشعر جسد الأنثى بالهياج يـصبح أثـر ذلـك واضـحًا عـلى أمـاكن ذات حـساسية عالية بجسدها وهي علامة مهمة. فالطبيعي بالنسبة لها وجود طريقـة فـسيولوجية لتـسهيل العلاقة الجنسية. النشوة الجنسية، وهي قمـة الاسـتمتاع، يمكـن الوصـول إليهـا بتحفيـز تلـك المنطقة ذات الحساسية العالية.

كانت الفتيات تسجلن ملاحظـاتهن وأعيـنهن في الأرض متلافيـات مواجهـة نظـر الأسـتاذ. وعلى الرغم من البرود الذي كـان "سـيربييري" يواجـه بـه الموضـوع، فـإن سـحره كـان يجعـل كلماته مقلقة.

- وفيما يتعلق بالرجال، فسيُلاحظ تصلُّب العضو الذكري، مع زيادة سرعة ضربات القلـب وارتفاع ضغط الدم. وبالنسبة لبعض الذكور الذين يعانون من مرض القلب قد تكون العلاقـة الجنسية مميتة لهم. ويجب أن أذكر للـذكور أنـه قبـل الوصـول إلى النـشوة الجنـسية بقليـل يمكنكم معرفة اقتراب القذف. وبشيء من التدريب يمكنكم التحكم فيه، استغلوا ذلك جيدًا.

عندما انتهى الدرس قام طلابه بالتصفيق. ثم أخرج "سيربييري" بعض النسخ الورقيـة مـن حافظة أوراقه وقام بتوزيعها، قائلًا:

- لمَن يريد التعمق، فإن قائمة المراجـع هـذه بهـا بعـض الدراسـات عـن الحيـاة الجنـسية للذكور والإناث. المؤلفون هم علماء جنس ذوو شهرة عالمية.

بينما كـان "سـيربييري" يرتـب حافظـة أوراقـه كـان الأولاد يحيونـه وهـم خـارجون وهـم لايزالون يعلقون.

عندما جاء دور "مارتا" قالت:

- كان درسًا مفيدًا جدًّا يا أستاذ.

رد الأستاذ:

- هذا يسعدني.

وهي توجه نظرها مع الأستاذ نحو "إلاريا" وصديقتها المنهمكتين في تفحص قائمة المراجـع باهتمام خاص، قالت "مارتا":

- من وجهة نظري، نال الدرس إعجابهما هما أيضًا.

فأجاب الأستاذ مشاركًا:

- كنت آمل ذلك.

ثم اقترب منه "چيبّو" وهمس إليه بشيء من الود والصداقة:

- يا أستاذ قل لهم حضرتك إن لم تفهم إحداهن فأنا أستطيع أن أعطي شروحًا ودروسًا...

فرد الأستاذ عليه:

- أشك أن تلجأ زميلاتك إليك طلبًا لاستشارتك بخصوص هذا الموضوع يا "چيبّو" يا عزيزي.

انتظر التلميذ أستاذه حتى ينتهي من جمع أوراقه وخرجا معًا من الفصل. أمَّا "چورچو" فقد قرأ قائمة المراجع حتى ثبتت في ذهنه، ثم اقترب من مقعد "إرنستو" الذي كان ما زال يجمع كتبه، وقال له:

- كلها نصوص علمية وفي نهاية الأمر من الممكن أن تعود بالنفع، ألا تظن ذلك؟

انتبه "چورچو" إلى أن زميله لم يكن لديه أي ورقة، فقال:

- ألم تأخذ قائمة المراجع؟

فرد "إرنستو":

- ولِمَ لا؟ ها هي.

وبلمحة خاطفة من السخرية، سلم "إرنستو" صديقه مركبة مصنوعة من الورق ووضع حقيبته على ظهره وخرج من قاعة الفصل.

يناير

حذارِ من الفينيثيلامين



بالنسبة للكثير من طلبة "مدرسة مورجانتِه" يُعتبر الفصل الدراسي الثاني جزءًا من مسرحية مأساوية لا بد أن تنتهي بعد بضعة أشهر. كان عشرون يومًا من الإجازة قدرًا كافيًا للتعود على الخمول.

وكما يحدث بالضبط في رواية بوليسية لـ"أجاثا كريستي"، كان الناجون من الفصل الدراسي الأول يرون زملاءهم يختفون واحدًا تلو الآخر. تناقصت أعداد الطلّاب؛ فبالنسبة للمختفين كان موعد انتقالهم إلى مدارس أخرى أكثر كرمًا في درجاتها قد حان.

في ذلك الصباح، رنَّ جرس الصباح منذ أكثر من عشرين دقيقة، لكن "بييرلويچي فلاميني" لم يكن ينوي التحرك. ظل جالسًا على مقعد أمام مكتب ناظر المدرسة يلعب في نظارته "الريبان" ليقيم الوضع، حيث تأكد أثناء الإجازة أن التحرر من عبء واجبات مادة التاريخ والفلسفة يمثِّل حظًا وافرًا، لكن على صعيدٍ آخر، لم يعد يستطيع التحكم في عداوته المكنونة لـ"فيديريكو سيربييري". فذلك الفاشل لم يعجبه منذ أول يوم، ليس فقط لأنه مريض، فبطريقة حديثه الصعبة تلك وبشعره الطويل، بدا كأحد الشباب السابقين

لحركة "68". هو متأكد من أنه كان واحدًا من أولئك الذين قضوا أوقاتهم في إحداث الفوضى في الشوارع عن طريق تعليق اللافتات ومكبِّرات الصوت. وكما لو أن الأمر لم يكن كافيًا، أصبح لذلك المدرس الغريب حضور قوي وأصبح محبوبًا من جانب الأعداء؛ وإفساد الفرحة عليهم كان سيحقق لـ"فلاميني" سعادة غامرة. لم يكن يحتمل أن يكون ذلك الدخيل دائمًا بجوار "چورچو" في دفاعه الذي لا يكل منه عن المنبوذين. وبمجرد إبلاغ الناظر عن الوضع، سيتم مسح اسم ذلك المجنون من كل قوائم مدارس البلد.

ارتسمت ابتسامة رضا على فم "بييرلويچي فلاميني" وهو يتخيل استمتاعه بالأثر الذي سيسببه انتقامه، ارتسمت ابتسامته تلك في الوقت نفسه الذي كان "چيبّو" يعبر الممر فيه بخطوته الواسعة غير المنتظمة. رآه "چيبّو" جالسًا أمام مكتب الناظر وبحدسه الشكوكي أدرك نية "فلاميني". لم يتمكن "بييرلويچي فلاميني" من الهروب بالسرعة الكافية من مخالب "چيبّو"، الذي أمسكه بقبضته الخطيرة، وهو يقول:

- تعالَ يا "فلاميني". تعالَ يا حبيبي معي؛ سوف أطلعك على شيء جميل.

حاول "بييرلويچي" الهرب، لكن قبضة زميله كانت محكمة للغاية حول رقبته وتمنعه من أي حركة، وبهذا نجح "چيبّو" في أن يجر ضحيته التي كانت تقاوم باستماتة نحو حمّام الذكور.

***

كان طلاب فصل 3/2 ينتظرون وصول الأستاذ "سيربييري" الذي تأخَّر على فصله لأول مرة.

شعر بعضهم بالحاجة إلى تحديد موقفهم من الموضوع، وفُتح الجدال دون الحاجة إلى استثارة. توالت الأحداث داخل قاعة الفصل وخارجها، ولم تمر تلك الأحداث دون أن تترك علامة واضحة. وبحلول عطلة عيد الميلاد كانوا قد

حصلوا على الوقت الكافي من أجل التفكير في الشهور المنقضية. كان "بييترو" أول من اعترف بأن مبادئ "سيربييري" لم تمر عليه مرور الكرام وحسب، وفتح "ماركو" إحدى عينيه على هذه الكلمات، وفي ذلك الوقت القليل اكتفى بإضافة: «أتفق مع هذا». أعلنت "چوليا" تأييدها للأستاذ ولأفكاره التقدمية التي لم يفهمها جيدًا الجمع الرجعي المتقهقر من الهيكل الطلابي. ودون أن تغفل "مارتا" المشاجرات المتكررة عند المحامي، أرادت أن تذكر انفصال والديها لتؤكد أن الحب يقود دون محالة إلى التعاسة. وقد شاركها الرأي على الفور أبناء المنفصلين، أي نصف الفصل تقريبًا.

في ذلك الجدال، كان "چورچو" في حيرة من أمره وهو يستمع إلى تصريحات زملائه. كان يؤرقه صراع داخلي. فهو يشعر بالفعل بنوع من العرفان تجاه أستاذه الذي وفَّر له أدوات المعرفة القيمة، لكن أمانته العلمية كانت جزءًا من طبيعته الأكثر عمقًا وهو لم يكن ليخونها أبدًا. تدخل بصوت عالٍ قائلًا:

- ما خطبكم؟ الغرام أمر طبيعي ثم إنه يمكن التحكم به.

- خطأ يا "چورچو" يا عزيزي!

كان "سيربييري" قد دخل وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، وقد حرمه التأخير من ثقته المعتادة بالنفس. وفي عجلة من أمره، وضع متعلقاته الشخصية على مكتبه، وبينما كان يضبط دفتره وحاملة أقلامه، وجد نفسه أمام "ماركو ڤالينتي". ظل مرتبكًا من المفاجأة، لكنه تمالك نفسه، وأسرع يفتح له ذراعيه على آخرهما لاستقباله. وقال:

- يا "ماركو" إنك تقف على قدميك.

لم يره الأستاذ واقفًا من قبل. كان الفتى طويلًا أكثر مما يمكن تخيّله. التقط ذلك المبعوث إلى الحياة صورة "أوديليا" التي سقطت على الأرض أثناء

عجلة "سيربيري"، ووضعها بعناية في مكانها المعتاد، ثم وجَّه إلى المُدرس نظرة حائرة وعاد إلى مكانه، حيث سقط بسرعة نائمًا.

- شكرًا على العون يا صديقي.

عندئذ انطلق الأولاد في تصفيق وبهذه الدفعة التشجيعية من هذا الحدث المدهش بدأ الأستاذ درسه:

- حسنًا، بما أنكم فتحتم المسألة فلنتحدث عنها. الغرام في جزء كبير من تكوينه أمر كيميائي، وعلى كل حال يمكن تحاشيه.

كان الطلاب يتابعونه بأعين مختلفة. لو دخل أي فرد فصل 3/2 في ذلك الصباح لأقسم بأنه أمام درس نظامي لأستاذ طبيعي يشرح درسًا من المنهج الدراسي التقليدي لمجموعة من الطلّاب المهتمين.

استكمل الأستاذ حديثه:

- عرضت عليكم حتى اليوم العواقب المنحوسة للحب، ولكن الوصول إلى هذه الحالة يجبرنا على المرور بالغرام، وقد حان الوقت كي نعرف كيف نتجنب ذلك.

اتجه الأستاذ إلى السبورة وبنوع من الثقة خط ملامح جمجمة يتفرع منها سلسلة من السهام. وبدأ الشرح:

- عندما يغرم المرء تفرز أجهزة جسد الإنسان جزيء الفينيثيلامين الذي إذا وصل لدرجات تركيز عالية يسبب التأثيرات نفسها للأمفيتامين، لدرجة أن كليهما يعمل على مستقبلات المخ ذاتها.

التف "سيربيري" نحو الفصل وبسعادة بالغة اكتشف أن بعضهم كان قد أخرج كشكوله لتدوين الملاحظات.

- هذا الجزيء يؤدي إلى إفراز الدوبامين الذي يسبب الإحساس بالمتعة، وبالتالي، يحدث ميل خطير إلى الرغبة في رؤية الشخص المحبوب لتكرار التجربة المُسكِرة التي يفرزها الفينيثيلامين. ويتأسس بذلك شكل حقيقي للإدمان.

على الفور تقمص "سيربييري" شخصية الطبيب المضطر أن يعلن مرضًا مميتًا.

- لقد حدث الأسوأ بالفعل وأصابت العدوى جسدكم. الدوبامين يثير جزيء الأدرينالين، ناقل عصبي يؤدي إلى الإثارة والنشوة وحماس غير عقلاني وبالإضافة إلى ذلك يتسبب في فقدان الشهية.

توقف نظر "سيربييري" عند جسد "إرنستو" النحيل وفكَّر في أن مرحلة نقاهته ستكون طويلة.

- لا يتوقف الأمر عند ذلك، الحالة العاطفية للشخص المُغرم تحفِّز هورمون الأوكسيتوسين الذي يؤدي إلى حالة الهجوم، وبالتالي الاستسلام التام: إنه الحب.

بدا وكأنه يود أن يعلن لتلاميذه عن انقراض الحياة في الكون.

- لقد دخلتم النفق المظلم، ولكن لحسن الحظ هناك بارقة أمل، ولهذه الحالة من البلادة تم تحديد مدة زمنية تتراوح بين الثمانية أشهر والعام، وبعد ذلك فإن المخ لا يستطيع مقاومة الضغط، ولكن مع كل هذا فإنه وقت كافٍ ليجد الشخص نفسه مرتبطًا بشكل نهائي.

أراد "چورچو" أن يفرض نفسه كي يحد من التعليقات الساخرة، فأعاد ما قاله سابقًا:

- كل هذا لا يمنع أن ذلك يحدث خارج إرادتنا.

رد عليه الأستاذ:

- يا "چورچو" يا عزيزي، يجب عليَّ أن أخالفك الرأي مرة أخرى.

استكمل "سيربييري" بإصرار:

- إن كان من الممكن أن يتحرر الناس من إدمان الهيروين، فإنهم في إمكانهم منع أنفسهم من الوقوع في غرام أحدهم. وقد تم تحديد ثلاثة عناصر للمجازفة فيما يتعلق باحتمالية الظاهرة.

كتب الأستاذ بحروف كبيرة للغاية ثلاث كلمات على السبورة:

"الوضع/ الرائحة/ المظهر".

وقال:

- تدربوا على التحكم في هذه العوامل الثلاثة، وستكون النجاة محتملة لكم.

كان "چورچو" يتابع تحركات "سيربييري" بتقبل خاضع.

أكمل الأستاذ حديثه:

- تجنَّبوا النظر إلى أعين شخص تجدون مظهره جذابًا لكم. الجمال يحفِّز الانتباه، ولكن ما يجب الخوف منه دائمًا قبل أي شيء آخر هو النظرة التي تهدف إلى الوصول إلى القلب.

كان الفصل بأكمله يستمع إلى تعاليم "فيديريكو سيربييري"، وكانت "چوليا" قد خففت من روحها الناقدة، و"إرنستو" يتابع العرض متأملًا، بينما وضعت "مارتا" جهاز تسجيل صغير على المقعد على مرأى من "چورچو" الذي كان منبهرًا.

- في حالة "الوضع" يجب أن نعدد تحركات الشخص والتي تقود إلى الاقتراب، وبالتالي الانجذاب.

أكمل الأستاذ وهو يتابع كيف يوليه الطلاب الأكثر فتورًا الاهتمام:

- الحاسة الأكثر غواية هي حاسة الشم؛ فالبشر من الثدييات منذ بداية التاريخ، والمخلوق منهم يصدر فيرومونات التي تعمل كنداءٍ جنسي وتصيب

جهازنا الحوفي. وهذا سلاح يمكن ببساطة أن نجعله محايدًا، فيكفي مثلًا أن نربط رائحة كريهة بالشخص الذي نراه خطيرًا بشكل من الأشكال.

وهنا ابتسم "سيربييري" ابتسامة انتصار وقال:

- وبالتالي يا "چورچو" يا عزيزي، كما ترى، بمجرد تحديد المشكلة يمكننا إيجاد الحلول. هذه الخطة من الممكن أن تساعدكم.

اقترب من السبورة وكتب من جديد:

"المرض = غرام/ حب/ متعة

الآثار = تبعية/ إحباط/ معاناة

النتيجة = موت الروح/ شلل فكري".

وضع "سيربييري" الطباشير على حافة مكتبه واستأنف حديثه:

- سأعترف لكم يا أولاد بأنه فيما يتعلق بالرائحة جرَّبت أنا شخصيًّا أنه يمكن حماية النفس منها.

قالت "مارتا" التي كانت تهتم بشكل خاص بالتدريبات العملية:

- احكِ لنا حضرتك كيف.

- الأمر بسيط يا "مارتا" يا عزيزتي، إذا حدث والتقيت صدفة بنساء لهن قدر من الجاذبية، أقوم برش طارد الحمام على ملابسهن. تريدون أن تعرفوا النتيجة؟ بدأت على الفور بالشعور بأنهن أقل جاذبية جسديًّا.

ومع جرس المدرسة، عندما كان الأولاد يستعدون للخروج، أخذ الأستاذ وقته كي يرى كيف بقي بعضهم لكي ينقل الخطة المرسومة عن الغرام.

علق "چورچو" بينه ونفسه:

- سترة المجانين للجميع.

وبينما كان خارجًا من قاعة الفصل رأى "مارتا" منحنية تكتب بتركيـز مُقلِـق. ثـم أدرك أن اثنين من زملائه قد فُقدا في هذه الحصة الغريبة.

أغلق "لويچي ريڤولي" باب دورة مياه المدرسة، وقبـضة يـده اليـسرى تمـسك بقـوة رقبـة "بييرلويچي فلاميني"، بعد أن أوضح "چيبّو" لزميله في الفصل متاعب العـيش بأحـد الأطـراف المكسورة.

- سينتهي بك الأمر إلى مستشفى العظام. اعترف بأنك كنـت تريـد الإبـلاغ عنـه إلى نـاظر المدرسة!

- وماذا إن كان ذلك صحيحًا؟

انحصر قلق "بييرلويچي" حتى قبل تلك اللحظة فقط على ياقة القميص المرفوعة.

- أنت كاذب، وخائن، وجبان.. ليس لديك حتى الشجاعة لتقول له الأمر في وجهه.

لم يفكِّر "فلاميني" قط باحتمالية وجود مثل تلك الروح السوداء التي يتمتع بهـا "لـويچي ريڤولي" بين مؤيدي "سيربييري". لذا، وظهره للحائط ويد "چيبّو" تُغلِق على رقبته، وجد نفسه مضطرًا إلى إعادة تقييم الأمر.

حينئذ فكر "بييرلويچي" في أن الطريقة الوحيدة لكي ينجـو بنفـسه هـي اسـتغلال عنـصر العداء المشترك تجاه القواعد.

- اسمعني؛ هل تعرف أن ذلك المجنون يؤمن بضرورة غلق ملاعب كـرة القـدم؟ سـمعت أنه قال ذلك للأستاذة "باليري"، هذا غير حديثه الغريب عـن سياسـة اللاعنـف التـي تحـدث عنها عندما دافعت عن نفسي أمام تلك الحمقاء "چوليا". لو كان الأمر بيـده، لوضـعنا في أحـد الأديرة.

تذكر "چيبّو" تلك المعركة العنيفة التي شارك فيها صديقاه. صحيح أن "چوليـا" تمثِّـل قـوة من قوى الطبيعة، لكنها في آخر الأمر فتاة وجسدها ضئيل الحجم، أمَّا "إرنستو" فهـي معجـزة أنه يستطيع الوقوف على قدميه أساسًا. اعتبر "چيبّو" تصرُّف "بييرلويچي" أمرًا مـشينًا. حدَّجـه بنظرة غير مفهومة.

- معك حق، فهناك أناس ما زالت تزعجنا بكلامهم عن سياسة اللاعنف.

لم يجد "بيرلويچي" الوقت الكافي ليبتهج بهذا التوافق في وجهات النظر؛ فبمجرد أن حصل على حريته، وبدأ في ترتيب قميصه، حتى أصابته ضربة من مسافة قريبة في عظمة الخد الأيسر.

على بعد ممرين، بدأ العديد من الطلاب الاحتشاد بالقرب من قاعة المؤتمرات. وقف "چورچو" وفي يده قائمة الأسماء. بدا كمن فقد أحد كلاب البيتبول المقاتلة. كان "چيبّو" يكره "بيرلويچي فلاميني"، واختفاؤهما الطويل لم يوحِ بأي شيء جيد.

وبينما تدفق الزملاء إلى داخل قاعة المؤتمرات، وهم يدفعون بعضهم البعض ويمزحون، كان "چورچو" لا يزال يأمل في أن يلمح "چيبّو" بينهم، وعندما كاد يفقد الأمل في حضوره، وجده أخيرًا في نهاية الممر.

- يا "چو"، ماذا شرح لكم "سيربييري" في الحصة؟

كان يسأل رافعًا صوته وهو على مسافة مناسبة. اقترب منه صديقه وهو يمر من بين زملائه.

- قل لي إنك لم تضرب "فلاميني".

رد "چيبّو":

- لا أسمعك.

سأله "چورچو":

- ماذا فعلت له؟

علت الضوضاء فطغت على صوت الفتيين. رد "چيبّو"، قائلًا:

- خطرت له فكرة سيئة، فكان علي إقناعه بتركها.

وقبل أن يكمل سيره، لمح "چورچو" عن بعد "بيرلويچي فلاميني" وهو يجري بعيدًا وإحدى يديه على وجهه. توجَّه مجددًا إلى "چيبّو"، وهو على استعداد للومه، لكن رجل الهورون المتمرد كان قد اختفى.

استغرق الطلاب ساعتين في قاعة المؤتمرات بين العديد من المداخلات والمناقشات المشتعلة. في النهاية، كان "چورچو" متعبًا، لكنه كان راضيًا عن النتيجة التي انتهى إليها النقاش. حيث ترك المجلس وهو متأكدٌ من أنه ساهم بما فيه الكفاية. احتلال "مدرسة مورجانتِه" في تلك الفترة سيعطي أثرًا عكسيًّا، فحتى وإن لم يكن الجميع متفقًا على ذلك الرأي، كانت الأغلبية ترجِّح الإدارة الذاتية من الطلاب. كان الفتى فخورًا لاستطاعته إزالة قلقه بخصوص موضوع "سيربييري"، ونجاحه في التركيز على مصير مجتمع بأكمله. كان زملاؤه قد بدأوا يتوهون من هواجسه الكثيرة، لكن في نهاية الأمر، ما قيمة مشكلات فصل واحد أمام مشكلات مدرسة بأكملها؟ وهكذا، بعد أن ترك ممثلي المجلس الآخرين، اتجه "چورچو" نحو محطة الأتوبيس رقم 22 وهو متصالح مع ضميره.

كان يفكر في طريقة لتنظيم أيام الإدارة الذاتية للطلاب؛ فهناك الكثير مما يجب فعله: الأساتذة الذين سيتم إشراكهم، وصندوق المصروفات، ثم إيجاد المكان اللازم لإقامة حفلة لمجموعة "ريد". كان "چورچو جريجور" يرتب عمليات الاحتجاج ولم ينتبه إلى الخطر الوشيك. وقفت الجميلة السمراء من فصل 10/2 في تلك اللحظة منتظرة في محطة الأتوبيس. وعندما دخل "چورچو" في حيز رؤيتها، تحركت الفتاة بحيوية وأخذت تحرك ذراعيها بطاقة عالية كي تلفت انتباهه. رآها "چورچو" ورد على الفور على تحيتها، لكن عندما مد خطوته كي يصل إليها، تذكَّر فجأة النظرة الساحرة التي تتمتع بها تلك الفتاة: كانت عيناها الداكنتان تبحثان عنه دون توقف في المجلس وفي المقهى، وفي الممرات، والآن في محطة الأتوبيس أمام المدرسة.

أصابت "چورچو" حالة غريبة من القلق فتوقف على بعد ثلاثين مترًا من الهدف. ظل لبضع ثوانٍ يقيِّم الموقف، ثم دون أن يفهم السبب، مُتَبِعًا غريزته، وجد نفسه يسير في الطريق المعاكس لها.

فبراير

داء جنوني



كان أسبوعان من النشاط تحت الإدارة الذاتية قد شغلا بشدة اتحاد طلَّاب "مدرسة مورجانتِه"، بالإضافة إلى مجموعة من الأساتذة الذين، في إطار تضامني مع الطلاب، تطوعوا للمساعدة في نجاح المبادرة.

نشأ، بشكل غير مرتب له، برنامج حول المساواة بين الجنسين وآخر حول تقنيات رسم الوشم. كما تمت دعوة والد "مارتا" ليدلي بشهادته عن النشاط السياسي في فترة السبعينيات المليئة بالعنف، وأطلع الشباب على آثار الخياطة الجراحية التي تركتها تلك الفترة على فروة رأسه. وبتألق غير متوقع، اجتهد "بييترو" ليعقد ندوة حول أصول الحشيش وحتى ليرتب في أحد فصول الطابق الأرضي استعدادات فريق "ريد" والفرق الموسيقية الأخرى. كان بعض أولياء الأمور الحريصين على أبنائهم يتابعون تلك الحالة الاحتجاجية للطلاب، ويرسلون لـ"مدرسة مورجانتِه" المخبوزات وطواجن البطاطس مرتين يوميًّا.

انسحب الناظر عن طيب خاطر تاركًا أرض المعركة للمحتجين، أمَّا الأستاذ "سيربيبيري" فقد بدا جزءًا من تقديم مهاراته في ظل طقوس البهجة تلك التي كانت تأخذ طابع الاستمرارية من عام لآخر، خاصة مع موجات البرد الأخيرة.

بطبيعة الحال تمت دعوة الأستاذ لإقامة برنامج محاضرات على طريقته، وأخبر "چورچو جريجور" بعنوانه: «الحب وألغاز أخرى». وعلى الفور، وبالاتفاق مع حلفاء "سيربييري"، قرر التلميذ أن الكلمة «حب» يجب ألا تتخطى بأي حال من الأحوال جدران فصل 3/2 وأقنع الأستاذ بتغيير العنوان إلى آخر أقل إضرارًا: «الحركات الچاكوبية في بييمونتِه».

لاقت محاضرة "فيديريكو سيربييري" شعبية كبيرة، حيث امتلأت قاعة المؤتمرات عن آخرها بالطلاب وبعض أولياء الأمور والزملاء، وأيضًا اثنين من عاملي المدرسة. انتهت المحاضرة بالتصفيق ذاته الذي يتلقاه مغني الأوبرا عند مطلع السلم الموسيقي. كان الجميع يشعرون بالحماس عندما اقترب أحد طلاب 1/3 من "چورچو"، الذي كان يشهد نجاح أستاذه بقلب قلق، من إحدى زوايا القاعة. قال له ذلك الطالب:

- محظوظون أنتم بوجود "سيربييري" معكم؛ فقد قالت "كِيارا" لي إن حصصه في الفصل تكون مثل المحاضرات الجامعية.

شد "چورچو" على شفتيه في تكشيرة مُرة، فهو لم يستطع أن يفهم السر وراء اعتبار الآخرين "سيربييري" ذا قيمة يُستفاد منها، في حين أنه لا يستطيع استغلال هذه القيمة، وهو ما أصابه بالإحباط. فرد على الطالب قائلًا:

- نعم، تقريبًا.

عاود الطالب مرة أخرى حديثه:

- حقًّا، فقد كانت تحكي لي أنه يشرح لكم "هيجل"...

- معذرةً، ولكن عليَّ أن أساعد "بييترو" من أجل الحفلة الموسيقية، سوف نلتقي ثانيةً.

هكذا انطلق تاركًا المتحدث في منتصف جملته، وبينما كان يخطو خطوات سريعة نحو باب الخروج، رأى "سيربييري" على بعد يرفع يده ليحييه. لم يرد "چورچو" له التحية وحوَّل نظره إلى ناحية أخرى وترك قاعة المؤتمرات قبل الجميع.

انتهت الإدارة الذاتية لـ"مدرسة مورجانتِه" في صباح شديد البرودة لذلك الطقس الغريب، تزامنًا مع اليوم الأكثر رومانسية في العام كله. وخارج المدرسة، بينما كان الطلاب يكرسون أنفسهم لنظافة قاعات الفصول، كانت الواجهات الزجاجية للمحلات تعرض قصاصات القلوب وأشرطة لفافات الهدايا، وجزء كبير من المطاعم يعد الطاولات لشخصين بوضع الشموع المعطَّرة. بينما تعمل مصانع الشيكولاتة بهمة.

في بعض الأماكن، كان يتم النظر إلى غير المرتبطين بشيء من الشفقة. وصل 14 من ذلك الشهر في موعده وبالنسبة للكثيرين كان من الصعب تجاهله.

واجهت "تشيتشيليا" صدمة الاحتفال بعيد بالحب بقبولها دعوة على الغذاء من "ليڤيا"، وفي الوقت نفسه تلقَّى "إرنستو" اتصالًا من "چورچو". كانت والدته تضحك وتأكل بتذوق وهي تخطط لرحلة إلى إسطنبول بصحبة أصدقائها. كانت "تشيتشيليا باسّاني" تقبل على الحياة من جديد.

"إرنستو" كذلك دبَّت فيه الحياة بحماس جديد، حيث بدأ يقرأ من جديد ويهتم بزملائه الذين كانوا في حاجة إلى أي مساعدة، كما قرر أن يستعيد اهتماماته، ففترة مرضه الطويلة وضعته في حجرٍ صحي.

في ظهيرة ذلك اليوم، عاد إلى المنزل وفي يده الحلوى ومعنوياته مرتفعة، لكن بمجرد أن وصل لمدخل البيت أحس بشيء ما يقلقه. فوالدته قررت الذهاب إلى الكوافير أخيرًا بعد أسابيع من التردد، إذًا فمن هذا الذي يتحرك في الصالة. بعد أن تخلص من قلقه، ووضع تورتة التفاح على الدولاب بجانب الباب، التقط إحدى الشمسيات، ورفعها أمامه كأنها سلاح، ثم اقتحم الصالة. وجد رجلًا في

الخمسين من عمره تقريبًا يتمتع بفخذين مثل أفخاذ المحاربين. فزع الرجل حينما رأى "إرنستو"، الذي قال له:

- "كارلو"! ماذا تفعل هنا؟

رد عليه:

- يا إلهي! "إرنستو"! ضع هذا الشيء جانبًا.

ترك الفتى ذلك السلاح الذي اصطنعه، ثم قضى الثواني التالية في دراسة الرفيق السابق لوالدته. كان شعر "كارلو" أقصر عن ذي قبل، وقد ترك لحيته تنمو بعناية واهتمام. قميصه مكويٌّ ويرتدي فوقه معطفًا أزرق. بدا شبيهًا بـ"فيديريكو سيربييري". فكَّر "إرنستو" أنه في هذا العالم يوجد أيضًا رجال قبيحو الوجه، لكنه متأكدٌ من أن انفصال "كارلو" عن والدته عاد بالنفع بكل طريقة ممكنة على مظهره.

بدا "كارلو" في حالة جيدة وهو يتحرك في الصالة على راحته. كان هناك صف من القشر البرتقالي في أحد الأطباق الصغيرة يبين أكله لليوسفي، وهو ما أغضب "إرنستو"؛ فقال:

- كيف دخلت؟

رد "كارلو" محاولًا احتضان "إرنستو":

- فلنحيّ بعضنا أولًا، أليس كذلك؟

لم يتحرك "إرنستو" ليحضنه. فأكمل "كارلو" رده:

- "تشيتشيليا" تعرف بأني سأمر. جئت لأعيد مفاتيح المنزل ولآخذ أشيائي، لكنني لا أستطيع أن أجدها. وكيف حال والدتك؟

كان سؤال "كارلو" الأخير نوعًا من تأدية الواجب. فرد عليه "إرنستو":

- حاول أن تتخيل.

لم يرغب الرجل في الخضوع لمحاولة الاستدراج غير المجدية هذه:

- اسمع. لا أجد كتبي. هل تعرف بالمناسبة أين وضعتها؟

لم يعرف شريك حياة والدته السابق الجانب المظلم لشخصية الفتى، كان "إرنستو" يظن أنه قد حانت اللحظة كي يطلعه عليه، فرد قائلًا:

- ماما تخلصت منها كلها.

شحب وجه "كارلو" وقال:

- هل تخلصت أيضًا من مجموعة "تيكس"؟

رد "إرنستو":

- هذه المجموعة انتهى الأمر بها إلى سجن "ريبيبيا".

عندئذ بدأ "كارلو" يشك أن "تشيتشيليا" قابلت فراقه بجرعة جيدة من الأحاسيس؛ ثم إن ابنها بدا معاديًا له بشكل خاص. لم يحب "كارلو" الأطفال قط، وخاصة المراهقين، لكنه عندما وقع في غرام "تشيتشيليا"، قرر أن يضع تلك العاطفة جانبًا، وتقبَّل وجود ابنها "إرنستو".

وجَّه "إرنستو" عبارة جافة لـ"كارلو":

- عندما تنتهي، ضع المفاتيح على الطاولة. مع السلامة.

استوقفه "كارلو":

- انتظر لحظة، أود الحديث إليك.

لم تكن لدى "إرنستو" أي رغبة في الاستماع إليه، لكنَّ شيئًا من الفضول جعله يبقى على الكنبة. وقال:

- اتفقنا. ولكن اعلم أنه لديَّ الكثير من المذاكرة.

قال "كارلو":

- فقط كلمتان.

ابتسم "كارلو" ابتسامة أبوية - وهو أمر جديد إلى حد كبير على الرغم من أنهما قضيا عشر سنوات تحت سقف واحد – ثم استراح على مقعد الكنبة المقابل لـ"إرنستو". قال مضطربًا:

- لا تظن أن تركي لوالدتك كان سهلًا عليَّ.

لم يكن "إرنستو" يرغب في سماع تبريرات مملة لا طائل منها بخصوص ما حدث، فبدأت ركبته في الاهتزاز بإيقاع يزداد سرعة.

استكمل "كارلو" حديثه:

- حسنًا. أنت سمعت هذا الكلام من قبل، ولكننا كنا بالفعل في أزمة في علاقتنا، هل تعرف إننا لم نكن نمارس الحب؟

أوقف "إرنستو" تلك الحركة العصبية. وقال:

- هل تعني أنك كنت تخونها مع أخرى ولم تقل لها شيئًا؟

رد "كارلو":

- من الأفضل أن تستمر في عدم معرفة شيء، ففي كل الأحول ما الذي يمكن أن يتغير؟

شعر "إرنستو" حينئذٍ بحالة من السخط تزداد بداخله. كان على وشك الانفجار. قال:

- أهنئكَ على صراحتك، لكن كان لأمي الحق في إعطائها تفسيرًا لما حدث، بعد أن أضاعت عشر سنوات من عمرها معك.

- وما الذي يستدعي التفسير؟ لم أعد أحبها، وهذا كل شيء؛ ثم إن "مونيكا" ليس لها دخل في مشكلاتي.

- بالتأكيد، لكنك حزمت حقائبك فقط عندما قابلت "مونيكا". أم أنني مخطئ؟

لم يجب "كارلو" سؤاله. أخذ "إرنستو" يحدق فيه متقززًا، كما لو كان جرذًا خرج من بالوعة المجاري.

- اسمعني؛ فأنت ما زلت صغيرًا جدًّا حتى تعرف كم هو صعب إدارة علاقة بين اثنين مرتبطين. اعلم أنه في علاقة...

قاطعه "إرنستو":

- اسمع، هذه شؤونك أنت، مع السلامة.

كان الوقت الذي سمح به "إرنستو" قد انتهى. كانت الجرذان دائمًا تصيبه بالاشمئزاز، ثم إن رؤيتها تتكاثر في لحظات حميمية كانت شيئًا غير مقبول بالنسبة له. وبالتالي انتفض من مكانه فجأة معلنًا انتهاء جلسة الاعتراف.

- لا بأس يا فتى، فعلى كل حال أعرف أنني لم أعجبك قط. لكن على الأقل هل ممكن أن تقول لي أين أخفت والدتك قناعي الذي ينتمي إلى جزيرة "بالي"؟

كان لهذا السؤال كصانع معجزات على روح "إرنستو"؛ لأنه اكتشف متعة حقيقية أنه يمكنه أن يختم تلك المحادثة المملة بمفاجآت. وقال:

- أهدته ماما لأحدهم.

- هل تمزح؟

- لا، أبدًا.

ضاق جفنا "كارلو" وذلك الغضب الذي كان يحاول أن يحتويه غيَّر من مظهره. بدأ ينفعل، ولم يعد قميصه مكويًّا كما كان من قبل، وتصبب عرقًا؛ قال:

- لمن أهدته؟

- لـ"چيبّو".

انتفخت شرايينه غضبًا، واحمرَّ وجهه قائلًا:

- أعطت قناعي الذي أحضرته من جزيرة "بالي" إلى.. إلى ذلك البلطجي؟ سيظن أن "بـالي" أحد لاعبي نادي روما.

فجأة ضرب شخص ما جرس باب المنـزل فتوجَّـه "إرنـستو" بخطـوات هادئـة نحـو البـاب وقال:

- أنت محظوظ، من المفترض أن يكـون الطـارق "چيبّـو"، حـاوِل أن تطلـب منـه أن يـرده إليك.

لم يكن "كارلو" يتوقع رؤيـة "چيبّـو" وجهًـا لوجـه، لكـن "لـويچي ريڤـولي" دخـل الـصالة بالفعل وبإحدى يديه زجاجتا بيرة وباليد الأخرى كتاب اللاتيني. كان قد دخـل مبتـسمًا، لكـن بمجرد أن وجد أمامه "كارلو"، اختفت ابتسامته، ونظر إلى "إرنستو"، قائلًا:

- ما هذا، هل عاد؟

شرح له بتلقائية وبراءة:

- لقد جاء "كارلو" فقط لكي يأخذ أشياءه. هل تعرف القنـاع الـذي أهـدتك إيـاه أمـي؛ في الواقع.. كان قناعه.

تعلَّق "چيبّو" بذلك الشيء المشترك بينهما تعلقًا مرضيًّا، فجاء رد فعله كـما لـو أن أحـدهم يحاول أن ينتزع عن رأسه خصل الشعر التي تشبه عرف الديك. لذا فقد وضع زجاجتي البـيرة على الطاولة، وأخذ يحدق في "كارلو" بتعبير لا يبعث كثيرًا على الطمأنينة. قال:

- قناعي؟

اقترب منه "چيبّو" حتى أصبح على بعد سنتيمترات قليلة مـن وجهـه، فتـسللت إلى أنـف "كارلو" رائحة فوّاحة للنيكوتين والدجاج الكاتشاتورا والتيستوستيرون. قال لـ"كارلو":

- أعطتني إياه والدة "إرنستو" وهو بحـالٍ أفـضل مـما كـان عليـه. إن كنـت تـود أن تـأتي لرؤيته من حينٍ لآخر...

عندئذٍ أعطاه "چيبّو" كارت المطعم، وعلى الفور وضعه "كارلو" في جيبه، ثم قال:

- آه.. إذا كانت قد أهدتك إياه ماذا يمكنني أن أقول...؟

علّق "چيبّو" في الختام:

- لا شيء.

اقتنع "كارلو" إلى حدٍ ما بسرعة أن قناعًا من "بالي" حتى وإن كـان قـيمًا لم يكـن يـستحق ثمن علاج عند طبيب الأسنان. ترك مفاتيح المنزل على الطاولة ثم جمع القليل من كتبـه التـي نجت من "تشيتشيليا" وانطلق نحو الباب. وقال:

- إذًا أنا ذاهب، سعدت برؤيتكما. سلام.

راقبه "إرنستو" وهو متجه إلى مـدخل البيـت. فجـأةً، وبـشكل غـير متوقـع، قـال "چيبّـو" بحنان أظهر قلبه الطيِّب:

- لقد صرت أعتز بذلك القناع.

رد "إرنستو":

- أعرف ذلك.

- ربما أيضًا "كوشِّيتُّونِه" كان يعتز به.

- لا. هو؟ لا. ثق في كلامي.

كانت تلك الكلمات القليلة كافية كي تزيل شكوك "چيبّو"، ثم طرد "إرنستو" "كارلو" من أفكاره وأخذ كتاب اللاتيني من يدي "چيبّو" وبدأ الدرس.

***

في تلك الليلة ذاتها، قاطع الصمت الذي خيَّم على منزل "سيربييري" اتصال تليفوني. كانت الساعة قد تخطت منتصف الليل، لكن "دورينا" لم تكن من النوع الذي يضع أمامه مشكلة الخلق الحسن. فأول ما فكرت الزوجة السابقة في فعله، هو إخباره بخبرٍ وضع الأستاذ في محنة، لكن الخبر الثاني أعاده بسرعة إلى الحياة. حيث قضت "أوديليا" يومًا كاملًا رافضةً للطعام. كانت الطفلة تقضي العديد من الوقت أمام نشرات الأخبار التليفزيونية واكتشفت الإضراب عن الطعام كأحد أشكال الاعتراض. سبب الاعتراض، هو أن أمها ألحقتها بإحدى الحضانات الخاصة التي تديرها واحدة من معارفها. كانت "دورينا" تحل المشكلات التي تواجهها بإلقائها على غيرها، وهكذا أخبرت الأستاذ بأن "أوديليا" ستصل روما في قطار الساعة الثانية بصحبة آخر مربية تم تعيينها لها.

توتر الأستاذ كثيرًا بسبب الحدث غير العادي؛ فالوقت المتاح له قليل. كان عليه تحمية الكلب وترتيب المنزل وإعداد غرفة "أوديليا" وأن يأخذ إذنًا لمدة يوم من المدرسة.

البهجة التي شعر بها للقاء ابنته، جعلته مستقيظًا لفترة طويلة من الليل ثم نهض في السادسة صباحًا، وبعد أن ارتدى ملابسه على عجلة من أمره، توجَّه إلى بائع الزهور، ليشتري زهور المارجيريتا الصفراء، وهو اللون المفضل لطفلته. في النهاية قضى النهار بأكمله في جعل المنزل مكانًا أكثر تأهيلًا لاستقبالها. وفي الساعة المحددة، وضع الطوق حول رقبة "فلاك" وخرج متجهًا إلى محطة القطار، حيث وصل – كما كان متوقعًا – قبل وصول القطار بخمس دقائق.

دخل القطار إلى المحطة في موعده المحدد. نزلت منه طفلة هزيلة شقراء في الخامسة من عمرها بصحبة فتاة يميل لون بشرتها إلى الاحمرار وجسدها ممتلئ يبدو عليه القوة. وبمجرد أن رأت "أوديليا" والدها على رصيف القطار، جرت لتحتضنه، وهي تقول:

- بابا، بابا.

كانت الطفلة تشد على ساقي والدها بقوة لدرجة تمنعه من الحركة.

- حبيبة بابا. لا أصدق أنكِ هنا.

كان الأستاذ يداعب رأسها متأثرًا. ثم ابتعدت "أوديليا" عن والدها وقبضت بيديها على فم الكلب، ثم بدأت تقبله أمام نظرة المربية الحائرة.

- كم كبرت يا "فلاك"!

حمل الأستاذ طفلته بين ذراعيه، مذهولًا من السعادة، أخذ يحتضنها بشدة كما لو كان يتأكد من أنها حقيقة. استنشق رائحتها التي لم تتغير منذ أن كانت طفلة رضيعة يحاولون فطامها، عندما كانت "دورينا" تترك له زجاجة الرضاعة في يده وتختفي حيث لا يعلم أحد أين.

ربما بسبب هذا التغيير العاطفي، لم يلحظ "سيربييري" نظرة الشابة الأوكرانية. سلّمَت "ماريكا" باليد على والد "أوديليا" وابتسم الأستاذ لها، بينما شعر وكأنه يسلِّم على أحد المصارعين.

قالت "ماريكا":

- شكرًا على العطر الباهظ.

رد "سيربييري":

- لا عليكِ، أرجو أن تكون رائحته تتفق مع ذوق حضرتك.

- سأضعه دائمًا.

ذهبوا إلى أحد المطعام الجيدة. هناك أكلت الطفلة كمية توازي طعام طفلين زائدي الوزن في السابعة من العمر. أمَّا المربية، فعلى الرغم من جسدها الممتلئ، بدا عليها قلة شهية غريبة. كانت تختلس النظرات للأستاذ باستمرار محاولة دراسة حركاته. بعد الغداء انطلقوا نحو المنزل، وأثناء رحلتهم بالسيارة، انتشرت الرائحة النفَّاذة لـ"شانيل" رقم 5، التي ظلت الفتاة القوية ترشها على نفسها باستمرار.

لكن ما حدث أثناء الليل كان أفظع مما يمكن تخيله.

بعد أن قضت الطفلة فترة الظهيرة في اللعب، قامت بتحية والدتها عبر التليفون، ثم وضعها الأستاذ على السرير وقص عليها بعض الأساطير الإغريقية. غلب النعاس "أوديليا" تقريبًا على الفور في حضن "فلاك". أطفأ "سيربييري" النور وذهب إلى غرفته بصحبته رواية لـ"كونراد". لم يشعر بسعادة غامرة كهذه منذ فترة. كان يخطط لتقديم ابنته في أقرب فرصة إلى طلاب 3/2 وسقط في نُعاسٍ عذبٍ.

كانت الساعة الثالثة صباحًا تقريبًا عندما حل محل نشوة السعادة تلك كابوسًا تجسَّد في ملامح فتاة سمينة أوكرانية. كانت "ماريكا" ترتدي قميص نوم شفَّافًا، وبثقة كاملة، استمدتها من هديته البريئة التي تمثلت في شكل عطر، اتجهت إلى سرير "سيربييري". ألقت جليسة الأطفال جسدها بكل ثقله على الأستاذ، وصرخت:

- احتضنِّي!

استقيظ الأستاذ هلعًا وهو على وشك الاختناق. لم يستطع أن يكتم صرخة خوف هربت من شفتيه، ففزعت الفتاة بدورها وصرخت هي أيضًا، لكن فقط من الدهشة. كل هذه الضجة أيقظت "أوديليا" التي أخذت تبكي، واشترك

"فلاك" أيضًا في ذلك الكورال بعواء لا يتوقف؛ وفجأة أخذ ذلك المنزل الهادئ يـدوي بأصـوات يائسة.

على الرغم من أنه كان منزعجًا من الليلة السابقة، فإن"فيديريكو سيربييري" قام بواجباته الأبوية في الصباح التالي على أكمل وجه. فأول ليلة لابنته في المنزل لم تكن هادئة، وكـان آسـفًا لذلك كثيرًا. لم تخرج "ماريكا" من غرفتها. فهم الأستاذ أن اختفاء الفتـاة إضـافة إلى الـصرخات الليلية، خلق عند الطفلة نوعًا من الخوف.

قال "سيربييري" وهو يلبس طفلته المعطف الصغير.

- لقد رأت "ماريكا" كابوسًا الليلة السابقة. هل تودين معرفة الشيء الغريب حقًّا؟ حـدث الشيء نفسه معي، والآن من الأفضل أن نتركها لتستريح.

بدت "أوديليا" راضية بهذه الرواية الخيالية وتمنت ليالٍ أقل توترًا في المستقبل.

بعد مسافة قصيرة بالسيارة، عبر الأب وابنته بوَّابة تؤدي إلى حديقـة تبـدو عليهـا مظـاهر العناية الفائقة، وبها تقسيمات نباتية وزهور الردندرة، والمقاعد المنتـشرة في ممـرات مفروشـة بالحصى. للوهلة الأولى بدا المكـان كعيـادة رفيعـة المـستوى، أو كإحـدى دور رعايـة الأمـراض العصبية، لكن، في الواقع وعلى عكس أي مظهر خارجي، كانت حضانة أطفال.

بعض العـاملات الـلاتي يرتـدين زيّ المربيـات كـن يلهـثن مـن الجـري وراء مـا يقـرب مـن العشرين طفلًا، وعلى بعد بضعة أمتار، كانـت إحـداهن تـوبِّخ طفـلًا صـغيرًا لا يتعـدى عمـره الأعوام الثلاثة؛ كان قد تسبب في اتِّساخ مريلته. من السهل جدًّا التكهن بأنه لم يكن مـسموحًا للأطفال أن يوسخوا أنفسهم وملابسهم، وبالتالي لم يكن مسموحًا لهم أن يكونوا على احتكـاك مباشر بالطبيعة حولهم.

بدأت شفَّة "أوديليا" الـسفلى تـرتعش، فكانـت الطفلـة عـلى وشـك أن تنفجـر في البكـاء. توجَّهت إلى والدها، وبنبرة متوسلة قالت:

- هذا المكان لا يعجبني.

- أعرف يا حبيبتي؛ لكن لا تقلقي. لن أترككِ هنا طويلًا؛ أعدك بذلك.

وهكذا، مسحت الطفلة دموعها، ثم قبَّلت والدها مضطرةً إلى قبول وجودها في ذلك المكان الأليم.

ترك "سيربييري" وراءه "أوديليا" وهي هادئة، لكن غير مستسلمة.

قاد سيارته متجهًا إلى "مدرسة مورجانتِه" مفكرًا في ذلك الحادث المزعج لليلة السابقة. هناك مشكلة أخلاقية تتمثل في العيش تحت سقف واحد مع "ماريكا"، وهو ما يعني عدم النوم مطلقًا. لكن ترك الفتاة لمواجهة قدرها وحدها، بعد أن جعلها تنتقل من "ميلانو"، ظل حلًا غير مقبول.

عندما دخل الأستاذ فصل 3/2 بهالات سوداء واضحة تحت عينيه وعلامات العذاب على وجهه، أصابت الحيرة الطلاب بسبب آثار المعاناة الواضحة عليه، لكنه مع هذا بدا مطمئنًا.

وضع الأستاذ أشياءه على مكتبه وفتح الدرج الموجود في منتصفه. بداخله وجد العديد من الأوقية الذكرية المبعثرة وورقة صغيرة مكتوب عليها: «من أجل "سيربييري" عندما يكون عندة برد في رأسه». وبدهشة خفيفة عبست جبهته ثم أطلع الفصل كاملًا على ما وجده بدرج مكتبه، ثم توجه إلى "بييرلويچي" الذي كان يقهقه خلسة وهو يوجه النظرات الغرامية إلى "إلاريا" وقال له:

- هناك ملاحظة واحدة يا "فلاميني"؛ فكلمة "عنده" تُكتب بالهاء وليس التاء المربوطة[7]. وأنت هنا كتبت عبارة بسيطة كلها خارج السياق. فاحذر المرة القادمة؛ فالاستخدام الصحيح لقواعد اللغة مهم.

---

(7)- الفعل avere في التصريف في زمن المضارع مع الضمير هو يحتاج أن يكتب بحرف h، فيكون ha، أما الطالب فقد أخطأ وكتبه a فقط دون حرف الـ h.

ألقى جميع من بالفصل بنظرات اللوم على "بييرلويچي"، الذي بدا أنه لم يفهم معنى تلك الكلمات التي قالها أستاذه وحوَّلته من ضحية إلى مهاجمٍ لاذع.

استأنف "سيربييري" بِوُدٍّ:

- على أي حال، شكرًا على الهدية غير المتوقعة، وشكر خاص نيابة عن زملائك، عند انتهاء الحصة، مَن أراد منكم الحصول على أحدث وسائل الوقاية من الأمراض التي تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي، فليأتِ. شكرًا لمساعدتك في مادتنا.

أمِلَ "بييرلويچي فلاميني" في رد فعل مناسب لإهانته. فكان يريد أن يرى على وجه "سيربييري" شعورًا سلبيًّا، مثل: الغضب، أو العار، أو الضيق، أو على الأقل الحيرة، لكن خابت توقعاته وآماله.

همس "چيبّو" لـ"بييترو" قائلًا:

- كم من الوقت يحتاجه ذلك الأبْلَه ليفهم أن "سيربييري" ليس كالآخرين؟

رد "بييترو" عليه:

- لن يستطيع أن يصل بفهمه إلى ذلك المستوى؛ إنه أحمق جدًّا.

اعتبر"فيديريكو سيربييري" أن هذه الواقعة قد انتهى أمرها، على عكس "بييرلويچي"، الذي ظل غاضبًا، فنهض من مكانه مغادرًا الفصل. لم يهتم الأستاذ لذلك، فهو لديه الكثير من الأحداث ذات الأهمية الكبيرة التي سيخبر طلابه عنها؛ بدأ حديثه قائلًا:

- يا شباب، بالأمس حدث لي أمر غير عادي.

أخذ حامل الصور ورفع صورة "أوديليا" حتى يستطيع الجميع رؤيتها، ثم مبتهجًا – مثل أحد مدمني المشروبات الكحولية الذي يعلن عن آخر زجاجة له – وضع الصورة مجددًا في درج مكتبه، وقال:

- لقد عادت ابنتي.

همس "چيبّو" في أذن "چورچو"، قائلًا:

- "چو"، هل قتل زوجته؟

ضحك "چورچو" ورد قائلًا:

- آه، مع ذلك الطبيب الذي يذهب إليه.. من الممكن أن يحدث أي شيء.

أصبح الأستاذ مركزًا لاحتفالية حقيقية، وبدفعة من التشجيع الحافل بالحرارة، قص على تلاميذه المغامرة البائسة مع جليسة الأطفال. وبإعطائهم تقريرًا عمًّا حدث معه بقلق كبير، فجَّر داخل المستمعين ضحكات طويلة لا يمكن كتمها، لكن لم يعلق أحدهم بأي تعليقٍ غير لائق. ظل "چيبّو" متأثرًا بالتفوق الجنسي لـ"ماريكا"، ووعد "سيربييري" بأن يجد لها وظيفة في أحد مطابخ المطعم.

قال "سيربييري":

- إنها المرة الثانية التي تأتي فيها لتنجدني يا "لويچي" يا عزيزي. كيف يمكنني رد جميلك بعد ذلك؟

- حضرتك تقوم بذلك بالفعل. فأنا لم أعرف شيئًا عن الحب قبل أن أقابل حضرتك.

بعد هذه المهمة التطوعية. شعر "إرنستو" بالأسف تجاه صديقه "چورچو"، بسبب العزلة الذي سيطرت على صديق طفولته؛ وعندئذٍ أخذ القلم وكتب على ورقة صغيرة، ثم مررها عبر "سارة" و"چوليا" و"ميكيلِه" و"لورينزو" حتى وصلت إلى مقعد "چورچو".

"لا تحزن، فأنت تعرف أن "چيبّو" على استعداد للتحول إلى نظام الطعام النباتي من أجل النساء. تذكر أنك لست وحدك".

التفت "چورچو" وابتسم ممتنًا، ثم كتب سطور قليلة للرد على الورقة ذاتها التي عادت إلى الخلف عبر "ميكيلِه" و"لورينزو" و"چوليا" و"سارة" حتى وصلت إلى يدي "إرنستو" الذي قرأ الآتي:

"نعم، لكن لماذا إذًا أشعر بأنني الوحيد العاقل في مستشفى المجانين هذا؟".

في الوقت نفسه، جلس الأستاذ على مكتبه وأخذ يرتب مجموعة اختبارات واجب فصل 6/3. ابتسم ابتسامته المشجعة المعتادة، قائلًا:

- إذًا يا أولاد فلنتحدث عن موضوعنا اليوم.

نهضت "مارتا" وفي قبضة يدها حزمة من الأوراق المكتوبة على الآلة الكاتبة وضعتها على المكتب بالضبط أمام الأستاذ. وقالت له:

- لقد قمت ببحث ببليوجرافي حول درس اليوم وقمت بتصويره للجميع.

- شكرًا يا عزيزتي. سنرى.

أخذ "سيربييري" الأوراق وأخذ يتصفحها بعناية وهو يقرأ في ذهنه العناوين. ثم قال:

- دراسات مهمة. عمل رائع. أحسنتِ؛ أنتِ أحد أعمدة هذا الفصل يا "مارتا". شكرًا بالنيابة عن الجميع.

لم يكن هناك شيء بإمكانه أن يشعر قلب "مارتا" بالدفء أكثر من أن تكرس نفسها من أجل الآخرين، وكان الأستاذ ينجح دائمًا في أن يجعلها تشعر بأنه لا غنى عنها.

ألقى "فيديريكو سيربييري" نظرة عامة شاملة على الفصل بأكمله ورأى نظرات منتبهة مستعدة للاستسلام لدروسه بكل ثقة. وبكل رضا عن الوضع اعتقد أن تلك الحصص ستنقذ مصائر كثيرين؛ فكم من زملائه كان بوسعه قول الشيء نفسه؟

وبينما هو يمحو آثار الدرس السابق على السبورة، صرَّح "سيربييري" قائلًا:

- الآن سنستطلع إحدى التبعات الوخيمة التي لها علاقة بحالة الغرام.

ثم التف إلى الطلاب محدقًا فيهم بجدية، واستكمل حديثه:

- "الشبح ذو العينين الخضراوين الذي يحتقر الطعام الذي يأكله"، هكذا وصفها شكسبير. هذه الظاهرة حسب الإحصائيات تسبب مئات الحالات من الموتى كل عام في بلدنا وفي أماكن أخرى، تصيب الشمال والجنوب، في الدول الإسكندنافية وفي إيران؛ فتأثيرها لا يعرف الحدود، ينفجر فجأة ولا يترك مفرًا، وربما تكون الهدية الأكثر لعنة للحب.

أخذ الأستاذ الطباشير بيده وكتب:

خوف/شك/قلق/مراقبة/أرق/

عدوانية/عدم ثقة/تدني احترام الذات = غيرة.

استأنف الأستاذ حديثه قائلًا:

- هل يستطيع أحدكم أن يعطي معاني إيجابية لهذه السلسلة من الكلمات؟ حسنًا يا أولاد إن الغيرة تشملهم كلهم في مجموع السلبية، ويحتِّم عليَّ الواجب، أن أعطي المعلومة كاملة، أن أضيف كلمة أكثر بشاعة وهي؛ دماء.

حلت الكآبة على الفصل بأكمله. لم يكن هناك طالب واحد لم يتذكر حلقات دموية من الحوادث، كما أن نبرة الأستاذ الكئيبة زادت من جدية الدرس.

- الداء الجنوني يتولد من فكرة وجود علاقة بين اثنين يبحثان فيها عن الاندماج، وبالتالي الانتماء. لن يشعر المغرم بنفسه مكتملة دون أن يعتبر الآخر يومًا ما، بشكل لا يمكن تجنبه، أحد ممتلكاته مثل كتاب أو سيارة.

كانت "مارتا" تحاول دائمًا المشاركة بنشاط في حصص مرشدها، وقالت:

- لكن ربما.. الغيرة مرتبطة بالجهل. ألا تعتقد ذلك يا أستاذ؟

نظر الأستاذ إليها بشيء من الحنية ثم ضحك، وقال:

- عزيزتي "مارتا"، للأسف هنا الأمر ليس له علاقة بالثقافة أو بالناحية النفسية، وليست هناك فروق بين الشعوب اللاتينية أو الآسيوية أو المتحدثة بالإنجليزية. إنه الحب هو الذي يولِّد هذا الداء، مثل السرطان الذي يولِّد أورامًا خبيثة، وهذا لأنه – تذكروا ذلك جيدًا – لا يمكن أن يوجد حب وتبعية غرامية دون غيرة.

بدأ الأستاذ جولته المعتادة في قاعة الفصل ليتجول بنظره بين المقاعد؛ ثم قال:

- يا أولاد، أرجو أن تكون الفكرة قد أصبحت واضحة لكم؛ لن يستطيع أحد الحصول على الحب والسعادة معًا.

عندئذٍ بدأ بنوعٍ من الإصرار ينظر إلى "چورچو" ثم إلى "إرنستو".

استأنف حديثه:

- فلنعد إلى الغيرة، تخيلوا التأثير حاد السلبية الذي تتمتع به في الصداقة، وهذا النوع الوحيد من الشعور بالغيرة الذي يحمل حميمية صحية وواقعية مثمرة على وجه الخصوص.

ألقى الأستاذ نظرة طويلة تلميحية لصديقي الطفولة. ثم استكمل حديثه:

- الغيرة هي القوة الوحيدة القادرة على تفريقكم عن صديقكم وأخيكم وزميلكم في الألعاب. فالشخص الذي أعطيتموه الثقة دائمًا سيتحول إلى كائن غادر وغريم وعدو يجب محاربته، وكل هذا لأنكم ستنظرون له بـ"أعين خضراء".

ثم عاد الأستاذ إلى مكتبه، وقال:

- أنصحكم بقراءة "عطيل" وهي المأساة التي كُتبت منذ قرون، ولكنها تظل عصرية. وستجدون فيها كل الإجابات الممكنة عن سؤال وحيد: "كيف ينجو المرء من هذه القوة المحطمة؟"، بكل بساطة: ابتعدوا عن الحب.

في ذلك الصباح، جلس الجميع يسجلون الملاحظات عدا ثلاثة طلاب وهم "چورچو" الذي كان منهمكًا في قراءة أحد واجبات طلاب السنة الثالثة،

و"ماركو ڤالينتي" لأنه كان في نوم عميق، و"چيبّو" الذي كان منشغلًا بنقل تدريبات اللغة الإنجليزية من كشكول "بييترو".

قبل أن يترك الأستاذ الفصل اصطف الطلاب أمام المكتب ليأخذ كل واحد منهم نسخته حول المراجع عن العشق الأكثر أذية.

ثم ألقى الأستاذ تحيته:

- أترككم الآن؛ فالطلاب ينتظرونني في فصل 6/3.

أخذ "فيديريكو سيربييري" حقيبته وخرج من الفصل تتبعه نظرة "چورچو" البائسة وهو يتجه نحو فصل الطلاب الذين سيؤدون آخر امتحان مدرسي لهم وفي العام التالي سيتخرجون وقد تعلَّموا الكثير من أفكاره التي لا حدود لها.

كان الأستاذ في الممر بين الفصول عندما لحقت به "چوليا" وهي تجري وقالت له:

- انتظر من فضلك يا أستاذ "سيربييري"!

توقف الأستاذ في المنتصف بين الفصلين. فقالت له "چوليا":

- إن وجد "چيبّو" عملًا آخر لجليسة الأطفال، فمع مَن ستبقى ابنة حضرتك؟

بدا "سيربييري" حائرًا فقال:

- أنتِ على حق يا "چوليا"، في الحقيقة إنها مشكلة يجب عليَّ حلها.

- يمكنني تولي هذا الأمر، فأنا بحاجة إلى المال للادخار.

كان "سيربييري" يقدر دائمًا الطرق المباشرة والصريحة لمحاربة "جرينبيس" وظل مترددًا للحظة فقط، وقال:

- آه، أتفهم ما تقصدين، فأنتِ تحتاجين المال حتى تذهبي إلى كندا وغابات الدب الكبير.

- نعم، سوف يكون هناك تجمُّع الصيف المقبل وأريد أن أصبح ناشطة حقيقية.

- هل تعرفين أن النشطاء الحقيقيين يقومون غالبًا بأفعال غير قانونية وخطيرة؟

- نعم، ولكن هذا لا يهمني.

- حسنًا. المهم أن تكوني على دراية بذلك. قولي لي يا عزيزتي. هل تحبين الأطفال؟

- لا. بشكل خاص لا.

- حسنًا. بالنسبة لي أنا موافق على عملكِ لديَّ. فأنتِ ستستطيعين تعليم "أوديليا" حب الطبيعة واحترام هذا الكوكب. تحدثي مع والديكِ في الأمر؛ فأنا أفضِّل أن يكونا على دراية به، وبطبيعة الحال يجب أن أقنع الناظر بأن يقبل اتفاقنا هذا.

هكذا أنهى "سيربييري" كلماته بابتسامة مطمئنًا الفتاة، لكن "چوليا" كانت تلف خصل من شعرها بين أصابعها بعصبية. فطمأنها "سيربييري" قائلًا:

- لا تقلقي.. فأنا أتمتع بشيءٍ من المصداقية عند ذلك الرجل. سوف ترين أنه لن يتسبب في مشكلات، وفيما يخص المقابل المادي سوف نتفق.

لم تكن "چوليا" تظن أن طلبها ستتم الموافقة عليه بسهولة كبيرة هكذا فبدت عليها السعادة فجأة. كان ما قامت به بعدها غريب للغاية على فتاة لها مثل طباعها. فوالداها و"سيربييري" وكل زملائها وكل الناشطين الذين كانوا يشاركونها عشق الدب الكبير لم يكونوا ليعرفونها إذا رأوها الآن، وحتى "مارتا" قلقت بشأن ذلك، فقد كانت "چوليا" تعانق "فيديريكو سيربييري" بقوة.



مارس

خطر مستمر



بدأ الشهر الأكثر تقلبًا منذ أسبوعين، حاملًا معه أمطارًا مفاجئـة، مـع لحظـات قليلـة مـن أشعة الشمس، والـبرد القـارس الـذي يتحـول فجـأةً إلى درجـات حـرارة مرتفعـة. كـان مناخًـا مجنونًا، لكن الجميع يعرفون عنه هذا. كثيرًا مـا عـانى "فيـديريكو سـيربييري" مـن متاعـب في الجهاز العصبي بسبب عدم الاستقرار الطقسي ذلك، لكن في ذلك الصباح، بينما كان جالـسًا في أحد أركان صالة الاستقبال، شعر على غير العادة بأنه في حالة جيدة.

حضر المقابلة عدد قليل من أولياء أمور طلاب السنة الثالثة. أخبر الأولاد آباءهم كـم كان الأستاذ بارعًا، وكم كانت مفيدة دروسه، وهو ما يعتبره الآباء الغـارقين في مـشاغلهم أكـثر مـن كـافٍ. اسـتغل "سـيربييري" تلـك الـساعة التـي أتيحـت لـه كي يـصحح بعـض الواجبات. ومن حينٍ لآخر، كـان يلقـي نظـرة عـلى مجموعـة الأمهـات الـصائحات الـلاتي احتشدن حول الأستاذة "جالّوسّي" التي جلست على بعـد أمتـار منـه؛ ومـع ذلـك ألقـت بأذنها على حوار تديره أستاذة مادة الرياضيات مع ولي أمر أحـد الطـلاب وعـلى المنازعـات الكلامية على الطلاب ذي الأسبقية في الصف أمام مكتب الأستاذة "باليري". لم يتقـدم أحـد لمقابلة أستاذ الفلسفة حتى يتحقق من أداء تلاميذ 3/2. وكان ذلك أمـرًا أكـثر مـن متوقـع،

حيث إن أقل درجة حصل عليها الطلاب في ذلك الفصل كانـت سـبع درجـات، كـما أن أوليـاء الأمور لديهم الكثير من المهام غير تضييع الوقت في مواد كان تحصيل أبنائهم فيها جيدًا.

شعر "سيربييري" بالرضا عن ذلك. فلم يفهم أولئك الأشخاص أبدًا فائدة دروسه عن أضرار الحب؛ فبالتالي كان من الأفضل لمصلحة الأبناء أن يظل أولياء أمورهم على جهل بالأمر كله.

كان يعطي درجة النجاح للمرة المئة لأحد الواجبات عنـدما شـعر بأحـدهم يقـف أمامـه. رفع الأستاذ نظره ليجد رجلًا قصيرًا ممتلئ الجسد، يزحف الصلع على جانبي الـرأس، ويرتـدي بلوفر على هيئة رقعة الشطرنج من الصوف الخام ومعطفًا من الجلد ذا جودة ممتـازة، لكـن القطعتين معًا لم يتلائما نهائيًا، فلم يكن منظرًا جميلًا. ونظرًا لحاسة الشم القوية عنـد الأسـتاذ، استطاع أن يشم رائحة قلية تنبعث من الرجل. كما أنه بمجـرد أن نظـر لعينـي هـذا الـشخص غير المعروف له حتى وجد فيهما شيئًا مألوفًا.

قال الرجل:

- صباح الخير يا أستاذ، أنا "ماريو ريڤولي" والد "لويچي".

نهض "سيربييري" واقفًا وسلمّ عليه باليد مهديًا إياه ابتسامته الودودة المتفهمة، وقال:

- آه، والد "لويچي"، يا له من شرف لي بالتعرف على حضرتك، تفضَّل استرح، أرجوك.

أدهش هذا الاستقبال المليء بالحماس "ريڤولي" على الفـور. ففـي العديـد مـن المناسـبات كان يخجل من ابنـه، فكـان ذلـك أحـد الأسـباب التـي جعلتـه يتوقـف عـن الـذهاب لمقابلـة الأساتذة، حيث بدا أنهم جميعًا يستمتعون بإهانة "لويچي". لكن هـذه المـرة يبـدو أن هنـاك شيئًا مختلفًا.

- قرأت خطاب حضرتك، ويؤسفني أنك تعرضت لمشقة المجيء إلى المطعم ولم تجدني حتى.

دائمًا ما يتحدث "ماريو ريڤولي" بصوت خافت كما يشعر بالحرج أمام أي شخص أكثر تعلمًا.

- لا يهم. سعدت برؤية مطعمكم الجميل. إذًا ما رأي حضرتك في الخطاب؟

- ماذا بوسعي أن أقول. لقد تفاجأت.. لم أكن أتوقع ذلك حقًا.

أخفض "سيربييري" صوته ومال للأمام نحو مُحاوره، قائلًا:

- هيه! ألم تكن تعلم أن ابن حضرتك ولد استثنائي؟

لم يستطع "ماريو ريڤولي" النظر إلى ابنه في هذه الصورة الجديدة، فقال:

- يا أستاذ، لكن.. هل حضرتك متأكد من أنك لم تخلطه بآخر؟ ربما بـ"چورچو"، فابني يطلقون عليه "چيبّو"، وهو طويل حليق الرأس مع وجود بعض من الشعر قبيح المنظر كعرف الديك في المنتصف...

قاطعه الأستاذ بملاحظة تفهم:

- أتحدث عن "لويچي" بالتحديد، وأؤكد لحضرتك بأنه استثنائي، ثق في.

بدأ "ماريو ريڤولي" يشعر بتقصيره نحو ابنه الثاني. كان مهملًا له دائمًا، غير قادر على فك شفرات تمرده، وربما لم يكن يعرفه على الإطلاق. والآن شخص غير معروف له على الإطلاق يحكي له شيئًا ما عن "لويچي" لم يكن ليتخيل وجوده أبدًا.

- لم أكن أبًا جيدًا، توفيت والدة "لويچي" عندما كان في السابعة من عمره، وتوليت تربيته بمفردي. حمَّلني المطعم أعباءً كثيرة، كما أن السنوات الأولى كانت قاسية. ومن ثم لم أتابعهما كما كان واجبًا عليَّ. هذا هو الأمر وما فيه.

النبرة النادمة لـ"ماريو ريڤولي" كانت تستحق بعض المواساة.

واساه "سيربييري":

- لا تكن قاسيًا على نفسك.

ثم استكمل:

- فموهبة "لويچي" لم يكن سهلًا اكتشافها، ابن حضرتك أكثر انغلاقًا مما يبدو.

- آه، لقد قال ذلك أيضًا الأخصائي النفسي للمدرسة والذي في الواقع يقف بجانبه... نسبيًّا...

ضحك "سيربييري" بداخله، فقد كان مقتنعًا بأن الجلسات مع "كاميلّو" لم تكن مهمة كثيرًا للنضج النفسي لـ"چيبّو" بقدر ما كانت مهمة له للنضج الإنساني، وإن كان الأب قد سها عن ذلك، لذا كان الأستاذ على أتم استعداد ليلخص له الموقف.

- اسمعني يا سيد "ريڤولي"، إن "لويچي" يمتلك أسلوبًا في التفكير ذا طابع هندسي، وذكاءً يصبح عرضة لتغيرات سريعة، وبالإضافة إلى ذلك لديه مهارته الملحوظة في التحوُّل بين التحليلات والتجميع الاستنتاجي. علاوةً على أنه يستطيع العمل في مجموعة، وعنده حس عالٍ من الدعابة الساخرة، وقد نجح في كسب أصدقاء يتصفون بالصراحة.

- آه، هذا مؤكد. فإن "لويچي" على استعداد أن يلقي نفسه في النار من أجل الأصدقاء.

- وهذا في حد ذاته كنز. وإن عدنا للحديث عن علوم الحاسبات والمعلومات فبطبيعة الحال يحتاج إلى الدراسة، وهو يبدو لي مهتمًا بهذا المجال، والأساسيات لديه ممتازة على الرغم من أنه تعلمها ذاتيًّا.

بالاستماع إلى كلمات ذلك الرجل الودود، وبسماعه لحالة ابنه على الصعيد الاجتماعي، حلت حالة من السلام والطمأنينة على "ماريو ريڤولي". وهكذا

عندما قام بعدها بعشر دقائق ناهضًا من كرسيه، كان يشعر بحالة من الفخر الأبوي الذي ملأ صدره لدرجة أنه بدا لـ"سيربييري" رجلًا مهيبًا.

- أستاذ، شكرًا جزيلًا لك، وشكرًا أيضًا بالنيابة عن "لويچي".

أخذ "ماريو ريڤولي" بين يديه يد "سيربييري" اليمنى ولم يكف عن مصافحتها، معبرًا عن عرفان لا ينتهى. وقال:

- سأنتظر حضرتك في المطعم. ستكون ضيفنا متى تريد، لا أحتاج أن أوصي حضرتك بأن تأتي، ها؟

- شكرًا وتهنئتي من أجل "لويچي".

لم يكن "سيربييري" ليقبل بالحصول على وجبة مجانية كمقابل لتدخله، وعلى الرغم من ذلك، ذكَّره ذلك الأب الذي لا حول له ولا قوة، بخفة دم ابنه. تابعه بنظره حتى الباب، وقبل أن يختفي عن نظره استطاع أن يرى نظرة الانتصار التي وجهها "ماريو ريڤولي" لـ"أديلِه بالميري" أثناء وصفها لمستوى الطلاب.

***

كانت الموظفة الشابة في حضانة "ابتسامة طفل" تقلب الورقة بين يديها وهي تفكر كيف تضيع وقتها. نعم، كان ذلك التوقيع على الورقة هو توقيع الأستاذ "سيربييري"،كما أن بطاقة الفتاة سليمة، وعلى الرغم من ذلك كان من الصعب على الموظفة أن تُسلِّم الفتاة الطفلة. وقالت:

- هل أنتِ واحدة من الأقرباء؟

- لا. أنا جليسة الأطفال.

- لكن هل الطفلة تعرفك؟

باستحضار "چوليا" لإحساسها بالمسؤولية، تمالكت نفسها حتى تلك اللحظة، ولكن بعد السؤال الأخير أصبحت لديها رغبة داخلية قوية جدًّا في إرباك الموظفة بخصلات شعرها الملونة.

- من أين يأتون بكُنَّ؟ من مسابقات الجمال؟

لم تكن تعرف المرأة كيف تتصرف؛ فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها شخصًا – يمتلك "بيرسينج" وتسريحة شعر كيرلي مع تجميعة غريبة لملابس قليلة النظافة – يتخطى عتبة حضانة "ابتسامة طفل".

ومع ذلك بدخول تلك الفتاة التي كانت تبدو كما لو خرجت من لوحة لـ"بيكاسو"، كان على الموظفة أن تجعلها تختفي من المدخل في أسرع وقت، حتى وإن كان الثمن هو اختطاف الطفلة.

- انتظري هنا، ومن فضلك لا تلمسي أي شيء.

اختفت الموظفة في الممر تتبعها نظرة "چوليا" القاتلة. ظلت تتأمل الجدران ناصعة البياض لأهدأ حضانة أطفال على وجه الأرض. الأجواء المحيطة التافهة أعادت لذهنها أحد الأفلام عن تربية حقيرة لبعض صغار كلاب البيجل التي كان مصيرها المعامل العلمية في شمال إيطاليا، وذلك التشابه مع "جرين هيل" لم يعجبها على الإطلاق. قررت أن تفعل شيئًا ما حتى تعود الموظفة، فاندفعت نحو ممر يطل على الفناء، حيث يمتد الحائط الأبيض إلى أمتار وأمتار من النصاعة التي لا فائدة منها. كما كان ذلك المكان الصامت بحاجة إلى صوت يدب الحركة فيه، أدركت "چوليا" أنها لم تأتِ إلى هناك بالمصادفة. جلست على ركبتيها على الأرض وفتحت حقيبتها.

وعندما وصلت "أوديليا" أخيرًا بكامل حريتها إلى "چوليا"، تبادلتا التحية بمودة أدهشت الموظفة.

قالت الموظفة بصوت كئيب:

- قمنا بالاتصال بوالدها، ففي نهاية الأمر نحن لا نعرفك.

انفصلت "چوليا" عن الطفلة وتقدمت مقتربة من الموظفة التي تقهقرت لبضع خطوات إلى الخلف.

قالت "چوليا":

- والآن، هل رأيتني جيدًا؟ عجِّلي الإجراءات في المرة القادمة.

أخذت الفتاة "أوديليا" من يدها وجرتا إلى الخارج تتبعهما نظرة الموظفة المطمئنة. اتجهت الموظفة إلى الممر الأيسر لتخبر الإدارة بما حدث، لكنها توقفت بعد بضع خطوات. فعلى الجزء الأسفل من الجدار كانت هناك بقع سوداء بأحجام مختلفة. ارتدت نظارتها مقتربة من الحائط كي تعرف ما هي.

كانت آثار أقدام حيوانات – كلاب وقطط وطيور وذوات الحوافر – مرسومة بأحجام مختلفة، والآثار الصغيرة كانت تختلط في تشابك غير نظامي، لكنها بدت وكأنها تتجه إلى نقطة بعينها، نقطة هروب متخيلة، بعيدة، في الخارج، نحو السماء.

قالت "چوليا" وهي تسير مع الطفلة ممسكة بيدها نحو محطة الحافلة:

- لكِ عندي مفاجأة يا "أودي".

لكن في ذلك اليوم كانت "أوديليا" هي من أدهشت "چوليا"، لأن التناغم المفاجئ بين اثنين من البشر يعد ظاهرة غير متوقعة دائمًا.

وضعت أرنبًا عملاق لونه أبيض وأسود في سلة. ثم بدأت بالبحث عن "أوديليا" بنظرها. اختفت "أوديليا" داخل أعماق المتجر الكبير الخاص ببيع الحيوانات.

نادت "چوليا":

- "أودي" أين أنتِ؟ ألن تأتي لرؤية هديتك؟

كانت الطفلة تشاهد كل شيء حولها متجاهلة فئران الهامستر والببغاوات. انجذبت مثل المغناطيس إلى قفص صغير موضوع في زاوية ما شبه مختبئة. فعند رؤيتها لذلك القفص الصغير، رأت "أوديليا" كل الوحدة التي عانتها في الفترة الوجيزة التي قضتها في مدينة ميلانو. فأمامها داخل القفص، رأت حيوانًا صغيرًا للغاية، شعره غزير، وله ذيل طويل وأذنان حجمهما غير عادي، أمَّا عيناه فكانتا عملاقتين، والإصبع الثاني والثالث في ساقيه الخلفيتين، يربط بينهما غشاء. ربما كانت وظيفتهما مساعدته على الهبوط بعد انتهائه من الطيران.

اتجهت "چوليا" إلى الطفلة الصغيرة وهي تلهث قليلًا. عند وصولها سمعت الفتاة الصغيرة تسأل بائع المتجر:

- "تولّيو"، هل تركت لك الكائنات الفضائية هذا الحيوان.

أجابها الفتى ضاحكًا:

- يمكنك قول هذا. إنه نوع للهواة.

وهكذا، معجبة باكتشافها، بدأت "أوديليا" تصدر تشجيعاتها الصوتية المعتادة تجاه المخلوقات التي لا تتمتع بنعمة الكلام. قالت الطفلة:

- أنت وحيد جدًّا. أنا أعرف ذلك.

همس "تولّيو" في أذن "چوليا" قائلًا:

- هل الفتاة الصغيرة دائمًا هكذا أم أنها أصبحت هكذا فقط عندما بـدأت بقـضاء الوقـت معكِ؟

ضربته "چوليا" بود. تأمَّل البائع الشاب عينَي "أوديليا" الجميلتين، تلك العينين اللتان كانتا تتابعان حركات الحيوان الصغير، وعندئذٍ بلين قلـب فـتح القفـص ووضـع الحبـيس بـين يـدي الطفلة.

قال "تولّيو":

- إنه صغير السنجاب الطائر، وهو من الحيوانات الجرابية الأسترالية.

ضمت "أوديليا" الحيوان الصغير الذي كان يرتعش إلى صـدرها. تبـادل "تولّيـو" و"چوليـا"، بعد أن أدركا ما يدور ببال الفتاة. قرر "تولّيو" أن يوضح حالة ذلك الحيوان الغريب:

- إنه موجود هنا منذ وقت طويل جدًّا، فالزبـائن لا يعرفونـه، عـلاوة إلى أن شـكله قبـيح نسبيًّا ورائحته كريهة.

اكتشفت "چوليا" في تلك الأيام بالتحديد أن نزعتها في الدفاع كانت في تزايد لا حـدود لـه، لتشمل عـالم الحيـوان، بالإضـافة إلى كـل قلـيلي الحيلـة مـن الجـنس البـشري، مثـل طفلـة في الخامسة من عمرها، حيث أصبح إدخال السعادة على "أوديليا" من أولوياتها، وهكذا تنهَّـدت في أسف حقيقي وهي تقول:

- خسارة أن هذه الحيوانات الغريبة يبلغ ثمنها الكثير من المال.

ابتسم "تولّيو" مطمئنًا، وقال:

- لكن ليس هذا. فنحن نعطيه هدية لمَن يشتري أرنبًا ضخمًا.

تحرك كل شيء بسرعة في ذلك اليوم الرائع. رياح خفيفة تدفع الشتاء بعيدًا، وساعات النهار تطول في انتظار الأمسيات الجياشة، كانت هناك حالة من التوتر العام التي تؤثر حتى في الناس الهادئة.

كانت "تشيتشيليا باسّاني" مستعدة.

بعد النعاس الطويل للجسد والعقل، بدأت تزدهر أخيرًا مع اقتراب الربيع. كان "كارلو" هو السبب في الغياب الطويل لها عن واجباتها في العمل، صحيح أنها لم تستطع محو أثره من حياتها، إلا أنها تمنت لو تستطيع أن تكتبه في أسباب تغيبها عن العمل. ركزت تفكيرها في التحرر من هذه الأفكار السامة أثناء صبها القهوة في فنجانها. عادت إليها الطاقة القديمة كي تبدأ نشاطها من جديد.

خرج "إرنستو" من البيت قبل والدته، وبعده بساعة، خرجت "تشيتشيليا" وقد زينت وجهها بعناية بمساحيق التجميل. ارتدت فستانًا وردي اللون أبرز جمال جسدها.

أغلقت "تشيتشيليا" الباب خلفها واتجهت إلى العمل.

قبل أن تعبر بوابة المدرسة، أخذت نفسًا عميقًا ثم اندفعت داخل الحشد. أفسحت لنفسها الطريق وسط ذلك الازدحام البشري، الذي استقبلها أناس من بينه بعبارات مثل: "يا له من شيء جميل، لقد عدتِ" و"تبدين بأحسن حال". ابتسمت للجميع، من أول عامل حتى آخر زميل. ثم بخطوات سريعة دخلت إلى غرفة الأساتذة التي كانت خالية من أي شخص. كان الجو العام يوحي بالانضباط والجدية. كان السقف عاليًا، وكان الأثاث هو الموجود فقط لا أكثر من ذلك، مع وجود مائدة في منتصف القاعة. لاحظت "تشيتشيليا" على الفور الكراسي الخمسة الجديدة من ماركة "إيكيا". أخذت الدفتر من دولابها، وقبل أن تتحرك نحو مكتب الإدارة، توقفت أمام النافذة لترى عمليات تجديد الفناء؛ فقد كانت الأرضية مكونة من ألواح بلاط رمادية، ذلك اللون القاتم يبدو أيضًا

متغلغلًا في جدران الفناء. في الوسط تم تثبيت مقعد خشبي بائس، سيتحول مستقبلًا إلى كتابات وعمليات نحت وإبداع من الطلبة.

بالنسبة لـ"تشيتشيليا"، كان ذلك المنظر بمثابة الإعلان عن مدرسة مُهمَلة ولغز من ألغاز كثيرة مرتبطة بالإدارة المدنية؛ فلم تستطع أن تفهم أبدًا لماذا يصمم مديرو المدارس على إظهار المدارس كالسجون ذات الحراسة المشددة، من الطبيعي إذًا أن تنمو داخل الأولاد نزعة الفرار منها.

في ثانية واحدة كانت "بالميري" فوق رأسها تحتضنها وتضمها إلى صدرها الممتلئ. قالت لها:

- عزيزتي "تشيتشيليا"!

- أهلًا يا "أديلِه".

تحررت بعدها "تشيتشيليا" من ذلك الحضن اللزج.

- أخيرًا عُدتِّ. كان طلابك يعدُّون الأيام، والمُدرِّسة الاحتياطي التي حلَّت محلك لم تكن على قدر المستوى.. تبدين بحال رائع، على عكس ابنكِ الذي يحتاج إلى علاج لاستعادة القوة والحيوية. هل أنتِ متأكدة من أنه على ما يُرام؟

غير عابئة بالإجابة، عادت الزميلة لاستئناف خطواتها، لكن ليس قبل أن تقبِّلها من جديد.

كانت "تشيتشيليا" في غاية السعادة لعودتها مجددًا إلى مدرستها، فحتى تلك المقابلة جعلتها تشعر برعشة رضا. لم يكن كثير من مدرسي الرياضيات محبوبين بين الطلاب. نجحت كذلك في الحصول على شهادات التقدير باذلة كل جهد لذلك؛ فقد وُلدت من أجل هذا العمل، لكي تتنفس الهواء المختلط بالتراب في قاعات الفصول ولكي تبقى بين الطلاب.

لم تكن "تشيتشيليا باسّاني" بالتأكيد لتتوقع أن المكان الأكثر أمانًا لها لم يعد كذلك. فلم يربك كيانها كثيرًا ذلك التشابه مع "بول نيومان"، المحرك القديم للأحلام الحميمية المحرمة، قدر ما أربكت كيانها النظرة اليائسة لهاتين العينين الزرقاوين.

فبمجرد أن ظهر على عتبة الباب، تأملها الزميل بعين قلقة، ثم اتجه نحو دولابه كمَن يحاول إنقاذ نفسه من موت محقق أمام محاولة اغتيال. شعرت "تشيتشيليا" كما لو أن قلبها صعد إلى حلقها بسرعة كبيرة، لكنها أظهرت مرة أخرى أنه أمام الخطر تكون لدى النساء شجاعة أكبر، فواجهته بابتسامة ودودة.

- أهلًا، أنت من المفترض أن تكون الأستاذ الجديد لمادة التاريخ والفلسفة. أنا "تشيشيليا باسّاني"، أدرس مادة الرياضيات في فصول الخامس والحادي عشر.

كان "سيربييري" مسرورًا بينه وبين نفسه لذلك الحوار الودي بصيغة أنت دون حضرتك. رد قائلًا:

- تشرفت كثيرًا. أنا "فيديريكو سيربييري".

أهداها ابتسامة مريرة. لم ينجح في تفادي رائحة عطرها بعد مصافحته إيَّاها. وبينما أخبرته "تشيتشيليا" أنها لا تود إزعاجه بأسئلة حول أداء ابنها "إرنستو جرادي"، بدأ "فيديريكو سيربييري" يشعر بنفسه هشًا بشكل خطير لدرجة أنه وافق بعدها بساعتين على أن يشرب القهوة مع زميلته التي تعرَّف عليها لتوِّه. أمَّا "تشيتشيليا" فقد قررت بعد أن لاحظت أن "فيديريكو سيربييري" شخص خدوم، أن تقفز عدة خطوات في لقاء التعرف ذلك واتجهت مباشرة للحديث عن حياتها الشخصية الحميمية. اعترفت لرجل غريب بالهجر المؤلم التي كانت ضحية له. في اللحظة ذاتها، سيطر على "سيربييري" إحدى مقولات "نيتشه": "إن أساس الحب الرغبة في التملك"، كان هذا بالتحديد ما ينمو داخله نحو الأستاذة "باسّاني".

حتى وإن كان يؤمن بموانع شديدة جدًا ضد الحب، فإن "فيديريكو سيربييري" فاجأته تلك الرغبة في الحصول على ذلك الفم وتلك اليدين وذلك الجسد وتلك النظرة وبطبيعة الحال ذهن تلك المرأة.

لم تكن "تشيتشيليا" أقل خوفًا، فأمام ذلك الانجذاب غير المتوقع الذي تشعر به قد تعود إلى حالة الشلل مرة أخرى في سرير مليء بالكلينكس، وقد تتقدم هذه الحالة مجددًا بلا رحمة.

كي تنكر ذلك الخطر الواضح بعد أن عادت إلى المنزل، لم تقص على ابنها بأنها تعرفت على مدرسه البديل لمادة التاريخ والفلسفة.

بعد أيام قليلة، لم تخبر "إرنستو" أنها وجدت في دفتر التحضير الخاص بها ورقة صغيرة من "فيديريكو سيربييري"، مكتوبًا بها الآتي:

"عزيزتي "تشيتشيليا"، أود أن أدعوكِ إلى العشاء مساء السبت. هل يمكنني أن آمل في موافقة منكِ؟".

كان مكتوبًا في آخر النص عنوان لأحد المطاعم الراقية ومعه التاريخ والموعد.

فكرت "تشيتشيليا" قلقة في أنه إذا كان ذلك الرجل يمارس الحب بالحرارة نفسها التي يكتب بها الدعوات الغرامية، فإن الأمور ستكون سيئة لها، لكن، بطبيعة الحال، وضعت في اعتبارها أن ذلك سيستدعي بعض العناء لاكتشاف ذلك. ولاحقًا بعد أن دخلت غرفة المدرسين، وجدت دفتر "سيربييري" على المائدة الكبيرة متروكًا هناك عن قصد من أجلها. وضعت "تشيتشيليا" بين صفحاته ورقة بها ردها على الدعوة، وفيها مكتوب بإيجاز:

"بكل سرور".

وهكذا في مساء السبت، كان كلاهما يجلس أمام الآخر وبينهما شمعة مشتعلة تغمرهما بظلال الحب الخفيفة. ارتدت "تشيتشيليا" فستانًا أسود

أبرز ملامح صدرها، بينما ارتدى "فيديريكو سيربييري" معطفًا أزرق من الصوف الخفيف، مـن دون كرافتة. قدَّرت "تشيتشيليا" هذا الاختيار غير الرسمي لملابسه بشكل خاص. ظلَّا في الفـترة الأولى من العشاء يرويان حكايات عن حياتهما الخاصـة وبعـض المواقـف المـضحكة للمدرسـة التي غالبًا ما تكون مـسلية. وبيـنما يتأمَّـل "سـيربييري" زميلتـه وهـي تـضحك وتحـرك رأسـها وتلمس شعرها ورقبتها، أدرك بألم أن قلبه لن يستطيع المقاومة طويلًا. وفي النهاية بعد الطبق الثاني أي طبق اللحوم، ترك نفسه لحركة حاسمة. وضع يده على يد "تشيتشيليا"، متأنيًّا بشكلٍ من المداعبة، شعر بوضوح برعشة متعة. ومنذ تلك اللحظة.. منذ ذلك الاتصال، شـعر الأسـتاذ وكأن قضبانًا حديدية تظهر من حوله تجعله سجينًا لها.

بعد أن وصلا لتلك المرحلة، دفعتهما رغبة بعدم تناول الحلو وطلبا الحـساب، وبمجـرد أن خرجا من المطعم، التقيا في قبلة غرامية بدت لا نهائية.

***

يلعب القدر دائمًا بأوراقه وفي معظم الأحيان يغـش في اللعـب. وفي مـساء ذلـك الـسبت، الموافق 24 مارس، احتفل بعض طلاب 3/2 بعيد ميلاد "لويچي ريڤولي" الثامن عـشر في قاعـة صغيرة محجوزة خصيصًا لذلك في مطعم عائلته. اختار الفتى أن ينهي حفلتـه الـصاخبة بنـزع سدادات زجاجات الخمر الفوارة، ولكن قبل تلك اللحظة كانت الخمور تنهال عليهم كالأنهـار بالفعل. في الثانية صباحًا، أوصل "بييترو" صديقه "إرنستو" بالموتوسيكل أمام بوابة المنزل وهو ثمل بما فيه الكفاية.

بيد مرتعشة حاول الفتى أن يدخل المفاتيح في فتحة الباب، لكن تلك العمليـة أصبحت أكثر تعقيدًا بسبب حرصه على عدم إيقاظ والدته. لكن، بعد الكثير مـن المحاولات، والمزيد من الحذر، اكتشف أن مـا يفعلـه بـلا فائـدة، لأنـه ببـساطة لا يوجد أحد بالمنزل. عادت "تشيتشيليا" إلى البيت بعد ذلك بعشرين دقيقة، وهـي

تغنى بصوت خافت أغنية لـ"بيلي هوليدي"، كانت ترتدي فستانًا من الساتان الأسود وتلعب بوردة حمراء طويلة. كان "إرنستو" متجهًا إلى الحمام، عندما قابلها في الممر. واكتشف على الفور أن والدته لم تلحظ سكره.

قال "إرنستو":

- أوه، يا له من مظهر رائع، لا تقولي لي إنك خرجتِ مع صديقة!

انفجرت "تشيتشيليا" في الضحك، وقالت:

- لن أحكي لك شيئًا على الإطلاق يا "إرني"، قل لي بالتحديد متى عدت؟

نظر إليها "إرنستو" مستمتعًا؛ فوالدته مبتهجة بعض الشيء، وفي حالة معنوية عالية. خلعت "تشيتشيليا" حذاءها ذا الكعب العالي بقذفه بقدميها تجاه الكنبة.

ألحَّ الابن في حديثه، وقال:

- حسنًا، اتفقنا، كنتِ مع صديقة.. ربما يكون هذا الروتين المعتاد، لكنني كنت أفضل أن تخرجي مع الجنس الآخر.

ضحك "إرنستو". ضربته "تشيتشيليا" على سبيل المزاح بمعطفها. تلك الحركة كانت كافية لكي تنتشر في الهواء رائحة كريهة تسبب الغثيان.

سألها "إرنستو":

- ما هذه الرائحة الكريهة؟

- أتشمها أنت أيضًا؟ لقد انتبهت إليها في المصعد، يبدو أن معتوهًا ما أراد التسلي بمعطفي، ولم يفهم أن الكارنيفال قد انتهى!

انتزعت "تشيتشيليا" المعطف بشيء من النفور.

- رائحة لا تطاق، تذكرني بأحد أنواع الأسمدة.

ثـم وضـعته في البلكـون، حيـث سيقـضي الليلـة بأكملهـا قبـل أن يـصل بـشكل نهـائي إلى المغسلة.

- ربما حدث ذلك عندما كان على شماعة الملابس في المطعم؛ فتلك هي اللحظـة الوحيـدة التي غاب فيها عن نظري.

انتزعت "تشيتشيليا" أيضًا الحلقين من أذنهـا، ثـم اختفـت في غرفتهـا. ولبـضع ثـوانٍ ظـل "إرنستو" واقفًا وسط الصالة. على الرغم من التشويش الذي تـسبب فيـه شربـه للخمـر، كـان قادرًا على أن يلمح في هذه الحادثة الغريبة شيئًا مألوفًا جدًّا له.

***

في تلك الليلة الغرامية القاتلة، كان هناك شخص ثالث، لم يسكر، لكنه كان يغرق تـدريجيًّا في حالة من الفوضى.

ركن "فيديريكو سيربييري" سيارته، لكنه لم يدخل المنزل. مـضطربًا مـن الأحـداث الأخـيرة، بدأ يسير دون وجهة محددة. بدا تائهًا، وكأنه يسير نائمًا.

حيلة طارد الحمام ضد "تشيتشيليا" لم تؤدِّ إلى أي تأثير؛ فهو لا يزال لا يستطيع مقاومتهـا. فهي تتمتع بجمال ولطف وذكاء يحمـل خفـة الـدم، وهـذه الأسـلحة كلهـا مجتمعـة هزمـت بشكل تام كل وسائل دفاعه.

شعر بروحه مثقلة بالعذاب. أمل في أن بعض الحركة الجسدية من الممكن أن تـساعده في إعادة ترتيب أفكاره. لم يكن يريد الاستسلام للذعر. ربما لا يزال في مرحلة الإعجاب الزائد عـن الحد، لكنه يعرف أن تقبيله لها كان أول خطأ وقع فيه. كيف كان له أن يقاوم فم كهـذا؟ ثـم ارتكب خطأه الثاني بتقبيلها مرةً ثانيةً بعشقٍ أكثر، لكنَّ الانتحار الحقيقي لمبادئه التـي يـدافع عنها، كان حينما ذهب معها إلى المكتب الخالي لإحدى صديقاتها، وممارسة الحب معها. ذلـك الانسجام الشهواني معها كان كافيًا ليعتبر الأستاذ نفسه مريضًا ميؤوسًا من حالته.

لقُبلة الحب الأولى القدرة على تحطيمك لما تبقى من حياتك. كم مرة ردد تلك الجملة لطلابه؟ الحب معدٍ مثل الطاعون. تركت "تشيتشيليا" نفسها بين ذراعيه بعشق، فكانت وسيلته الوحيدة لتحصين نفسه ضدها أن يفعل شيئًا يوقف تلك الحميمية التي تنمو بينهما. حاول "سيربييري" بيأس أن يختبئ في خندق مثل الرجل الأخير في حصن محاصر. هناك أمل في إنقاذه، لكنه يعلم أن هذا لن يتحقق إلا باتخاذ قرار عدم رؤيتها مجددًا أبدًا، وهو قرارٌ صعب التحقيق.

سار "فيديريكو سيربييري" بخطوات سريعة مرتديًا سترة رياضية لونها أزرق وكحلي، وحول رقبته كوفية من الكاشمير لونها رمادي كالدخان، ساهمت بطريقة كبيرة في زيادة جاذبية عينيه الزرقاوين.

كانت الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا عندما وصل إلى كورنيش نهر "التيبر". بحث عن مكان يجلس فيه لإراحة جسده المرهق قبل صعوده إلى تل "چانيكولو". لم يبالِ بظلام الليل حوله. تجاهل نساء الليل اللاتي عرضن عليه خدماتهن الجنسية، وأحبط دون أن يدري محاولة سرقة إحدى السيارات، كما تعثَّر دون أن ينتبه في أحد المشرَّدين النائمين في الظلام.

لعشر ثوانٍ فقط، جعلته صورة أرداف "تشيتشيليا" في مخيلته طليقًا. فجأة تحوَّلت أفكاره إلى "چوليا" و"أوديليا". سمح والدا "چوليا" لها بالنوم مع الطفلة عندما يكون الأستاذ خارج المنزل، وفي تلك الحالة يصبح المقابل المادي الضِعف. هكذا لم يعد حلم "چوليا" بزيارة غابة الدب الكبير مجرد حلم، وهو ما أسعد "سيربييري" كثيرًا من أجل تلميذته. فجأة، عادت "تشيتشيليا" تحتل أفكاره. اقتحمت تفكيره فجأة، وبدت محاولاته لإخراجها من تفكيره عملية ميؤوس منها.

ظل الأستاذ يمشي حتى وجد نفسه وسط منطقة "مونتيفيردي"، انطلق منها متجهًا إلى منطقة "تراستيڤِره". كانت بعض المحلات قد فتحت أبوابها، وفكر الأستاذ أن الوقت المناسب قد حان لإجراء مكالمة تليفونية.

كان الدكتور "كونسورتي" في المستشفى بالفعل وبسماعه صوت الأستاذ المتوتر، أخذ على الفور وضع التأهب. كان المريض الخاص به يطلب جلسة طارئة. تفحَّص "كونسورتي" أجندته، لكن عندما فاجأه الأستاذ بأزمته الجديدة، تغيَّر تصرفه على الفور. هناك خبر مهم؛ فـ"فيديريكو سيربييري" دخل مرحلة العشق مجددًا. جاء رد فعل الطبيب النفسي على ذلك الخبر كما لو كان أحد المرشحين لجائزة نوبل، لم يرفض فقط مقابلة المريض في ذلك اليوم، لكن أخبره بأنه بذلك يمكن وقف العلاج نهائيًّا.

أصبح "سيربييري" في وضع صعب بعد فقدانه آخر طوق نجاة له. حاول أن يعترض، أو على الأقل أن يدعم موقفه بأي حجة، لكنه وجد الطبيب ثابتًا على موقفه. ولكي يطمئن الطبيب مريضه، لجأ "كونسورتي" إلى مبادئ الطب التجانسي، وهو ما يعني أن العلاج يجب أن يحمل أعراضًا مشابهة لأعراض المرض، لكن يسهل التحكم فيها. وبالتالي فإن كان ما يضعف "سيربييري" هو الحب، فأفضل طريقة لعلاجه هو تركه يخوض قصة حب مشتعلة.

لم يثق "فيديريكو سيربييري" أبدًا في علاج الطب التجانسي، ولم يشعر بالطمأنينة على الإطلاق، لكن في النهاية، وبعد عشرين دقيقة من جلسة تليفونية مليئة بالمعاناة، اقتنع بالخضوع لإرادة الطبيب. لم يكن الطبيب أقل تألمًا من المريض بسبب ذلك الانفصال المفاجئ، فقد كان يشعر بعاطفة أخوية تجاه الأستاذ، لذا قبل أن يُنهي المكالمة التليفونية، وضع في اعتباره أن إنهاء العلاقة به كمريض يعطيه الفرصة كي يفوز به كصديق، لذا دعاه على العشاء في إحدى أمسيات الأيام التالية هو ورفيقته الجديدة. وأخيرًا تشجَّع الدكتور "كونسورتي" ليخبر أحد أكثر مرضاه معزَّةً بأن زوجته تعد طبقًا ممتازًا من الدجاج البارد، ثم ألقى عليه التحية مجددًا متمنيًا أطيب الأمنيات له.

اتجه الأستاذ نحو إحدى محطات الأتوبيس، مقهورًا روحيًّا ومنهكًا جسديًّا، لكن هذه التمشية السريعة أفادته بطريقة ما، فقبل أن يعود إلى المنزل كان قد اتخذ قرارًا لا رجعة فيه.

عاد "فيديريكو سيربييري" إلى المنزل أخيرًا حوالي الساعة التاسعة صباحًا. كان مُتعَبًا أشعث الشعر وقميصه يخرج من بنطلونه. كاد يدهث السنجاب الطائر الصغير بقدمه اليمنى عندما خطا داخل شقته التي خيَّم عليها الظلام.

كان ذلك الحيوان الصغير يتجوَّل في أرجاء المنزل بحرية، لكن حجمه الصغير جعل حياته دائمًا في خطر. أمَّا الأرنب فوقف متغطرسًا وسط الصالة منهمكًا في قرقضة كتاب "مقال عن المنهج" لـ"ديكارت". جرى "فلاك" نحو صاحب المنزل وهو يهز ذيله، فبدا كما لو أنَّه يعتذر عن الأفعال المحزنة لأبناء جنسه، ثم ظهرت "أوديليا" التي عاتبت الأرنب عتابًا عنيفًا قبل أن تلقي التحية على والدها:

- بابا كان يحرص بشدة على ذلك الكتاب، لم يكن عليك أن تأكله، فأنت لديك الجزر والكرفس. لماذا تفعل هذا؟

ظهرت بعدها "چوليا" على الفور مرتدية الزي الرياضي، بدا الشعور بالذنب عليها واضحًا، فقالت:

- يؤسفني هذا، كانوا يتصرفون دائمًا بشكل جيد، لا أعلم ماذا حل بهم هذا الصباح.

بدا منزل "سيربييري" كأحد مواقع تصوير "ناشيونال جيوجرافيك"، لكنه لم يبدِ أي رد فعل بخصوص الأمر. قام بمواساة "چوليا" التي بدت في قمة الأسف والندم، وقام بتهدئة غضب الصغيرة "أوديليا"، وبهدوء أخذ بين ذراعيه بشيء من الصعوبة الأرنب المزعج. ثم قال:

- عزيزتيَّ، لا تنزعجا، فمعايشة الحيوانات مليئة دائمًا بهذه المفاجآت.

ابتسم لهما ابتسامة مرهقة، ثم اتجه نحو غرفة المكتب الخاصة به وهناك أغلق على نفسه بالمفتاح. كانت "چوليا" مرتبكة بسبب ذلك التصرف وركضت الطفلة لتحتمي في حضن جليستها، قائلة:

- "چوليا"، بابا غريب. ماذا به؟

أخذتها "چوليا" من يدها وقالت لها:

- ربما يكون متعبًا فقط. سترين أنه عندما ينام قليلًا سيصير بحالٍ أفضل.

لم تكن مشكلة بالنسبة للفتاة أن تُطمْئِن "أوديليا"، لأن الطفلة كانت تثق في كل ما تقوله، لكن الأصعب هو أن تتقبل فكرة بأن يكون الشبح الذي دخل المنزل قبل عدة دقائق هو الأستاذ "سيربييري".

بعد ليلته الصاخبة، رقَدَ "إرنستو" على سريره ناظرًا إلى السقف، تائهًا في مجموعة من الأفكار المعقدة. تخلَّص من آثار الثمالة بسرعة، لحسن الحظ لم يترك النبيذ ذو الجودة العالية أي آثار غير مرغوب فيها عليه. كان واعيًا ويقظًا.

لم يكن يفكر في "چوليا" ولا في واجب اللغة اليونانية ولا حتى في الإلهام الشعري الذي توقَّف دون إيجاد علاج لذلك. كان "إرنستو" منزعجًا من قوة المصادفات وكيف تتداخل مصائرنا جميعًا. فمن بين كل هؤلاء الرجال الذين يعيشون في تلك المدينة، وقعت والدته بسرعة لا مثيل لها في حب "فيديريكو سيربييري" على وجه الخصوص. صحيح أن "إرنستو" كان يتمنى أن تدخل والدته بكل كيانها في حالة غرامية جديدة، لكن إن كان اختيارها قد وقع على شخص يرش طارد الحمام حتى يبعد عنه النساء، فقد كان من واجبه كابنها أن يحميها.

سمع ضوضاء صادرة من المطبخ فنظر إلى المنبِّه على الكومودينو، أشارت الساعة إلى 11:35 في يوم الأحد الهادئ المشمس.

ارتدى قميصًا ثم اتجه بخطوات سريعة إلى المطبخ، غشيته هالة من الضوء ووالدته تقف وسطها. بدت "تشيتشيليا" في حالة من الحيوية والنشاط كفتاة صغيرة، وهي تقوم بإعداد الطعام على البوتاجاز مرتدية الملابس الرياضية. كانت توجد على السفرة وجبة إفطار دسمة، وبحركات رشيقة صبَّت قليل من القهوة الأمريكية في فنجان.

- صباح الخير يا حبيبي، هل تريد قهوة باللبن؟

ابتسمت له بمجرد أن رأته.

- يوجد توست ومربى تين وأيضًا بيض مقلي.

في الأيام الأخيرة ظل مزاج والدته يتغير كثيرًا، فأحيانًا يجدها "إرنستو" حزينة، وأحيانًا أخرى يجدها في قمة الحماس. كانت تغيراتها المزاجية حادة، فإما يكون مزاجها رائقًا تمامًا وإمَّا متعكرًا تمامًا، وكأنها من الشخصيات ذات المزاج المتقلب.

تحدثت "تشيتشيليا" بصوتٍ خافت، بينما تغسل فنجانًا في حوض المطبخ:

- أنا ذاهبة لأجري قليلًا فالجو رائع.

قال "إرنستو":

- انتظري لحظة، يجب أن أقول لكِ شيئًا مهمًا.

عبس وجه "تشيتشيليا" للحظة وقالت:

- هل عليَّ أن أقلق؟

جلس الابن والأم، كل منهما أمام الآخر.

- اسمعي يا أمي، بمناسبة ما حدث مساء أمس...

قاطعته "تشيتشيليا" على الفور:

- "إرني"، اسمعني، ليلة أمس كنت مع رجل. أظن أنك فهمت هـذا، لكـن مـا زال الوقـت مبكرًا كي أحدثك عنه.

ظن "إرنستو" للحظة أن حدقتي عينَي والدته اتسعتا مثـل عيـون القطـط، فبـدت أجمـل من المعتاد.

- ماما، أنا سعيد أنكِ وجدتِ شخصًا ما، لكن...

أوقفته "تشيتشيليا" مجددًا:

- حتى هذه اللحظة يمكنني فقط أن أقول لك إنه شخص رائع، أحب الاستماع إليه عندما يتحدث ويعجبني ما يقول، ونضحك معًا كثيرًا؛ وهذا ليس بالشيء القليل. ألا ترى ذلك؟

كان واضحًا لـ"إرنستو" أن كل ما يقوله لن يلقى آذانًا مصغية من والدته، لذا قرر أن يبـدأ حديثه من النهاية ويصارحها بحقيقة الوضع.

- هل تذكرين تلك الرائحة الفظيعة على معطفك ليلة أمس؟

حدَّقتْ "تشيتشيليا" فيه بعينين فاترتين، ووجههـا مُـضيء. شـعر الفتـى بـأن هنـاك ضـوءًا ينبعث من وجه أمه ويصيبه بحرارته.

ردت "تشيتشيليا" مرحة:

- تلك الحماقة لم تعكِّر صفو الأمسية بالنسبة لي بالتأكيد!

- لكنكِ لا تعرفين شيئًا عن ذلك الرجل و...

قاطعته والدته مرة أخرى قائلة:

- عندما تقابل شخصًا يشعرك بالطمأنينة، يصبح الأمر كـالمعجزة، وأنـا عـلى اسـتعداد تـام لتقبُّل هذه المعجزة.

ابتسمت "تشيتشيليا" واثقة من كلماتها فقرر "إرنستو" تركها لحالها. الآن يوجد حاجز يفصل بينهما، حاجز وضع كل واحد منهما في نصف مختلف من الكرة الأرضية. ولأنه يعرف كيف يشعر المجروحون عاطفيًا، أحس "إرنستو" بنفسه مشاركًا في كل هذه الأشياء الغريبة التي تحدث.

كما لو أنها استيقظت لتوها من حلم، عادت "تشيتشيليا" إلى واقع المطبخ وإلى الإفطار الموضوع على السفرة وابنها أمامها يجمع أغراضه. في تلك اللحظة خجلت من نفسها، وتذكرت كيف يعيد العشق الفرد إلى عز شبابه.

- "إرني".. اعذرني على هذا الهذيان السخيف، كنت تقول لي شيئًا بخصوص معطفي.

غرس "إرنستو" الملعقة في مربى التين وأعادها إلى فمه ولعقها من الناحيتين، ثم وضعها، وابتسم إلى والدته ونهض متجهًا إلى غرفته. وقال:

- آه.. نعم، معطفك.. غدًا يمكنني أن آخذه إلى المغسلة، سأمر من أمامها في كل الأحوال.



أبريل

فيروس مُميت



كان "فيديريكو سيربييري" يشعر بالسوء يزداد يومًا بعد يوم. خشي من استسلامه لمشاعره. ذلك التحوُّل في مشاعره لا يشعره بالراحة. كان يريد أن يهرب من المجتمع البشري كله. لم تحسِّن الطبيعة التي تزدهر بعدة ألوان والمناظر الخلابة حوله من حالته. فكل شيء يتآمر ضده حتى ضوء الصباح الباكر بدا وكأنه يحاول إحباط كل محاولاته لهجر العشق. وعلى الرغم من مبادئه، لم يستطع الأستاذ أن ينجح بأي طريقة في البقاء بعيدًا عن "تشيتشيليا".

ففي الأيام التي كان من المفترض أن يتقابلا فيها، كان الأستاذ بعد أن يكون قد اختار أفضل معاطفه المصنوعة من الكتَّان والقميص المكوي والحذاء المناسب، يتوقف فجأة عن كل تجهيزاته. فما إن يصل إلى السلم، حتى يتراجع إلى الخلف مسرعًا ويغلق على نفسه البيت، ثم يأخذ على الفور مهدئًا، بعدها يحاول – مثل "أوديسيوس" وهو محاصر من عرائس البحر – أن يقاوم بعدة طرق عواطفه التي تغريه. كان يستمع إلى ألبوم "بوهيم" بصوت مرتفع للغاية، أو يصحح بعض الواجبات، أو ينظِّف بجنون فروة "فلاك" المسكين. كلها محاولات يائسة يقوم بها كي يشغل ذهنه ويتخطى موعد لقائه مع "تشيتشيليا".

فجأةً، يخطر في باله احتمالية أن يفقدها، وعندئـذٍ يأتيـه القلـق مـصحوبًا بالـذعر. فكـان يوقف كل ما هو منشغلٌ به ثم يخرج دون معطف، وقميصه مكرمش، وحـذاؤه غـير ملمـع. بعدئـذٍ يجـد "تشيتـشيليا" دائمًـا هنـاك، بنظرتهـا اللامعـة، في مكتـب صـديقتها الـذي أصـبح مخبأهما. كانا ينزعان ملابسهما في ثوانٍ قليلة ويمارسان الحب لفـترة طويلـة حتـى يتعبـا، ثـم يستأنفان ذلك مجددًا، ويستمران على هذا المنوال طوال فترة الظهيرة.

يعود فضل تلك الطاقة الجنسية إلى الصيام الجنسي الطويل الذي قـادهما دون أن يـشعرا لدرجة أنهما قاما بأوضاع أكثر اشتعالًا، وفي أكثر من مرة تأكد "سيربييري" من أن البقعة "چي" موجودة بالفعل. كان ذلـك يبـدو قمـة الـسعادة الغراميـة لكلـيهما، ومـع ذلـك عنـدما كـان يتوقفان عن ممارسة الحب، كان كلٌ منهما يحتضن الآخر. وفي لحظـات الـصمت تلـك، كانـت "تشيتشيليا" تفهم المعاناة الداخلية للرجل المستلقي بجوارها.

لم يرتح "فيديريكو سيربييري" في السرير مطلقًا، فهو يشعر بأنه كاذب، كما أن تلك النظرة الحزينة، وأحضانه التي بها شيء من الإحباط، والدموع التي تملأ عينيـه فجـأة، كـل هـذا كـان دليلًا واضحًا لـ"تشيتـشيليا" عـن معاناتـه. لم يكـن لكـلٍ مـنهما زوج أو زوجـة لخيـانتهما، ولم يشكل أولادهما مشكلة لهما، حيث تقابلا في العمـر المناسـب، بعـد أن التأمـت جـراحهما، إذًا فما المشكلة. كما أنه من المحتمل أن كلًّا منهما كان يبحث عن الآخر منذ زمن بعيد. لم تفهـم "تشيتشيليا" عل الإطلاق لماذا لا يستمتع عشيقها مثلها بهذه الفرصة الرائعة.

قال "سيربييري" لها في أحد الأيام بينما يرتدي ملابسه:

- عزيزتي "تشيتشيليا"، لن آتي إلى المدرسة لبعض الوقت، لقد طلبت إجازة.

كانت "تشيتشيليا" لا تزال عارية تحت الملاءة، لكنها بسماعها ذلك الخبر انتفـضت واقفـة مثل الدمية التي تخرج فجأة عند فتح صندوق الموسيقى الصغير.

- لم تقل لي شيئًا عن ذلك من قبل.. هل حدث شيء؟

يمكنها أن تقسم على أن لا شيء يمكنه أن يفرِّق بين "فيديريكو سيربييري" والتدريس سوى الموت.

اقتربت من عشيقها محاولة أن تجعله ينظر إليها.

- إذًا؟

كان الأستاذ يزرر قميصه وهو ينظر إلى الأرض.

- اسمعيني، أحتاج إلى الوحدة.. حتى أفكر في أمرنا نحن الاثنين، وفي هذه النار التي تلتهمني ولا تتركني في سلام.

اعتادت "تشيتشيليا" على اللغة المجازية التي يتحدث بها "سيربييري"، فقالت:

- لست متأكدًا من أنك تحبني. الأمر بسيط وواضح.

حمل الأستاذ يد عشيقته إلى شفتيه، يائسًا.

- يا محبوبتي، لا تفكري في هذا ولو للحظة. أطلب منكِ فقط أن تتركي لي الوقت كي أفهم مشاعري بشكل أفضل.

كان بوسع تلك الشكوك أن تجرحها، لكن "تشيتشيليا"، على العكس، أصابها الفضول ولم تقلق بشأن ذلك على الإطلاق.

- أتفهم ذلك؛ فمعرفتك كانت أمرًا مفاجئًا لي أيضًا. خذ كل الوقت الذي تحتاجه.

بعد أن ارتفعت معنوياته بسبب رد فعلها الهادئ هذا، انتهى "سيربييري" من ارتداء ملابسه وانطلق نحو الباب. "تشيتشيليا" تعرف أن نيته ليست سيئة، وأنه لا يفعل هذا طمعًا في جسدها، ففي كل مرة كانت تنظر إليه، يزيد تأكدها من سلامة نيته.

- انتظر يا "فيديريكو".

أخذت "تشيتشيليا" كوفيتها ولفتها حول رقبته.

- احملها معك. أرجوك.

ثم قبَّلته برقة على شفتيه. رد "سيربييري" القُبلة، بينما يسحب الكوفية الحرير من رقبته بيده، ثم ابتعد عن فم "تشيتشيليا"، ووضع الكوفية في جيبه مستسلمًا استسلام شخص محكوم عليه بالإعدام شنقًا ويحمل معه الحبل الذي سيُشنق به. بعد تلك القُبلة الأخيرة، خرج "فيديريكو سيربييري" من مخبأ الحب وبقيت "تشيتشيليا" هناك وحيدة.

***

في صباح دافئ لأحد أيام الربيع، أخذ "چيبّو" ينظِّف صورة "أوديليا" بعناية وحب بمنديل بلَّله بلُعابه. جلس "بييترو" في المقعد الأول، بحوزته مسطرة وقلم رصاص، كان يدق الكتاب وحقيبة الظهر كما لو كانا طبلتين. على الرغم من انشغاله بما يفعله، إلا أنه كان يقظًا ويتابع بتركيز ما يفعله زميله.

توقف "بييترو" عن دق كتابه وحقيبته، وقال:

- هل يمكنني معرفة ما تقوم به؟

أجابه "چيبّو" دون أن يتوقف عمَّا يفعله:

- إن تركها هنا فسيعود عاجلًا أم آجلًا. أليس كذلك؟

ظل "بييترو" مندهشًا من الإخلاص والتفاني اللذين يحملهما صديقه، المعادي دائمًا للعواطف، لذلك البرواز الذي يملكه "فيديريكو سيربييري".

قال "بييترو":

- لعله تركها ذكرى، لو أن لديه الأصل.

تدخَّل "بييرلويچي" في الحوار قائلًا:

- أخيرًا، تركنا وذهب.

في اللحظة نفسها وقع بصره على "چورچو" الـذي بمجـرد أن دخـل، وضـع حقيبتـه تحـت المكتب.

بات واضحًا للجميع أن الأستاذ لـن يـدخل الفـصل اليـوم أيـضًا. جلـست "مارتـا" في آخـر الفصل تقرأ لإحدى زميلاتها موضوع التعبير الذي كتبته عن الخيانة. كان معدًا ومنظمًا بشكل جيد، لكن الطالبة أدركت بشيء من الأسى في ذلك اليوم أنه لا يوجد مَـن يمتـدحها عـلى ذلـك العمل.

على بعد أمتار قليلة، تحلقت مجموعة من الطـلاب حـول مقعـد "چوليـا"، كانـت تحـت الاستجواب الشديد.

- ليس لديَّ ما أخبركم به؛ فهو لم يخرج من مكتبه لعدة أيامٍ الآن، وغالبًـا يتنـاول وجباتـه بالداخل. على أي حال، أنا لا أقابله قط. والآن كفُّوا عن الوقوف عندي.

في اللحظة نفسها التي نهضت فيها "چوليا" غاضبة من ذلك الحصار، دخلت امرأة شديدة النحافة في الثلاثين من العمر تقريبًا. ألقت التحية دون أن تنظر لأحد، ثم اتجهـت مبـاشرة إلى مكتبها. استقبلها الطلاب ببرود و"چورچو" كالعادة سبق الآخـرين ورحـب بهـا عـلى طريقتـه، قائلًا:

- أستاذة، حضرتك أخطأتِ الفصل.

تفحصته المرأة من فوق نظارتها.

- لا أظن ذلك على الإطلاق، فأنا الأستاذة الاحتياطيـة لفـصل 3/2. ألـيس هـذا هـو فـصل 3/2؟

اندهشوا من كلامها، فوجود تلك الدخيلة يؤكد طول فـترة غيـاب "فيـديريكو سـيربييري"، لذا فهم لم يرحبوا بهذا الخبر الجديد.

- أستاذكم ليس بحالة جيدة، ولحين تعافيه سأكون أنا معكم.

وقع نظرها على البرواز وبه صورة "أوديليا"، أخذته بين يديها مندهشة وسألت:

- ومَن تكون هذه؟

ارتفعت صرخة من المقعد الأخير:

- لا تلمسيها!

اندفعت "مارتا" نحو مكتب الأستاذة ونزعت من يدها البرواز، ووضعت صورة الطفلة في الدرج. تراجعت الأستاذة مفزوعة، بينما عادت الفتاة إلى مكانها بعد هذه الحركة الخاطفة.

أخبرها "چورچو" بكل هدوء:

- هذا الشيء ملكٌ لأستاذنا.

ظلت المرأة في حالة من الفزع، فتلك الطالبة انقضت على البرواز كما لو كانت أحد فرسان الهيكل وهو ينقض على الكأس المقدسة. على أي حال تلك الفتاة فعلت ذلك دون أدنى احترام لأحد أعضاء هيئة التدريس.

سألت الأستاذة البديلة بكل حسم، مصممة على ألا يتم ترويعها:

- عند أي درس توقفتم في المقرر؟

همس "بييترو" بشيء في أذن "چورچو".

قالت المدرسة:

- يا أولاد، لا أظن أنني طرحت عليكم سؤالًا معقدًا. أليس كذلك؟

استقيظ "ماركو" فجأة وتحدث بصعوبة بفم متلعثم:

- العلاقة بين اثنين مرتبطين والخيانة.. نحن هنا...

ثم أكمل نومه.

- يبدو أنني لم أفهم.

عبست الأستاذة، فقد كان أولئك الأولاد أكثر غرابة مما سمعت عنهم، ثم أخذت تنظر في ساعتها بقلق. تولى "چورچو" زمام الأمور ذلك الصباح وقال:

- الأستاذ "سيربييري" قسمنا إلى مجموعات دراسية. أنا أعددت بحثًا عن الاقتصاد في ولايات الجنوب أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، وكان من المفترض أن أعرضه اليوم على زملائي.

أشارت الأستاذة البديلة بالموافقة على استحياء وتركت المساحة للطالب ذي الزي المهندم والواثق من نفسه، والذي ذكَّرها بشكل مخيف بالمشرف العنيد الصعب الذي ناقشها في بحث التخرج. قالت:

- إن كان الأمر هكذا، فحسنًا... تفضَّل، قف أمام المكتب.

بمجرد أن بدأ "چورچو" الحديث، حتى أخذ "بييرلويچي" يقوم بكل طريقة إزعاج ممكنة من قهقهات وتعليقات بصوت مرتفع ومقاطعات متكررة غير مناسبة. في النهاية، نجح في تحقيق غايته وطردته الأستاذة الشابة خارج الفصل، ثم أرسلت أحد زملائه لاستدعائه، لكن لم يعد هناك أي أثر لـ"بييرلويچي فلاميني" في الممر. بعدها بقليل، لمحته "مارتا" من النافذة واقفًا في الشارع يتحدث مع أحد مروجي المخدرات الصغار في الحي. تمنت أن يبقى ذلك الزميل المزعج في مكانه طول النهار، ويا حبذا لو بقي أطول فترة ممكنة حتى يأتي البوليس ويقبض عليه.

بينما يستكمل "چورچو" درسه ويتابعه زملاؤه مستسلمين، كان الناظر في الطابق الأسفل يفكر بتأمُّل في توالي المصائب عليه. كان أفضل الأساتذة في المدرسة يتساقطون كما لو أن وباءً قد أصابهم؛ فهو لم يكد ينتهي من الشعور بالبهجة بسبب عودة "تشيتشيليا باسّاني" حتى مرض "فيديريكو سيربييري" فجأة. كان بين هذين الاثنين كثير من الأشياء المشتركة: حب التدريس، والإعداد

الـذي لا يمكـن الجـدل فيـه، وللأسـف، سـهولة التعـرض للأمـراض. لا بـد أن صـحة الأسـتاذ "سيربييري" في حالة سيئة للغاية حتى يطلب إجازة وامتحانات الثانويـة عـلى الأبـواب. كانـت هناك حاجة كبيرة إلى توازنه الملائم للأمور، ثم إنه حقق معجزة حقيقية في فـصل 3/2. أولئـك المشاغبون كانوا يتعلمون في الواقع بطريقة دراسية جامعيـة، وكونـه نـاظرًا شـعر بكبريائـه في حالة ازدياد.

وقف يتأمَّل الفناء الجديد للمدرسة، فناء بسيط ومحدد ومناسب جدًّا لمعهد ذي مستوى معين، مثل مستوى "مدرسة مورجانتِه". على اليمين، وقف بعـض أوليـاء الأمـور انتظـارًا للقـاء الأساتذة. العديد من العائلات لديها أكثر من ابنٍ ملتحق بالمدرسة. بدأ الناظر يتخيل مـشروعًا للأعوام المقبلة. بما أن الأستاذ "سيربييري" له فائدة قيمة للغاية، فيجب استغلال وجوده بـأكبر شكل ممكن. فهو مثل الدواء الذي يشفي من أمراض مزمنة. كانت الفصول المشاغبة تـستفيد من أسلوبه، وبالتالي تستطيع المدرسة الانتفاع بهذا وزيادة عدد الملتحقين. عليه فقـط انتظـار عودته وإيجاد طريقة للإبقاء عليه في المدرسة.

***

لم يتخيل "فيديريكو سيربييري" وهو يسكب بعـض الحليـب في فنجـان ابنتـه أنـه يجـسد الآمال الكبيرة لمدير المدرسة. لم يتغيب سوى أيام قليلة، لكن ضميره كان يؤنِّبه لهروبه.

قالت "أوديليا" وهي تضع قطعة من البسكويت في فمها:

- أنا سعيدة لأني لم أعد أذهب إلى تلك الحضانة.

رد عليها والدها وهو يضع الزبدة على قطعة من الخبز:

- وأنا سعيد لأني أقضي وقتًا أكثر معكِ.

- جميعهم كانوا سخفاء.

- إضافة إلى ذلك كان ينقصهم الحس الجمالي.

شرب الأستاذ الشاي الخاص به.

قالت الطفلة:

- يقولون إن "چوليا" هي مَن رسمت هذه الرسومات.

- في تلك الحالة فإن "چوليا" ماهرة جدًّا، هل لاحظتِ الدقة والجمال التي رسمت بها آثار الأقدام الصغيرة تلك؟

- كانت جميلة للغاية. لقد تعرفت على كل الحيوانات. هل تعرف ذلك؟

- أنا سعيد بذلك.

قبَّل الأستاذ رأس ابنته. ركضت الطفلة إلى غرفتها لتحضر ألوانها، بينما أعاد "سيربييري" التفكير في رسمة الحائط التي عبَّرت المديرة عن غضبها بخصوصها بحدة غبية. تلك البقع الداكنة تخفي رسالة قوية.

"چوليا" فتاة رائعة مثل كثيرين من زملائها. كان متألمًا لأنه خيب آمالهم، لكن الأزمات تتلاحق بكثرة وبسرعة.. تقريبًا كل ثلاثين دقيقة. فبينما كانت "أوديليا" منهمكة في اللعب، كان يهرول إلى دولابه ليأخذ الكوفية التي تركتها له "تشيتشيليا"، ويغرق وجهه فيها ليستنشق رائحتها بجشع شخص مريض. كانت أزمات الصيام عن الجنس تضربه في لحظات غير متوقعة.

لو أن طلاب 3/2 شاهدوه في تلك الحالة، لفهموا خطورة الموقف. لم يكن صغاره يستحقون أن يُتركوا وحدهم، لكن كيف يمكنه إفادة غيره وهو في تلك الحالة؟

مايو

الحب لم يعد مناسبًا



تعبت "تشيتشيليا" من الانتظار. فالفترة التي أخذها عشيقها للتفكير طالت أكثر مـمًّا هـو متوقع، ومرور أسبوعين كاملين دون معانقته يفـوق احتمالهـا. وهكـذا بعـد أن غلبتهـا لوعـة الاشتياق، في يوم من أيام الربيع المـضيء بـشكل غـير عـادي، وصـلت "تشيتـشيليا" سـيرًا عـلى الأقدام إلى منزل "سيربييري" ووضعت في صندوق البريد رسالة قصيرة، لكن ضرورية:

"فيديريكو، يجب أن أراك على الفور، لقد حدث أمر ما".

إن لم يُجِبْ عليها خلال يومين، ستستنتج "تشيتشيليا" بذلك ما يثير قلقها.

وجد الأستاذ رسالتها في اليوم التالي. سيطر عليه القلق، فاتـصل بهـا عـلى الفـور. وبعـد أن اطمأن مـن أنهـا بحالـة صـحية جيـدة، وافـق عـلى مقابلتهـا ظهـيرة ذلـك اليـوم نفـسه. كـان "سيربييري" يعرف جيدًا المخاطر التي تنتظره بقبوله طلب مثل هذا، لكنه متأكدٌ مـن نجاحـه في عدم خوض تلك المرحلة من جديد. فبعد أسبوعين من البعـد، أمـل في تحـصين نفـسه مـن حبها. وهكذا خطط في ذهنـه المرتبـك بأنـه يقابـل "تشيتـشيليا" فقـط ليخبرهـا بنهايـة حالـة إدمانهما غير الصحية.

استمر على قناعته هذه طوال المدة التي استغرقها مشيًا حتى منطقة "چانيكولو". لكن، عندما لمح "تشيتشيليا" مقبلة عليه في زيٍ أبيض من القطن الخفيف، ودون أي مساحيق تجميل، وتشع منها العواطف مع المدينة في خلفيتها وكأنها إطارٌ لجمالها، أدرك بشيء من المرارة أن الموت فقط هو مَن سيحرره من ذلك الارتباط.

شعرت "تشيتشيليا" بالفرحة الغامرة، وبنظرتها المغرمة، قالت بلا مقدمات:

- اكتشفتُ شيئًا مهمًا يا "فيديريكو". أنا لا أستطيع الحياة بعيدًا عنك.

كان اعترافًا بالحب، لكن أمام عقل "فيديريكو سيرببيري" المعقَّد بدا طلبًا يائسًا لمساعدته، فأحس تجاهها بحنان لا نهاية له، لكنه يعلم أنه لا يستطيع تقديم العون لها، لأن الفيروس نفسه قد أضعفه وانتصر عليه المرض. امتلأت عينا الأستاذ بالدموع، والسعادة والألم، ودون أن يتفوه بكلمة احتضنها بقوة لدرجة أنه كاد يخنقها.

***

كان مطعم "ريڤولي" مغلقًا للإجازة يوم الأربعاء. يمكنك رؤية الموائد مفروشة بأدوات المائدة، والمطبخ الواسع مرتبًا وبه الأدوات مغسولة وفي مكانها، أمَّا الثلاجات فدائمة العمل وعيون البوتاجاز لامعة، فقط الجزء الأخير من مائدة الطهي الذي توضع عليه الأطباق الجاهزة كان يقدم في تمام الساعة الثالثة عصرًا لذلك اليوم شيئًا غير عادي.

كانت "ماريكا" – بجانبيها الضخمين اللذين لم يسترهما سوى مريلة كاروهات – جالسة وساقيها منفرجتين على حافة الطاولة، وأمامها "چيبّو" ببنطاله الساقط حتى رجليه يندفع بطاقة داخلها.

بدأ الاثنان بلعبة الطاهية والزبون، وبسرعة انتهى بهما الأمر متشابكين فوق الموقد.

- ضمني إليك.

كانت الأوكرانية المتينة تصيح باستمتاعها، وعلى الرغم من أن "چيبّو" لم يسمعها جيدًا بسبب خلل في طبلة أذنه، فإنه كان يحاول جاهدًا إمتاعها. كان العاشقان في حالة تناغم وقد وصلا إلى قمة المتعة عندما أخرجهما الصوت المزعج لتليفون محمول من حالتهما. عند الرنة الثالثة أخرج "چيبّو" وهو يلهث تليفونه المحمول من جيب بنطلونه الجينز بعد محاولات صعبة.

- "چو".. جئت في وقتك.. نعم. هل تظنني نسيت؟ سأصل في الحال.

أنهى باستعجال المكالمة، ورفع بنطلونه ثم ساعد "ماريكا" في إعادة تهيئة نفسها وملابسها، ثم تبادلا القُبلة الأخيرة كما لو كانت عضَّةً ثم اتفقا على موعد لقاء جديد في الأربعاء التالي.

كانت لـ"چورچو" أسبابه كي يقطع اللقاءات الشهوانية لـ"چيبّو"، فهو يتنظره منذ أكثر من نصف ساعة أمام معهد علوم الحاسبات "فورماترِيه"، وبعد أن انتهى من قراءة دراسة قصيرة لـ"جرامشي" كاد يتصل بصديقه للمرة الألف، عندما شاهده قادمًا من بعيد مرتديًا معطفًا بندقي اللون وبخطوات وقفزات غير منتظمة.

اتجه "چورچو" نحوه وهو يتأمَّل ملابس صديقه الغريبة. كانت خصل شعر "لويچي ريڤولي" – الذي جعلها السشوار لامعة – تبدو كعرف الديك، أعطته ملابسه لمحة من الرصانة، حيث ارتدى معطفًا ضيِّقًا يحدد شكل جسده، وتحته قميص برتقالي خفيف، ياقته طويلة بشكل مبالغ فيه، وكرافتة زرقاء اللون. كل هذا لم ينجح في إنقاذ الموقف والمنظر العام.

سأله "چيبّو" على الفور:

- كيف أبدو لك؟

فكَّر "چورچو" أن هذه ليـست اللحظـة المناسـبة لتـوبيخ صـديقه الـذي لا يثـق كثـيرًا في نفسه، فقال:

- أنت في أفضل حال.

- هكذا أفضل.

- "جوالتييري" ينتظرك. هل أنت مستعد؟

كان "چيبّو" قلقًا بسبب هذه المسؤولية التي تحملها، لكن "چورچو" كـان مقتنعًـا مـن أن صديق والده، عميد معهد علوم الحاسبات، سيستخلص بعض المميزات الجميلة عنـد مقابلتـه موهبة ربَّانية مثل "لويچي ريڤولي". أمَّا "چيبّو"، فكان واثقًا مـن أنـه عنـدما يقـدم "چورچـو" العون، فهذا يعني أنه جاد إلى أقصى حد.

صحبه "چورچـو" حتـى الـسلالم، وبعـد أن أومـأ لـصديقه عرفانًـا بالجميـل، قـرر "چيبّـو" الصعود وهو يحاول جاهدًا السيطرة على قلقه.

قرر "چورچو" انتظار صديقه في أحد المقاهي ومعه الـلاب تـوب الخـاص بـه، حيـث كـان ينوي إنهاء بحث صغير عن الثورة الأمريكية. وبعد ذلك بساعة إلا الربع وصل "چيبّو" ليقـف خلف ظهره.

سأله "چورچو" بشيء من القلق:

- إذًا ما الأخبار؟

- سارت الأمور بشكل جيد جدًا، "جوالتييري" هذا دمه خفيف والعام المقبل ربمـا يقبلنـي عنده، ويقول إني ماهر.

- كنت أعرف أنكما ستتفاهمان، فهو من النوع العملي.

تعانق الصديقان في سعادة.

- كفى حديثًا الآن عن المدرسة، فأنا على وشك أن أموت من العطش، هيا نذهب لنـشرب شيئًا يهوِّن علينا الشمس.

دخلا حديقة "ڤيلا پامفيلي". كان الهواء حارًا، وكان الاثنان في حالـة سـلام مـع العـالم، لأن أحدهما قام بعمل خيِّر، والآخر استفاد منه.

سأل "چورچو" صديقه وهو يركل بقدمه حجر صغير:

- كيف تسير الأمور مع "ماريكا"؟

- بشكل جيد. إنها تثيرني دائمًا.

- أوليس هناك شيء آخر؟

وجَّه إليه "چيبّو" نظرة لا تشوبها الهموم، وقال:

- هل تعرف أني فكرت في الأمر؟ في النهاية أنا متفق مع "سيربييري"، فالحب لا ينفعنا بأي شكل من الأشكال.

سمع "چورچو" في الفـترات الأخـيرة عـددًا مـن التـصريحات الطائـشة لدرجـة أن التحـوُّل النهائي لـ"چيبّو" إلى عقيدة "سيربييري" لم يدهشه كثيرًا.

- ربما يكون الأمر هكذا، لكنك بسبب "ماريكا" تأخرت عن موعد مهم، فمن الواضح أنـك تحرص عليها.

- يجب أن تفهم أنني أحب رؤية "ماريكا" دائمًا أمامي. إنها مجتهدة، هل تعرف ذلك؟ ثم إن رائحتها تعجبني، فهي تشبه رائحة الكراث والبصل والثوم، لا أعرف.. هي تذكرني بالأوقات التي كنت أقضيها وأنا صغير وأنام دائمًا في مطبخ المطعم.

- لكن على الأقل لديها عيب ما. أليس كذلك؟

- لا أعلم.. ربما، لكنني لم أجده بعد.

ظل "چيبّو" يفكر في ذلك الأمر لبضع ثوانٍ.

- على أي حال، أنا أؤمن بما يقوله "سيربييري"، بأنه من الأفضل ألا نثق. لا بد أن هناك سببًا دفعه ليقول لنا هذا، فهو متميز جدًّا ولا يمكن أن يقول ذلك بالمصادفة.

هكذا أنهى "چيبّو" كلامه مقتنعًا.

كان "چورچو" مستمتعًا بحديث صديقه الذي لا يستطيع تمييز الحب، وبالتالي لديه الحرية التامة في اتباع أي نظرية تسيء للحب.

سار الاثنان دون وجهة محددة وهما يتحدثان ويمزحان. عبرا مناطق منخفضة، متذوقين لحظة نادرة من الاتحاد مع الطبيعة، ولكن لو أن "چورچو" كان يعرف ما بانتظارهما في الطريق الضيق المنعزل الذي يسيران فيه، لقام بالدوران للخلف عائدًا من حيث أتى.

كانا مختبئين خلف شجرة، منعزلين عن الآخرين، لكن ليس بما يكفي. وقف رجل وامرأة يتبادلان القُبلات بحرارة ملتهبة. وقد رآهما "چيبّو" أولًا.

قال "چيبّو" وهو يلقي نظرة بغيضة على العاشقين:

- "چو"، انظر هناك. هل تعتقد أنهما في مثل عمرهما هذا ليس لديهما مكان يذهبان إليه لفعل أشياء كهذه؟

- آآه، ولكن عندما تسيطر عليك العاطفة في لحظات معينة فإنك تنسى كل شيء.

- تخيَّل لو اتصل به صديق على تليفونه المحمول في هذه اللحظة. هل تتخيل ذلك؟

لم يتمالك "چورچو" نفسه وانفجر في الضحك. في الوقت نفسه، كان يحاول رؤية وجه الرجل الملتصق بوجه المرأة. لم يكن ذلك الأمر خيالًا، ولكن حقيقةً، فذلك العشق كان يوحي بالحرمان، لكن عندما أدار الرجل غير المعروف وجهه، ظهر وجه رفيقته. فوجئ "چورچو" بمَن رآها، وكانت الغلبة أخيرًا لعنصر المفاجأة.

قال "چورچو" بشيء من العجلة:

- هيا نذهب من هنا الآن.

لكن "چيبّو" ظل منزعجًا ممَّا رآه.

- لا.. لا يمكن أن نتركها هكذا معه، فلنفهم أولًا ماذا يفعل بها.

بدا "چيبّو" قلقًا على المرأة، لكن فضوله جعله يثبت في مكانه بلا أي نية للتحرك من مكانه.

أصر "چورچو" قائلًا:

- أرى أن الوضع مفهوم تمامًا.

ثم حاول أن يجره بعيدًا، ولكن في المواجهة بين فضول وقح وتحفظ النبلاء تظهر الطباع المختلفة، فبينما كان يتجادل الفتيان، أعلى "چيبّو" من نبرة صوته دون أن ينتبه.

انتبه الأستاذ إلى وجودهما قبل "تشيتشيليا". وبالنسبة له كان الأمر كما لو قابل الشيطان على كرسي الاعتراف.

قال "چيبّو":

- صباح الخير، يا لها من صدفة. أليس كذلك؟

حاول "چيبّو" أن يتصرف بتلقائية ويبتسم أمام النظرة الحائرة لمدرسه. لاحظت "تشيتشيليا" بدهشة التعبير المضطرب لعشيقها. كانت هي أيضًا منزعجة، فقد فاجأها صديقان لابنها وهي غارقة في العشق، وأحدهما تعرفه منذ كان طفلًا، ومع ذلك فهما ليسا سوى "لويچي" و"چورچو"، لماذا إذًا

توجد تلك النظرة المليئة بالذنب في عيني رفيقها. لم تكن تفهم لماذا ترى في نظرة رفيقها انعكاسًا لـ"تشارلز مانسون"[8] وعبدة الشيطان.

قال "سيربييري" بصوت خافت وعيناه ممتلئتان بالرعب:

- يا أولاد اعذروني كثيرًا.

اندهش "چورچو" من رد فعل أستاذه، فالاختفاء من أمامهما على الفور هو الطريقة الوحيدة لإنهاء الأزمة الحالية.

قال "چورچو":

- اعذرونا أنتما. سنذهب من هنا حالًا. أليس كذلك يا "چيبّو"؟

بدا "لويچي ريڤولي" نادمًا على تطفله، لكن على أي حال، بدأ "سيربييري" يتراجع كما لو كان أمام مجموعة من الأشرار، وكأنه يريد عقاب نفسه بالجلد.

أخذ الأستاذ يهمس قائلًا:

- أنا لا أستحق العفو يا أولاد، واعذريني يا "تشيتشيليا" إن استطعتِ...

ندم "چورچو" على عدم حصوله على رقم الدكتور "كونسورتي"، أمَّا "چيبّو" فلم يستطع تقبُّل فكرة أن ذلك الرجل المفزوع هو نفسه مَن دلَّه على طريق النجاة. حاولت "تشيتشيليا" أن تجد تفسيرًا وراء ذلك التصرف الغريب للرجل الذي أغرمت به.

تحدثت إليه قائلة:

- "فيديريكو" ماذا يحدث لك؟ ففي نهاية الأمر لم يحدث شيء خطير كما تتخيل.

(8)- مجرم أمريكي أُشتُهِرَ في أواخِر الستينات بعمليات القتل التي قامت بها عصابته (عائلة مانسن).

طغى الارتباك على أستاذهم؛ الذي أصابته حالة عنيفة من الـذهان أضـعفت قدرتـه عـلى التصرف والتفكير المنطقي، فصورته كمنقذ لهؤلاء الشباب أصبحت وهمية.

قال "سيربييري" بصعوبة بالغة:

- "تشيتشيليا"... ربما لا يمكنك رؤية هذا، لكنني رجل حقير.

ألقى نظرة بائسة على الفتيان، ثم ركض بعيدًا.

نادته "تشيتشيليا" عدة مرات قائلة:

- "فيديريكو"، أين تذهب؟!

لكن كل ذلك لم يكن ذا فائـدة، فقـد اختفـى "فيـديريكو سـيربييري" بـين الأشـجار، بيـنما تشبثت هي بهذين الشاهدين على ما حدث مثل غارق متشبث بصاري الـسفينة في مواجهـة العاصفة.

قالت "تشيتشيليا":

- ماذا يحدث يا أولاد؟

كان من النادر أن يظل "چورچو" صامتًا دون أن ينطق بكلمة، لكن ما حدث أمـامهم الآن كان بالفعل إحدى تلك اللحظات النادرة.

قال "چورچو":

- "تشيتشيليا".. لا أعرف ماذا أقول، فقد فاجأنا نحن أيضًا، أليس كذلك يا "چيبّو"؟

- تمامًا، هيا يا "چو"، أخبرها بالأمر.

كان المزاج المتقلب لأفضل صديقة لوالدة "چورچو" مع عدم قدرتـه عـلى الكـذب خاصـة أمامها هو ما جعله يحكي لها كل شيء من البداية.

قال "چورچو":

- إن "فيديريكو سيربييري" ليس بخير حال.

شحب وجه "تشيتشيليا"، وأخذت تنتقل بعينيها من فتى إلى الآخر، وبتوسل، قالت:

- هل يمكن أن يكون شيئًا خطيرًا؟

- لا، ابقي هادئة؛ فالجسد كما ترين في حالة ممتازة، ولكن...

قاطعه "چيبّو" قائلًا:

- إنها رأسه التي لا تعمل جيدًا.

بدأ الظلام يهبط على الحديقة شبه المهجورة. وقف الصديقان على جانبي "تشيتشيليا" وأخذاها تحت ذراعيهما مثل ملكين حارسين وقاداها نحو مخرج الحديقة وهما يحاولان مساعدة خطواتها المتزعزعة.

وضع "چورچو" يده في جيبه ليخرج منديله ويتأكد من نظافته قبل أن يعطيه لها، وقال:

- إنه أستاذ متميز، لكن أفكاره مهووسة بعض الشيء.

أضاف "چيبّو" قائلًا:

- لكن طبيبه النفسي يقول إنه الآن بحالٍ أفضل...

عندما سمعت "تشيتشيليا" هذا الكلام تعرقلت لأول مرة.

حكى الصديقان القصة بداية من الدرس الأول حول مخاطر الحب. وتحدثا عن "أوديليا" ولقائهم مع الطبيب، وعن العلاقة بين "إرنستو" والأستاذ. كان أحدهما يقص، والآخر يكمل ما بدأه صديقه في محاولة لتسليط الضوء على الحالة

الطبيعية للأستاذ. كما ذكرا الخطاب الكريم الذي كتبه الأستاذ لوالد "چيبّو"، وإنقاذ "إرنستو" ذلك اليوم الذي فقد فيه وعيه بعد إفراطه في شرب الخمر.

بدأت الأمور تتضح أكثر أمام "تشيتشيليا"، فالرجل الذي أُغرمت به لديه قلب كبير، لكنه مجنون، وبينما كانت مستمرة في سيرها بخطوات مترنحة اقتنعت بأن ذلك النوع من الرجال المعروف بالأناني الحكيم، أكثر طمأنينة. وعلى الرغم من جهود الصديقين لإيضاح الأمور لها وتبسيطها قدر الإمكان، إلا أن "تشيتشيليا" رأت الأرض تتشقق تحت قدميها وصدع يبتلعها نحو سرير من الكلينيكس مجددًا.

كانت غرفة الصالون المضيئة غارقة في صمت غير طبيعي. الستائر المغلقة منعت دخول الشمس الدافئة، والتي على الرغم من ذلك، تسللت عبر ثنايا الستائر لتزعج "إرنستو" الذي كان يحاول أن يؤلف قصيدة في فترة الظهيرة. قاده الإلهام إلى مكتبه، لكنه سرعان ما هرب منه ليتركه لأفكار أكثر واقعية. فالمأساة الدرامية التي حدثت قبل عدة أيام عند نهاية حديقة "ڤيلا پامفيلي" لم يعرف بها سوى الأصدقاء المقربين فقط. فضلت "تشيتشيليا" عدم الحديث عن ذلك مع أحد، وفي تلك الظهيرة بمجرد أن عادت من المدرسة، جرت لتغلق باب غرفتها عليها. وعلى الرغم من فهمه لخيبة أمل والدته، كان "إرنستو" صافي الذهن، فتلك الصدمة النفسية المؤلمة ساعدتها كي تكوِّن صورة شاملة لطبيعة "فيديريكو سيربييري" المعقدة.

كان متجهًا إلى المطبخ، عندما سمع أمه تنادي عليه من غرفتها. كان مستعدًا لما هو أسوأ، لكن بمجرد أن دخل غرفة نومها كانت بانتظاره مفاجأة سارة. صحيح أن "تشيتشيليا" كانت نائمة على ملاءة السرير، لكنها مرتدية ملابسها بالكامل وبيدها رواية، لم يلحظ "إرنستو" وجودًا للكلينكس. حدقت والدته فيه وهي تفكر بعمق.

قال "إرنستو" مدافعًا:

- حاولت تحذيرك.

اعتدلت "تشيتشيليا" في جلستها، وهى تنتزع نظارتها وتغلق الكتاب. قالت:

- لا أريد الحديث عن "فيديريكو"، عندي سؤال سأطرحه عليك.

خشي "إرنستو" من معرفة ما أرادت السؤال عنه، لكن والدته بدت واثقة وحاضرة لتشعره بالهدوء.

قال "إرنستو":

- تكلمي على راحتك.

- مع مَن ذاكرتم التاريخ والفلسفة طوال هذه الشهور؟

أدرك "إرنستو" النبرة الفضولية الخاصة بالأستاذة وشعر بنفسه مشفقًا على المصير الوظيفي لـ"سيربييري". ثم قال:

- ذاكر "چورچو" النصوص الجامعية لـ"سيربييري"، وفي كل يوم إثنين كان يجمعنا في منزله. ربما حكت لكِ "ليڤيا" عن ذلك. كما يمكنكِ أن تتخيلي، نحن مستعدون لامتحان الثانوية قبلها بعام.

لم تعلق "تشيتشيليا" لأنها كانت قد كونت القصة بمفردها، لكنها رأت أنها لحظة مناسبة كي تثبت لابنها أنها على الرغم من جروحها العاطفية، فإنها لا تزال تستطيع متابعة سيره في الدراسة المدرسية. وسألته:

- وماذا كنت تفعل الآن؟

- كنت أحاول أن أكتب شيئًا.

- إذًا اذهب، ولا تُضِع الوقت، وأنا سأستريح قليلًا، لديَّ صف من الواجبات التي يجب عليَّ تصحيحها.

لمَّحت "تشيتشيليا" له بأنها تريد البقاء وحدها، وانطلق "إرنستو" نحو البـاب وقلبـه أكـثر صفاءً، بينما فتحت والدته الرواية مجددًا.

عندما خطا "إرنستو" بأحد قدميه عتبة الباب، قالت "تشيتشيليا" فجأةً:

- يجب أن يساعده أحد.

- لديه طبيب نفسي يتابعه.

- آه، فعلًا. هذا حقيقي... أتمنى أن يقوم بعمله جيدًا.

كانت لدى "إرنـستو" شـكوك قويـة فـيما يخـص ذلـك، ولكنـه تقبَّـل بكـل سرور اهـتمام "تشيتشيليا" بالأستاذ "سيربييري"، ثم تركها وحدها.

تركت "تشيتشيليا" الرواية، واستدارت على أحد جانبيها. أغلقت عينيهـا، وعـادت بـذهنها تفكِّر في حبها الذي خذلها من جديد. فهي لم تجد أبدًا عشيقًا مغرمًا بهـا هكـذا، كـما تـذكرت الفتيان وهما يحاولان إقناعها بأن الأستاذ ليس مجنونًا، وغير كل هذا، ها هي ترى من جديـد شيئًا من الحماس في عيني ابنها. كان هذا بالتأكيد بفضل "فيديريكو سـيربييري"، لكـن هـذا لم يغير الموقف، ليس لها نصيب مع الرجال، كانت متعبة من الأمل والمعاناة.

على كل حال، لم تؤمن أبدًا بالمعجزات. نامت الساعة الثالثة عصرًا، مقتنعـة بأنهـا والحـب لن يتقابلا مجددًا أبدًا.



يونيو

عدالة السماء



حمل العام الدراسي في نهايته وعودًا وتنبؤات مأساوية، وأيًا كانت فقد كان كل مَن يـتردد على "مدرسة مورجانتِه" يعد الأيام التي تفصله عن النهاية.

كـان "چيبّـو" واثقًـا مـن أن الرسـوب الثـاني ينتظـره، لكـن بإمكانـه الآن أن يـضع آمالـه المستقبلية في البرنامج الدراسي لعلوم الحاسبات. شـارك "بييرلـويچي فلامينـي" "چيبّـو" المـصير نفسه، لذلك كان ينوي تغيير المدرسة، متنازلًا عن فرحته برؤية "فيديريكو سيربييري" محبوسًـا في مستشفى المجانين. أمَّا "چورچو" فكان يخطط لزيارة جامعة "كينت" في شـهر أغـسطس في مدينة "كانتربيري"، أمَّا الجزء الأكبر مـن طلبـة 3/2 فتوقعـوا بقـاءهم برفقـة كتـب اليونانيـة واللاتينية والرياضيات غير المرغوب فيها في الإجازة الصيفية. يوجد فقط ما يقـرب مـن عـشرة من الناجين المحتملين من النتائج المعلقة التي هي بالنسبة لهـم أحـد أسـاليب الإعـدام، كـان أولئك الناجون يستعدون لصيف حار بعيدًا عن المشكلات المدرسية.

فيما يخص طـلاب الثانويـة لفـصل 3/3، تـسبب اختفـاء الأسـتاذ الـذي كـان يبعث الطمأنينة في نفوسهم أكثر من غيره من أعضاء التدريس في ليالٍ يـسودها الأرق، لكن "سيربييري" كان قد حبس نفسه في قبو منيع، حيـث قـضى أول أيـام

الصيف في مكتبه يكتب تلالًا من الخطابات، أحدها موجهًا إلى "چورچو جريجور"، طلب فيه من التلميذ الماهر أن يساعد طلاب السنة الثالثة في الاستعداد لامتحانات الثانوية. ثم كتب خطابات توصية من أجل الطلاب الأكثر تميزًا. ومن حينٍ لآخر كان أحد حيوانات المنزل ينجح في التسلل إلى مخبئه، لكن عندما كانت أسنان الأرنب تقترب من نصوص فلسفية قيمة لـ"فيديريكو سيربييري"، لم يكن يهتم الأستاذ بإبعاده.

نظرًا لأن طاقته قلت حتى ليهتم بابنته، شجَّع الأستاذ "چوليا" على إدخال البهجة على حياة طفلته بأي وسيلة متاحة، شرط أن تكون بطرق مشروعة. ووافق حتى أن تصطحب "چوليا" "أوديليا" إلى مدينة "ميلانو" لتقوم بزيارة والدتها، ثم استقبل بعدها بلا مبالاة لوم "دورينا" بسبب الأسلوب غير التقليدي للغاية لجليسة طلفتهما، تلك الشابة القادمة من روما. في تلك الفترة فُتحت الأبواب لكل مَن هب ودب، وسُمح بوجود اجتماعات "جرينبيس" في صالون منزل "سيربييري"، ولم تشغل "أوديليا" بالها بهذا الدخول والخروج المستمر من كل أولئك البشر، ولم تشتكِ قط من غياب والدها.

في ظهيرة أحد أيام الأربعاء، كانت "چوليا" قد انتهت من عملها، عندما قابلت الأستاذ في الطرقة مرتديًّا روبًا من الحرير الأحمر، ولحيته تغطي خديه منذ بضعة أيام. وجدته الفتاة أمامها فجأة وقاومت المفاجأة بصرخة كتمتها.

قال "سيربييري":

- اعذريني يا عزيزتي لهذا المظهر المرعب، أود أن أسلمكِ خطابًا من أجل زملائكِ في السنة الثانية، وبعدها سأختفي من أمامكِ.

أعطاها الخطاب، وقبل أن تستطيع التلميذة أن تنطق بكلمة، تركها بابتسامة مؤلمة وعاد ليختبئ في مكتبه.

انتظرت "چوليا" بضع ثوانٍ قبل أن تقترب من الباب الذي اختفى خلفه، لتتجسس عليه من ثقب مفتاح الباب، لم تنجح سوى في رؤية فقط شيء أحمر. شعرت بالضيق، ووضعت الرسالة الغالية في حقيبة ظهرها وانطلقت ذاهبة إلى منزلها.

في الصباح التالي، كان عامل نظافة الطابق الثاني لـ"مدرسة مورجانتِه" شاهدًا على مشهد لا يتكرر. ظل جرس الفسحة يدق بتكرار ملح، لكن باب فصل 3/2 ظل مغلقًا. داخل الفصل، جلست "چوليا پراتيزي" على مكتب الأساتذة، وبقي زملاؤها جالسين في أماكنهم. وفي صمت تملؤه التوقعات والآمال، وبنفس شدة "ديجول" في خطابه التاريخي إلى الأمة، بدأت الفتاة تقرأ على الجميع خطاب الأستاذ متقلب المزاج.

"أعزائي الطلاب،

سامحوني لهذا الاختفاء الجبان، لكنني على الرغم من استمراري في الاقتناع بصلاحية نظرياتي، فإنني لم أعد جديرًا بنشرها.

تغلغل المرض، والآن، بعيدًا عن أصل العدوى، أجد نفسي في حالة سيئة.

أعلم أنه سيكون للوقت دوره في شفائي، لكن على العموم، الإحساس بالفقد يجعلني خارج هذا العالم.

بعضكم سيظن أنه قد حان لي الوقت كي أدرس لكم مادة التاريخ والفلسفة، وأتفهمكم، ولكن كما كان متوقعًا، ها هو المرض ينتزع مني الطاقة السليمة التي تمكنني من شرح الدروس.

أترون إلى أي حال يذهب بنا الحب؟

حظ طيب يا أولاد، وشكرًا لمودتكم واغفروا لي خيانتي، إن استطعتم.

فيديريكو سيربييري".

طوت "چوليا" الخطاب، بينما ارتفعت أصوات الاعتراض من الفصل بأكمله. وعلى الرغم من أن "بييرلويچي فلاميني" لم يكن يؤمن بالحوار كوسيلة للتواصل، ألقى نظره ليقابل نظر "چورچو" متحديًا إياه.

قال "بييرلويچي فلاميني":

- لقد خدعكم. هل فهمتم أنه مجنون؟ هذا ليس مستشفى للأمراض النفسية.

- ولماذا تبقى أنت هنا إذًا؟

كان "چيبّو" قد أعد قبضة يده، لكن "چورچو" أمسك بها عندما كان على وشك أن ينقض على زميله. حتى وإن أيّد بعضهم فكرة الدمج الاجتماعي للمرضى النفسيين، ففي ذلك الصباح الصيفي الحار لم تكن هناك أصوات تدافع عن "فيديريكو سيربييري".

أنهى "بييرلويچي" حديثه مقهقهًا:

- نتمنى أن يحبسه أحد، بعد أن يعطيه بعض الصدمات الكهربائية، ثم يلقي المفتاح بعيدًا.

فُتِحَ باب الفصل، واندفع منه الطلّاب خارجين، منهم من يشعر بخيبة الأمل، ومن يشعر بالإهانة، ومن يشعر بالقلق. تدفقوا نحو السلالم المؤدية إلى المطعم.

كان البرنامج الصيفي للأولاد يتلخص في تذكرة قطار دولي: برلين وأمستردام. رحلة لمدة أسبوعين في يوليو وبعدها يقضي كل منهم صيفه كما يحلو له.

واجهت "تشيتشيليا" دخول الفصل الدراسي الجديد في السنة وهي في حالة من الألم المركب. لكن هذه المرة، لم تكن لتترك مساحة للدموع والانتحاب. لم تكن امرأة مهجورة، لكن بالأحرى امرأة مستسلمة لقدرها وللواقع القاسي، لم تحصل على السعادة في الحب، وكان يجب عليها أن تعتاد على تلك الفكرة. سلّمت تعاستها ليدي "ليڤيا"، صديقتها المقربة دون مقاومة، ومثل الدمية،

سلَّمت نفسها لأصدقاء مقبلين على الحياة يجرونها إلى أي مكان قد يعيد إليها الحياة. وهكذا، خلال نهاية أحد الأسابيع، وجدت نفسها في مدينة "پونزا" بين أناسٍ لا تعرفهم، وفي مرة أخـرى حُملت على طائرة "لـو كوسـت" منخـفضة التكلفـة متجهـة إلى مدينـة برشـلونة. شـاركت في مسابقات لعبة الورق "بوراكو" دون حماس وسرعان ما أدركت أن الحياة ما هي إلا خروجـات مرهقة مـن لقـاءات عـشاء مملـة ولقـاءات لا معنـى لهـا. اسـتطاعت ملاحظـة أنـه في هـذه اللقاءات المليئة بالغرباء، ربما احترامًا لها، لم يـتم تقـديم الرجـال غـير المـرتبطين لهـا حتـى. لم تتحدث "تشيتشيليا" قـط عـن "فيـديريكو سـيربييري"، وعنـدما حـاول ابنهـا جرّهـا إلى هـذه المنطقة الشائكة، أصبحت ماهرة في تحويل الحوار إلى موضوعات أخرى.

فقط "ليڤيا" هي من تفهمت ذلك الحنين الأليم لهـذا الحـب تعـيس الحـظ الـذي أصـبح موضوعًا تتناوله الصديقات بالحديث عنه. تحدثت واحدة من معارفها، وهي تعمل في مجـال علم الاجتماع وتعيش وحيدة، عن رغبتها في إضافة تجربة "تشيتشيليا" إلى دراسـتها "الجـروح العاطفية"، والتي تدور حول افتراضية أن الرجال الذين لديهم قدرة على الحب إمَّا متزوجـون وإما مثليون، لكن يمكن إضافة فئة المرضى المهووسين إلى هؤلاء.

بالنسبة لـ"إرنستو"، فقد كان مقتنعًا بأنـه إذا تعلـق الأمـر بالحـب، فـإن والدتـه غـادرت الملعب قبل حتى أن تلعب المباراة. تجنَّب الفتى استشارة "كاميلّو"، التـي نـصح بهـا "چيبّـو"، وقرر أن يتصرف بمفرده.

قبل أيام قليلة من انتهاء المدرسة، بينما كان يبحث في أحد الأدراج عن بطاقته الشخصية، وجد خطاب الحب الذي كتبه لـ"چوليا" وقرر أن يعيد قراءته بحس ناقد أدبي ومعلِّـق. كانـت صفحات مكتوبـة بعنايـة جيـدة، تحمـل الكثـير مـن الاسـتلهام، وشيء مـا مـن الفخـر. أيقـن "إرنستو" بأنه لا توجد فتاة عدا "چوليا پراتيزي" تستطيع المقاومة أمام هذا التعلـق العـاطفي الكبير بها.

جلس "فيديريكو سيربييري" في مقهى بمحطة القطار، وهو ينظر إلى "خالد" الذي كان يأكل الطبق الثاني وبه ساندويتشان ممتلئان بالتونة والطماطم.

كان صندوق الشاب السنغالي متروكًا تحت أحد الكراسي ومحتوياته غير مرتبة.

قال "خالد":

- يؤسفني أن البضاعة كلها موضوعة بفوضوية. هل تود أن ترتبها أنت؟

أبعد هذا الطلب "سيربييري" عمَّا يفكر به. ظل الأستاذ يحدِّق فيه، لكن دون أن يراه أو يرى أي شيء حوله.

- يا صديقي، إن كانت الفوضى تسود الكون فباستطاعتها فعل ذلك أيضًا في صندوقك الذي تستخدمه في عملك.

أراد "خالد" مقابلة الأستاذ وتحيته قبل أن يرحل إلى مدينة "پاليرمو" حيث ينتظره هناك ابن عم له.

لكن، منذ أن جلسا معًا، بدا الأستاذ حاضرًا فقط بجسده، يشرب القهوة وإيحاءٌ بالهزيمة واضحٌ في عينيه. كان الشاب يعتبر نفسه غير ملائم لمساعدة سيد إيطالي أكثر غنى منه، وأكثر حرية منه، وأكثر اتباعًا للقانون منه. وعلى الرغم من ذلك، كان يتألم من أجله، إضافة إلى أن ذلك هو آخر لقاء بينهما.

- سأرسل لك صورًا من حفل الزواج.

لم يبدِ "فيديريكو سيربييري" أيردود فعل توحي بالمفاجأة بسماعه لهذا الوعد، نظرًا لأن "خالد" تحدَّث عن الحفل الذي سيربطه إلى الأبد بخطيبته آخر مرة تقابلا فيها.

قال "فيديريكو سيربييري":

- شكرًا. سأكون سعيدًا بذلك. ستكون رحلة السفر طويلة، فانتبه حتى لا تضيع هديتك.

أزاح "خالد" أستك ملابسه الداخلية كي يتأكد مرة أخرى من رزمة النقود، هدية زواجه من الأستاذ.

- اطمئن، فأنا أعرف كيف أخبئها.

ثم حانت لحظة التحرك نحو القطار، عانق "خالد" "سيربييري" بتأثر شديد، حيث اعتبره الإنسان الوحيد القادر على أن يُحسِن إليه في حياته المليئة بالتعب والإرهاق.

- لماذا أصبحت نحيفًا هكذا؟

كان يدرس حالة اللامبالاة الجديدة التي طرأت على الأستاذ واستخلص منها النتيجة التالية:

- أنت بحاجة إلى امرأة.

كست هالة من الاضطراب وجه "سيربييري" الجميل، ثم وعده "خالد"، وهو لا يدري بأنه قد أتى على جرح الأستاذ المؤلم في قلبه، بأن يكتب له وانطلق في طريقه. ظل الأستاذ يراقبه بحزنٍ بالغ حتى اختفى الشاب في طريقه نحو رصيف القطار.

بعد ذلك بساعة، عاد "سيربييري" إلى بيته المهجور. كانت "چوليا" قد أغلقت على الأرنب والسنجاب الطائر في قفصيهما، وخرجت بصحبة الكلب والطفلة. ذهب الأستاذ إلى المطبخ كي يعد لنفسه فنجانًا من الشاي، وحوله ينتشر جوٌ مليءٌ بالكآبة، وبينما يشعل غلاية المياه، انتابته حالة من الحنين القوي إلى أحضان "تشيتشيليا". عذَّبه غيابها. استرجع في خياله شريط حبهما

القصير، المرة الأولى لجسديهما الذائبين في حالة من العـشق، وهـروبهما الجـرئ المجـازف مـما تعرضا له من الضيق المُحبِط، ثم لحظات العشق السرية التي تبادلاها في الأيام الأولى.

كان "سيربييري" يشعر بأنه محظوظ لعثوره صدفة على المرأة الأكثر روعة، ولم يكن يفهـم لماذا لا يظل كل الرجال في هذه المدينة الشاردة خارج أبواب بيوتهم للبحث عـن الحـب. هـو متأكدٌ من أنه لم يجرب من قبل لوعة كهذه منذ أن انفصل عن "دورينا"، كما أنـه متأكـد مـن أن تلك المرأة استولت على قلبه فجأة. كان الحب دائمًا لغزًا غامضًا بالنـسبة لـه، فكـل إنـسان معرض لأن يقع ضحية لسحر الحب اللعـين، وهـو أولهـم، بعـد أن أدرك ذلـك، لم يـستطع أن ينجو بنفسه من ذلك، وخان كل مبادئه.

كان الأستاذ على وشك الذهاب إلى مكتبه عندما غـيَّر جـرس البـاب نيتـه. ظـن أن الوقـت لايزال مبكرًا على عودة "چوليا" و"أوديليا"، وعلى الرغم من مخاطرتـه بـالتعرض لزيـارات غـير ملائمة من طالبي الصدقات، فتح دون أن ينظر في العين السحرية للباب. وجد أمامـه رجـل في الثلاثين من عمره تقريبًا، يرتدي نظارات مستديرة، وقبعة من القطن تخفي جبهته، لـه لحيـة غير محلوقة وابتسامة خجولة.

- صباح الخير يا أستاذ.

لم يُخفِ "سيربييري" دهشته وأجاب:

- صباح الخير يا "كاميلّو".

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك، ربما كان عليّ تنبيه حضرتك قبل أن آتي.

- لا مشكلة! لكن لا تقف هنا على الباب. تفضَّل.

لم يكن الأستاذ بحالة مزاجية جيدة لاستقبال الضيوف، لكن مع كرم أخلاقه المعتاد سعى إلى أن يجعل الأخصائي النفسي على راحته. وقدَّم له على الفور فنجانًا من الشاي، ثم دعاه ليجلس سائلًا إياه عن حال الطلاب. كان "كاميلّو" في حالة من الحيرة، ولكن عندما بدأ في الرد، بدأ يستعيد شجاعته، اتفقا في النهاية على أن وجود الأخصائيين النفسيين في بعض المدارس أكثر إفادة من وجود القس. عندئذٍ شعر "كاميلّو" بالهدوء وشعر "سيربييري" بأنه بإمكانه أخيرًا إرضاء فضوله.

- ما سبب زيارتك المفاجئة يا "كاميلّو" يا عزيزي؟

عاد الأخصائي النفسي بشيء من الفظاظة إلى دوره الوظيفي الذي كاد يتخلى عنه بكل ود.

- اسمعني يا أستاذ.. هناك مَن هو قلق على صحة حضرتك في المدرسة وطلب مني أن آتي لزيارتك.

نجح الأخصائي النفسي في انتزاع ضحكة من "فيديريكو سيربييري".

- شكرًا، ولكنك لست قسًّا!

خشى "كاميلّو" من أن يقوم برد فعل عدواني، فلم يرد على الإهانة التي وُجهت إليه.

- أفندم! ولكني أخصائي نفسي.

أكد "كاميلّو" على ما قاله كما لو كان يؤكده لنفسه، لكن نظرته بدت وكأنّها نظرة توسل، وفجأة وبشكل غير متوقع، امتلأت عيناه بالدموع.

سأل الأستاذ في قلقٍ، مستغربًا رد الفعل العجيب ذلك:

- ماذا يحدث يا "كاميلّو"؟ هل هناك خطبٌ ما؟

- ماذا؟! بما أنك سألتني. نعم. أنا لست بخير بأي شكل من الأشكال.

أعطاه صاحب المنزل في شفقة أحد مناديله النظيفة للغاية المصنوعة من الكتَّان.

قال وهو يأخذ المنديل ويجفف عينيه:

- أظن أن الحديث عن ذلك سيجعلنى بحال أفضل.

- بالتأكيد. أنا أسمعك.

بينما كان الأستاذ ينتظر بصبر كي يجد "كاميلّو" الكلمات الصحيحة ليصف آلامه، تـذكَّر مـا قاله "چيبّو"، فقد كان هذا الشاب مثيرًا للشفقة.

- سأقول لحضرتك شيئًا سيدهشك، ولكنني لا أعرف كيف أبدأ.

- ابدأ من النهاية، فهذه طريقة ممتازة دائمًا.

- هل عرفت حضرتك أني مثلي جنسيًّا؟

ظل "سيربييري" جامدًا، وقال:

- نعم، بالتأكيد.

- حقًّا؟ من ناحية أخرى أنا لا أجعل هذا الأمر غامضًا، فالطلاب أيضًا يعرفون ذلك.

سجَّل الأستاذ هذه المعلومة في ذاكرته، لكنه لم يستطع التخلص من شعوره بعدم الارتياح، فقال:

- عزيزي "كاميلّو"، لا أظن أنك ستقول لي إنك فعلتها مع أحد التلاميذ. أتمنى ألا تكون قد فعلتها حقًّا!

ابتسم "كاميلّو" بلمحة خفيفة من الخبث في عينيه، وقال:

- لا يمكنني فعل ذلك أبدًا، ثم إن الرجال الأكبر سنًّا يروقونني أكثر.

أثارت الإجابة الأخيرة قلق الأستاذ مثل الإجابة التي سبقتها. وفهم "كاميلّو" ذلك بسهولة، فقال:

- لا تقلق حضرتك، لا أقصد الإهانة، لكنك لا تروق لي، ولست هنا كي أطلب منك ذلك. مشكلتي هي أنني أشعر بالوحدة.

وضع "سيربييري" الفنجان وقام بتحليل سريع للمشكلة، حيث دخل المسكين "كاميلّو" في حالة من البكاء والشفقة على النفس.

بدأ شكواه من جديد ووجد الأستاذ نفسه مشاركًا لآلامه. قال "كاميلّو":

- أنا لا أستطيع حتى التردد على الأماكن المخصصة للرجال فقط، فهي أماكن تخيفني.

- لكن يا "كاميلّو" لا يجب أن تفقد الأمل، فأنت متعلم وصاحب مظهر حسن. ومَن يدري كم من الشباب يمكنهم أن يسعدوا برفقتك.

كان الأخصائي النفسي يتمسك بالنبرة المقنعة للأستاذ فقال:

- هل حضرتك تظن ذلك حقًّا؟

- بالتأكيد. ثم إن هذه الأماكن ستكون ملائمة للإشباعات الجنسية، لكن عندي شعور بأنك تطمح في شيء أفضل. هل أنا مخطئ في ذلك؟

- لست مخطئًا، ولا يعنيني الجنس فقط من أجل الجنس، فأنا أجد ذلك أمرًا مؤسفًا. أود مقابلة شخص يمكنني أن أحبه.

وباعترافه بضعفه هذا، كان "كاميلّو" في موقف صعب.

- تظن حضرتك أن هذا أمر سخيف.

- لا أظن شيئًا من هذا القبيل على الإطلاق.

بحث "سيربييري" عن الكلمات الصحيحة لمواساته، لكن بانتهاء كل ما لديه من كلمات مواساة، وجد وسيلة أخرى يواسيه بها من صفحة "اعرف مستقبلك" التي كان يقرؤها تقريبًا كل صباح لـ"أوديليا" بناءً على طلبها، فقال:

- يجب أن تكون لديك ثقة في المستقبل يا "كاميلّو"، سوف ترى أن القدر يعرف أكثر منك عن المستقبل.

ظهر الأمل في عيني الأخصائي النفسي، فاستمر الأستاذ في محاولته لزيادة الطموح لديه.

- نظرًا لأنك هنا، أود أن أطلب منك تدخلًا مهنيًا، بالطبع إن كان لديك الوقت لمساعدتي.

سأله الأخصائي النفسي وقد استعاد شجاعته وثقته في نفسه من جديد:

- بكل سرور. بمَ يتعلق الأمر؟

- ابن عمي "أسكانيو سيربييري" باحث شاب في العلوم الفيزيائية ويمر بحالة نفسية سيئة، ويعيش منذ فترة حابسًا نفسه في مخبئه دون أي أمل.

كان "سيربييري" قلقًا بشأن تصرفات ابن عمه. وعلى عكس "كاميلّو"، كان "أسكانيو" يحب الذهاب إلى الأماكن المخصصة للرجال فقط، لكن الأستاذ اعتبره رجلًا تؤرقه الوحدة العاطفية، بالضبط مثل الرجل الذي يعاني أمامه.

- إن "أسكانيو" رجل ذو موهبة ولكن لديه شخصية مختلفة، يكرس نفسه فقط للبحث ولموسيقاه.

سأل "كاميلّو" مهتمًا:

- هل ابن عم حضرتك.. عازف؟

- فقط كهواية، ولكنه عازف موهوب للغاية لموسيقى الچاز، وينجح عمومًا في كل نشاط يشارك فيه بشكل ممتاز.

أضاء وجه "كاميلّو" للمرة الثانية.

- أنا أعشق موسيقى الچاز وعندي المجموعة الكاملة لـ"كول بورتر" ولكثيرين آخرين.

- إنها صدفة رائعة.

وصل "سيربييري" إلى مكتبه وفتح أحد أدراجه وأعطى إلى "كاميلّو" كارتًا شخصيًا.

- ها هي وسيلة للاتصال به. وأنا مقتنع بأن المواجهة مع أخصائي نفسي في مثل خبرتك من الممكن أن تساعده في إعادة نظره لحالة كراهية الجنس البشري التي يمر بها.

أخذ "كاميلّو" الكارت بسعادة عارمة. ثم عاد يقول في قلق:

- لكن، ماذا لو لم يوافق؟

- سيوافق، سترى. قل له أيضًا أني مَن أرسلك، وأخبره بعشقك لموسيقى الچاز. سيدعوك إلى المكان الذي يقدم فيه عروضه يومًا كل أسبوع.

بحماسة بالغة لهذا اللقاء الجديد، أدخل "كاميلّو" الكارت في جيبه ونهض من الكنبة.

أنهى الأستاذ الحوار وهو يسلم عليه باليد.

- أنا متأكد من أنكما ستصبحان صديقين عظيمين أنتما الاثنان.

رد "كاميلّو" بينما كان الأستاذ يصطحبه إلى الباب:

- أشكرك كثيرًا. لقد أراحني الحديث مع حضرتك.

- أرجو أن تبعدك هذه المهمة الجديدة عن الأفكار الأكثر حزنًا. وعلى كل حال، يمكنك أن تُبلغ عزيزي "لويچي" بألا يتألم من أجلي.

توقف الأخصائي النفسي عند الباب وفي حيرة من أمره التف نحو الأستاذ قائلًا:

- يتحدث "لويچي" كثيراً عن حضرتك، ولكنه ليس الشخص الذي طلب مني أن آتي إلى هنا.

ارتبك الأستاذ، وقال:

- آه.. أتقول إنه ليس هو؟

- إن الأستاذة "باسّاني" قلقة على صحة حضرتك، إنها هي من ترجتني لكي أمر على حضرتك.

عند سماع "سيبريبري" لهذا الاسم، شعر بحرارته ترتفع على الفور. فقد كانت "تشيتشيليا" قلقة من أجله، وكانت تتألم لدرجة أنها لجأت إلى طلب مساعدة هذا الفرد الضعيف. شعر الأستاذ بأن قلبه يكاد ينفجر بسبب تلك اللوعة.

سأله "كاميلّو":

- هل تريد مني أن أقول لها شيئًا ما؟

حدَّق الأستاذ فيه مرتبك الذهن. كان يقول في ذهنه: "نعم، يمكنك أن تقول لها بأني أفتقدها كل دقيقة وكل ليلة وفي أحلامي ما زلت أشعر بمذاق فمها، وقل لها إني أود أن أضمها إليَّ وأن أغطيها عندما تشعر بالبرد وأن أحكي لها عن شعوري بالحب و...".

- يا أستاذ، هل حضرتك على ما يُرام؟ لقد شحب وجهك تمامًا.

أيقظه صوت "كاميلّو" من هذيان ذلك الحب الصامت.

- نعم. نعم، أنا بخير. أنا بخير.

كان الأخصائي النفسي يلاحظه قلقًا في انتظار إجابة.

- يمكنك أن تقول لها الحقيقة.

- وما هي؟

- بأنك وجدتني أعاني.

- اتفقنا.

وبعد إشارة أخيرة من العرفان، واضعًا في جيبه الكارت الشخصي لـ"أسكانيو"، انصرف "كاميلّو" وهو يقول:

- سأتصل بابن عم حضرتك اليوم.

انطلق ذاهبًا، وبمجرد أن انغلق الباب، ترك "سيربييري" نفسه يسقط على أحد الكراسي متأثرًا بأحاسيس متضاربة. كانت القوة النفسية للعشق تطوقه لتتركه لا حول له ولا قوة. لم تنسه "تشيتشيليا" كما لم ينسها، لكنه وجد نفسه في حالة من الارتباك، فهناك امرأة تسعى إلى إنقاذ شخص ليس لديه فرصة للنجاة بين كائنات الكيوبيد مثله. ثم فكَّر في نفسه وفي حالته اليائسة. إنّه محاصر في نفق الحب ذلك ولا يرى لنفسه مخرجًا منه. في النهاية، وجد نفسه مستعدًا لخيانة مبادئه مرة أخرى، هو الذي وجَّه تحذيرات عديدة للأجيال الشابة، هو، بالتحديد هو، ذلك الذي منح فرصة لارتباط اثنين منذ قليل.

كانت الأيام التالية لزيارة "كاميلّو" وإعطائه رقم قريب "فيديريكو سيربييري" مؤلمة بشكل خاص للأستاذ. انتهى العام الدارسي بالفعل، وأبلغت "چوليا" الأستاذ أن العديد من التلاميذ سقطوا في النتائج التي هي أشبه لهم بكتيبة الإعدام. كانوا يستنجدون به ويستغيثون به، فقد هجرهم لمصيرهم، وبين السقوط في النتائج والتعليقات عليها، تركت هذه المذبحة عددًا ضئيلًا من الناجين.

استسلمت الأستاذة الاحتياطية لمادة التاريخ والفلسفة في فصل 3/2 وتركت أسلحتها أرضًا لتسمح للفصل بالإدارة الذاتية الكاملة، فكان "چورچو" يعقد الدرس جالسًا على مكتب الأساتذة، بينما الأستاذة عديمة الخبرة تكتفي بالإشارة بالموافقة أو بتدوين الملاحظات خلفه. أمَّا "سيربييري" فكانت أيامه تمر في حالة من الوحدة، كان يرعى الحيوانات ويقرأ بينما "أوديليا" و"چوليا" تقضيان أيامهما الصيفية على البحر أو في إحدى الواحات الطبيعية.

وفي يوم الأحد في آخر شهر يونيو، حدث شيٌء حاسٌم لمصير "فيديريكو سيربييري". كان ذهن الأستاذ منشغلًا للغاية في الفترات الأخيرة بتسجيل علامات انكساره في حياته اليومية، ولم يتعجب أن تعبِّر "أوديليا"، بعد أن أعطته قبلة تهنئته بعيد ميلاده، عن رغبتها في تكريس يوم الأحد لتنظيف الحديقة بالقرب من المنزل عوضًا عن تكريسه لوالدها.

ونظرًا لأن لديه إيثار كبير، لم يأسف الأستاذ لقضاء عيد ميلاده في وحدة. أمَّا بالنسبة لـ"أوديليا"، لم تكن لديها صحبة أكثر بؤسًا من صحبته، لذا فبالتأكيد كان إخلاء الأرض من المخلفات الورقية والأكياس الملقاة يعدَّل من مزاجها دون شك. تركها تذهب بعد أن أعطاها ابتسامة وقبلة وأعد نفسه للقيام بتمشية تأمُّلية طويلة. كان يسير بخطوات بطيئة عبر الأزقة، ويسيطر عليه إحساس بشع باللامبالاة.

منذ ساعات، دخل في عامه الواحد والخمسين. كانت فكرة ضياع بقية عمره دون وجود "تشيتشيليا" إلى جانبه تعذبه.

سار دون هدف طوال فترة كبيرة من النهار، وأثناء ساعة الغداء، قبل العودة إلى المنزل، توقف عند بائع الزهور في الزاوية ليأخذ بعض الورود الحمراء، ورود العشق. كل ثلاثة أيام كان يشتريها ويضعها على مكتبه، كان ذلك بدافع "ماسوشي" أي حبًا في تعذيب النفس كي يتذكر كل المرات التي أهدى معذبته الورد وليشعر بها هكذا أكثر قربًا.

كان يصعد السلالم على قدميه عندما وصل إلى الطابق الثاني، وصلته ضحكات بعض الأولاد قادمة بالتحديد من شقته، فمد خطواته وعندما فتح الباب ظل مبهورًا من المفاجأة. بدا أن منزله قد استعاد الحياة بين ضحكات هذه الأعمار المختلفة، كما لو كان الأولاد يملأون المكان بأكمله.

كان "چورچو" و"إرنستو" يضبطان قطع الشطرنج جالسين فوق الكنبة، و"پييترو" مستلقيًا على ذراع الكنبة يُشغِّل أسطوانات صاحب المنزل، أمَّا "چيبّو" فأعطى ظهره للباب ووقف متأمِّلًا بفضول السنجاب الطائر داخل قفصه.

- بالتأكيد جميل. أليس كذلك؟

"مارتا"، التي كانت تضع على المائدة أطباقًا من ورق الكرتون فوق بعضها، هي أول من ابتسم له، بينما هو، دون أن ينطق، كان سعيدًا بهذه المفاجأة التي تنم عن الحب.

نطق "سيربييري" كلماته الأولى هامسًا:

- يا أولاد إن رؤيتكم هنا.. تمنحني فرحة عارمة.

خرجت "چوليا" و"أوديليا" من المطبخ. كانت الطفلة تحمل تورتة كبيرة بمساعدة جليسة الأطفال.

- سنة حلوة يا بابي.

وضعت التورتة فوق المائدة، وغنى الأولاد لوقتٍ وجيز أغنية "سنة حلوة يا جميل"، ثم أطفأت الطفلة الشموع بدلًا من والدها.

- شكرًا.. حقًا شكرًا من كل قلبي.

التف الجميع حول أستاذهم الذي أخذ يشد على أيديهم ويلاطفهم. بدأ أحدهم في توزيع حلوى البروفيترول. وشربوا النبيذ الفوَّار، بينما حمل الأستاذ طفلته بين ذراعيه.

احتضنهم "سيربييري" واحدًا واحدًا. بدا الجميع وكأنهم في إجازة، وكي لا يفسد لهم تلك الأجواء لم يسألهم عن النتائج الدراسية.

أطلعت "چوليا"، التي أصبحت خبيرة بأسرار المنزل، "مارتا" على كتاب مصوَّر عن القبَّعات العريقة، وطلب "پييترو" استعارة أسطوانة من مجموعة الأستاذ، وهو ما رحَّب به الأستاذ. كان "إرنستو" صامتًا وللحظة شعر "فيديريكو سيربييري" بشيء من الحيرة، بينما يقدِّم له كأسًا من النبيذ الفوَّار. اقترب "چورچو" من مدرسه وأخذ يتفحصه، كما لو كان عالمًا يدرس تفاعلات كيميائية يجب تفسيرها.

- لقد فقدت كثيرًا من وزنك. هل تعرف ذلك؟

سارعت "مارتا" بإضافة ردها بنظرة موجهة دائمًا نحو المكتبة.

- لكن الأستاذ يظل دائمًا الأجمل.

دافع الأستاذ عن نفسه تقريبًا بشيء من الخجل، وقال:

- يا أولاد، بمجرد أن أكون قادرًا، أعدكم أن أعود للتدريس، لكنني ما زلت في حاجة من الوقت لاستعادة لياقتي.

كان حضورهم المفعم بالحب والعاطفة قد خفف من إحساسه بالذنب، حتى وإن شعر بوضوح في لحظة بشكل غير متوقع أن الجو العام بدأ يتغير. كان الأولاد يتبادلون نظرات تفهُّم. حدَّق "چورچو" في عينيه بنظرة تحمل هدفًا محددًا.

- نحن نفهم ذلك، ففي نهاية الأمر مواد حضرتك بقدر ما لها من فائدة اجتماعية، إلا أنها مثل اللغة الميتة.

كان الحشد المتجمِّع حوله سلميًا، لكن "سيربييري" رأى في هذه الكلمات تحذيرًا مشؤومًا. أدرك من البداية أن طلابه لم يأتوا للاحتفال فقط، واتضح أنه لم يكن مخطئًا في ذلك.

قرر "إرنستو" أن يتحدث، وقال:

- إن والدتي بحالة سيئة.

كانت لهذه الكلمات القليلة أثر الحجارة الصغيرة التي تسقط من أعلى الجبل، لكنها تصبح أثقل وأثقل مما تلتقطه من حجارة أخرى أثناء سقوطها حتى تصل إلى سفح الجبل لتصيب الأستاذ دون شفقة.

- ماذا تقول يا "إرنستو"؟ هل حدث لها شيء؟

رد الفتى بدهاء:

- هي مريضة بك.

كتم "إرنستو" ضحكة خفيفة مقابلًا النظرة المتواطئة معه لـ"چوليا".

- إن "تشيتشيليا" معرَّضة للموت. هل تعرف ذلك؟

هكذا هاجمت الفتاة الأستاذ الذي تلاشت الفرحة التي سيطرت عليه منذ دقائق قليلة.

- لماذا كان عليها أن تقع في حبي أنا بالتحديد، لماذا كان عليها أن تكون أستاذة في مدرستكم هذه، لتتعرف عليَّ أنا على وجه الخصوص وتترك كل هذه المدارس والمعاهد المنتشرة في المدينة. إنّه الحظ السيئ.

تبادل "چورچو" و"إرنستو" النظر، ثم قال للأستاذ بثقة:

- من الواضح أن ذلك كان مُقدرًا، ولا يمكن الهرب من القدر، كان قدماء اليونان يؤمنون بذلك أيضًا. هل تذكر حضرتك الشعر في العصر الهيلينستي[9] بعد انتهاء عصر المدينة اليونانية القديمة؟ دوافع الإنسان الحقيقية بأن يترك

---

(9)- العصر الهيلينستي فترة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تزخر بالكثير من مظاهر الحضارة في ذلك الحين. وقد بدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام 323 ق.م.

نفسه لمذهب المتعة، النبيذ، فهو هـروب مـن الواقـع، وكـذلك الحـب عـلى وجـه الخـصوص. وبالنسبة للإنسان فإن الطريق الوحيد للهرب يكون المتعة دائمًا، حتى وإن كـان الأمـر يتعلـق بوقتنا الحاضر. فلتتذكر يا أستاذ، هنا والآن.

بعد ما قاله "چورچو"، أصبح ذهن "سيربييري" أكثر ارتباكًا. وكـما لـو كانـت إشـارة متفقًـا عليها مسبقًا، تفرَّق الأولاد. وضع "چيبّو" السنجاب الطـائر في قفـصه مجـددًا ومـسح يديـه في قميصه، وأخذت "مارتا" أوراقًا بيضاء من إحدى حافظات الورق ووضعتها على الطاولة كما لو كانت سكرتيرة تحت التدريب. كان الأستاذ يرى تحضيرات غامضة حوله، وبعين ذكية لمح ذلك في ابنته أيضًا، فأدرك أن الطفلة على علم بذلك أكثر منه.

نصحته "مارتا" بلطف:

- يا أستاذ، أمسك بقلمك الحبر الجميل لأنك ستحتاجه الآن.

بمجرد أن أخرج من جيبه قلمه الحبر من ماركة "باركر"، وجد نفسه جالسًا أمام حفنة من الأوراق ناصعة البياض وبدأ يدرك ماذا بانتظاره.

- يا أولاد، لقد تأخر الوقت لمعالجة الأمر، لقد خيبـت ظـن "تشيتـشيليا" بـشكل لا يمكـن مغفرته. ورفضها هو العقاب العادل.

ضحك "پييترو" قائلًا:

- نحن لدينا في ذهننا شيء أكثر قسوة بكثير.

بينما كان المدرس محاصرًا بتلك الاستعجالات المتطفلة، شعر أن الحبَّ حبلٌ يهدد بشنقه.

- مبادرتكم تستحق المدح وأعرف هدف رسائل الحب، لكـن يؤسـفني، لـست عـلى ألفـة بالكتابة العاطفية. وكما ترون أنا أعمى يقف أمام الغروب.

أسكتته "چوليا" قائلة:

- لحسن الحظ أننا نلاحظ ذلك بشكل جيد للغاية.

أوضح "چورچو" سبب حصارهم له، أمسك في يديه كتابي فلسفة.

- سأعيد مذاكرة هذين الكتابين العام المقبل، وبالتالي مـن الأفـضل لحـضرتك أن تعـود إلى المدرسة.

اقترب "چيبّو" منه وسلَّم عليه باليد بحرارة، وقال:

- آه، يا أستاذ إنهم يأخذونني الآن لتنظيف الحدائق، لقد جعلوني من حُـماة البيئـة، هـل تتخيل ذلك؟

أجابه "سيربييري":

- إنه مكانك يا "چيبّو"، حرًا تجري في الأراضي المليئة بالأعشاب.

- أجري؟ أنا في هذا الحر لا أستطيع حتى الوقوف على قدمَيّ.

كانت المجموعة عند الباب بالفعل عندما تذكر "سيربييري" شيئًا، وقال:

- قبل أن تنصرفوا، افتحوا الدرج الأخير في ذلك الكومودينو، وتقاسموا بينكم مـا يحتويـه. أرجوكم.

ذهب "پييترو" ليفتح الدولاب القصير الذي يعود إلى القـرن الثـامن عـشر، وظهـر العديـد من أزواج الجوارب من القطن الأبيض.

فسأل "چيبّو" ضاحكًا:

- مُذهل، يا أستاذ، ماذا حدث؟ هل سرقت أحد الباعة الجائلين الأجانب؟

كان "سيربييري" يستمع إلى الأولاد وهم يعلقون مندهشين ويختارون الجوارب ويتبادلون الآراء حولها. كان "خالد" ليسعد بذلك. ملأ "پييترو" حقيبة ظهـره، واختـارت "مارتـا" لزملائهـا الآخرين وزوجين لـ"ماركو"، واستطاع "چيبّو" أخذ ثلاثة أزواج من أجل "كـاميلّو"، بيـنما فـضَّل "چورچو" عدم أخذ أي شيء من الجوارب.

تمنَّى الأولاد للأستاذ صيفًا طيبًا وخرجوا. خرجت "چوليا" مع "أوديليا" و"فلاك". وصوت حديثهم على السلالم وصوت خطواتهم اختفى بسرعة ليحل الصمت.

لم يذهب "إرنستو" معهم. ظل جالسًا على الكنبة وهو يهز ركبته اليمنى دارسًا الأستاذ الذي لم يعبأ بوجود "إرنستو"، وأخذ يحدِّق مضطربًا في الأوراق الموجودة أمامه. ظلا هكذا صامتين لبعض الوقت.

قال "إرنستو" ليكسر الصمت:

- أظن أنه قد حان الوقت كي أخاطبك بصيغة أنت.

نظر إليه "سيربييري" وابتسم. لم يندهش مما قاله، ولكن بنبرة الصوت الحاسمة تلك.

- إن وجدت ذلك مناسبًا فإن الأمر يسعدني كثيرًا.

نهض "إرنستو" واقترب من الطاولة، وبحركات واثقة أخرج خطابه وسلمّه إلى الأستاذ.

- هذا خطاب حب كتبته من أجل "چوليا" العام الماضي.

- متأكد من أنه على مستوى جيد.

كرَّس "سيربييري" نفسه للقراءة، ومن السطر الرابع إلى ما بعده، شعر الأستاذ وكأن هناك سماوات وأمواجًا تتحرك ولحظات غروب، كان انتصار الطبيعة يظهر في كل جملة وكل الصفحات تنطق بشعور عاشق.

فهم "إرنستو" من نظرته شديدة الذهول ومن إيماءاته أن الأستاذ يقدِّر النص المكتوب وأنه أُعجِبَ به.

- إذًا من الخسارة عدم استخدام هذا الخطاب. ألا تتفق معي؟ الآن سأقوم بالإملاء وأنت تكتب، وفي النهاية ستوقع عليه: "مع حبي، فيديريكو".

لم يود "سيربييري" تصديق جدية هذا الاقتراح، وبحركة اعتراض نظر إلى الخطاب كما لو كان كوبًا من مشروب الشوكران.

- "إرنستو"، لا يمكنك أن تطلب مني شيئًا كهذا، إنه خطاب لم أكتبه أنا، فهذا يسمى انتحالًا.

- لماذا لا ينتحل الحب أذهاننا؟

بدا الأستاذ خائفًا أمام شبح "فرانكشتاين" الملازم له، بدا الأمر خارج سيطرته، وأصبحت أفعال "إرنستو" لا يمكن التنبؤ بها.

وضع التلميذ يده على كتف الأستاذ.

- "سيربييري"، هل تحب والدتي؟

- بالتأكيد. أنا أعشق "تشيتشيليا".

- إذًا فلتفعل شيئًا.

أطاعه الأستاذ، الذي كان مستسلمًا بالفعل لذلك المخلوق الغريب، وأخذ برقة قلمه الحبر "الباركر" وبدأ عملية النقل.

- حبي...

بدأ "إرنستو" الإملاء وأخذ الأستاذ يكتب في صمت، مركزًا على النص، ولكن عندما وصلا إلى المواجهة مع "ڤينوس" لـ"بوتِّيتشلّي"، توقف المُملي.

قال "إرنستو":

- يجب أن نغيِّر هذا الاستشهاد وأن نجد آخر بدلًا منه يتناسب أكثر مع والدتي.

- لا أسمح لك بذلك، فأنا أجد الاستشهاد ممتازًا هكذا.

رد عليه "سيربييري" معاندًا ذلك التغيير واستأنف كل منهما عمله لصفحتين أخرتين. وبعدئذ كان الكاتب هو مَن توقف هذه المرة.

فسأل "إرنستو" فزعًا:

- ماذا حدث؟

- عندما يحين الوقت يجب أن تضع في اعتبارك جامعة "مانشيستر"، فهناك يعقدون دورة دراسية ممتازة في الأدب، وأنت تتمتع بموهبة عالية يا "إرنستو".

- سأفكِّر في ذلك، لكن يجب أن أصلح حال والدتي أولًا.

ضحك "إرنستو" واستكملا الكتابة والإملاء حتى الكلمات الأخيرة، الكلمات الوحيدة التي أحسها حقًّا الكاتب: "بحُبٍ لا ينتهي، فيديريكو".

***

حل نصف شهر يونيو، وخلت "مدرسة مورجانتِه" من العاملين بها. تبقى فقط الأساتذة المنشغلون بامتحانات الثانوية، حيث أصبحوا رهائن لتلك المدينة شديدة الحرارة.

قضت "تشيتشيليا" تلك الأيام بين اجتماعات فوضوية وقرارات مليئة بالمعاناة، وفي المساء عند وصولها إلى المنزل كانت تقع على السرير منهكة. نادرًا ما كانت تقبل دعوات السينما أو العشاء، وفضَّلت البقاء وحدها هائمةً في ذكرى قبلات "فيديريكو سيربييري" ولقاءاتهما القليلة، التي كانت كافية لتغذي خيالاتها.

بعد أن أغلقت الباب أمام ذلك الحب المعقد، بدأت "تشيتشيليا" تنمي شكوكها بأنها استسلمت للهرب بشكل متهور للغاية. وبعد شهر من اختفاء "سيربييري"، لم تتوقف عن تذكُّر ملاطفاته الرقيقة التي طغت على أي ذكرى لتصرفاته الغريبة.

عندما اصطحبت "تشيتشيليا" "كاميلّو" إلى مكان عرض الموسيقى الچاز، حيث يعزف صديقه الجديد، قال لها الأخصائي النفسي إنَّه وجد "فيديريكو" يعاني، لكن "تشيتشيليا" ظنت أن سبب معاناته هو ابتعاده عن التدريس. ففي نهاية الأمر، "فيديريكو" هو مَن هرب منها آخر مرة. لم تنسَ وجهه المنزعج وقت الغروب في حديقة "ڤيلا بامفيلي".

افتقدت "فيديريكو" كثيرًا، والدفاع المستميت للأولاد بدأ يحرك ساكنًا، وبعودتها لوحدتها من جديد، أدركت"تشيتشيليا" أنه من بين المميزات في مصاحبة شخص غريب الأطوار أنه لا يمكن أن تشعر بالملل بسهولة.

أعدت لنفسها كوبًا من الشاي العشبي، وبعد تنهيدة أخيرة، لجأت إلى الدواء المنوم الـذي أراحها أكثر من غيره. قامت بتشغيل التليفزيون، وغيَّرت القنوات مرتين، ثم أطفأتـه بعـد أقـل من عشر دقائق، وانتهت من شرب الشاي. بعدها أطفأت النور في الصالة وذهبـت لتنـام. وفي الثالثة صباحًا استيقظت منزعجةً مـن الأرق. مستـسلمة، قـررت أن تقـرأ الفـصل الأخـير مـن "نسخة بارني"، عندما جعلها صوتُ حفيفٍ قادمٍ من الطرقة تنتفض مفزوعةً. قبـل ثلاثـة أيـام لحق "إرنستو" بـ"بييترو" في بلدية "ساباوديا"، أي أنها وحدها في المنزل. نهضت، وعلى أطـراف قدميها وصلت إلى المدخل، وهناك على الأرض، أمام الباب، وجدت خطابًا. فوق المظروف كان مكتوبًا اسمها. أخذته وبرعشة ركضت كي تحضر نظاراتها من غرفة النوم، ثم عادت بسرعة إلى الصالة وبدأت تقرأ جالسة على الكنبة.

كانت رسالة طولها أربع صفحات. لم تتلقَ في حياتها رسـالة أكـثر غرامًـا مـن هـذه. الاسـم المكتوب في النهاية سبَّب لها تغيرًا سـعيدًا في إيقـاع نبـضات قلبهـا. بالتأكيـد، بعـض العبـارات كانت متفردة، مثل التلميح إلى الزواج الأحادي لحيوان الباندا أو حتى الاقتراح المخيف لمراقبة الـشهب وهـما في كـيس النـوم. وعـلاوة عـلى ذلـك، كـان التـشبيه بينهـا ولوحـة "ڤينـوس" لـ"بوتِّيتشلّي" يبدو لها مليئًـا بالخيـال. لكنهـا مجـرد تفاصـيل، الأجمـل في ذلـك الخطـاب هـو جرأته.

كيف لرجل بالغ مثله أن يبدي ضعفًا كهذا ويعبِّر عن عشق خالص كذاك العشق؟

أجابت "تشيتشيليا" نفسها:

- بالطبع يستطيع، فهو مجنون!

أغلقت الخطاب مقتنعة بقضاء بقية حياتهـا مـع "فيـديريكو سـيربييري"، حتـى وإن كـان ذلك في مستشفى للأمراض النفسية. كانت تركض نحو التليفون عندما دفعها إحساس غريب إلى النظر من النافذة، وعندها رأته. كان بالأسفل في الشارع يقف مستندًا على حائط. أصـبح نحيفًـا. كان يرتدي قيمصًا أزرق وبنطالًا من الكتان، بدا وكأنـه يلمـع، وبتلقائيـة وقـف يـدخِّن سـيجارة، وهو أمر جديد عليـه تمامًـا. اختفـى تعبـير تأنيـب الـضمير المعتـاد مـن وجهـه خلـف عـصبيته

الواضحة، فقد كان يرتعش في انتظار رد، ووجدت "تشيتشيليا" الموقف كله مثيرًا جنسيًّا لها بشكل لا يُصدق.

لم تنتظر لتغيير قميص النوم، ودون تفكير فتحت باب شقتها ونزلت السلالم. كاد الأستاذ يفقد الوعي من هول الموقف عندما رآها تخرج من بوابة البيت، وشعرها غير ممشط، سعيدة وبقميص نومٍ شفَّاف. لم يتذكرها بهذا الجمال، تخلص على الفور من السيجارة، وانطلق نحوها. التقيا في الساعة الرابعة صباحًا.

لم تكن "تشيتشيليا" تشعر بالحاجة إلى الحديث، حاولت فقط أن تقبِّله، لكنه أوقفها بعذوبة.

بعد شهر من الغياب، كانت روحه الذواقة تحتاج للحظة من التفكر، وتوقف عند مصدر حبه بنظرة مسحورة. لم تكن حاسة النظر في هذا الظرف الحاسة المفضلة من جانب "تشيتشيليا"، فهي تفضِّل الآن حاسة اللمس، فعادت إلى الهجوم قاصدة الفم. هذه المرة قاومها الأستاذ باقتناع أقل. وفي المحاولة الثالثة للهجوم، قابل فمها بقُبلة، واضعًا أسلحته أرضًا، مستسلمًا للاستشهاد في سبيل الحب.



يوليو

توجهات جديدة



صعد "إرنستو" على متن أحد القطارات السريعة لـ"يورو ستار"، تحرّك الساعة 11:15 متجهًا إلى مدينة برلين في صباح شديد الحرارة لشهر يوليو. زاد وزنه ثلاثة كيلوجرامات، أعادت له بضعة أيام من البحر والشمس المظهر الصحي الذي كان يتمتع به قبل عام.

مناورًا بحقيبة ظهر كبيرة، دخل المقصورة التي جلست فيها سيدة مسنة تحكي قصة خرافية بنبرة طفولية لطفل صغير يبلغ سنوات قليلة من العمر، بينما تقوم بتحريك دمية أمام عينيه المأخوذتين. ألقى "إرنستو" التحية وردت السيدة التحية مبستمة، بينما التفت الطفل نحوه بفضول.

في الرحلات الطويلة في القطارات، كان "إرنستو" ينجح في أغلب المرات في الانتهاء من قراءة روايات كاملة. كان يحب التنقل بهذه الوسيلة لهذا السبب، فالساعات الخالية التي لا نهاية لها هي الحل النموذجي لقراءة دون إزعاج، ولكن في تلك المناسبة مع صوت الراوية العجوز، والحكاية الخرافية لـ"عقلة الإصبع"، والطفل الصغير المذهول من وجوده، بدا ذلك البرنامج الجميل في خطر.

سرعان ما اكتشف أنهما جدة وحفيدها. كانا يرتديان ملابس ثقيلة، لأن درجة حرارة العربة كانت بالتأكيد أقل برودة من درجة حرارة القطب. ارتدى

"إرنستو" المعطف الجينز واستغرق الدقائق الخمس التالية كي يُدخل بـصعوبة حقيبـة الظهـر الضخمة فوق حامل الحقائب، وفي النهاية جلس أمام السيدة. ثم أخرج من حقيبتـه الـصغيرة الـ"آي باد" وكتابًا وقطعة حلوى "الماريتوتسو" بالقشدة، وبينما كان يأكلها على ثلاث قضمات، وجد فجأة بين صفحات رواية "قاموس عائلي" خطاب مصور. كانت الورقة الملصقة بالخطـاب قد كتبت بخط مألوف له:

عزيزي "إرنستو"،

سرقت نسخة خطابك من خزانة "تشيتشيليا" وكتبتها من جديد.

أزعم أن هذه الرسالة النموذجية لها دورها الاجتماعي، وبالوضع في الاعتبـار

أنه ليس من الممكن أن تشارك أبدًا في أي مسابقة أدبية، فإنه من الملائـم أن

تأخذها معك كي توزعها في أوروبا.

إن أصابك الحظ في أن تقع في الغرام، سيكون من المفيد أن تكون بين يديك.

أتمنى لك كل خير، وتحية إلى الأصدقاء.

بكل حب،

"فيديريكو"

ملاحظة:

تذكر أنه من الممكن أيضًا ترجمتها إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية. وفيما يخص الروسية، ربما أعرف إلى مَن يمكنني أن ألجأ".

ضحك "إرنستو" بينه ونفسه، وبعد أن أغلق الخطاب، وضعه في الصفحة الأخيرة للكتاب. كان على وشك أن ينغمس في الرواية عندما وجد أمامه بين ساقيه الصغير "ماتِّيا" الذي كان يسأله عن "عقلة الإصبع"، بطل الحكاية الخرافية.

- يا "ماتِّيا" يا حبيبي، تعالَ إلى جدتك، فأمام "عقلة الإصبع" طريق طويل.

كانت السيدة تنظر إليهما بسرور. لاعب "إرنستو" الطفل الصغير وأدرك أن الراوية كانت لتشركه بكل ترحاب في الحكاية الخرافية التي كانت تمثلها للطفل. لذا قرر أن يعبِّر عن رفضه بطريقة مهذبة، فوضع السماعات في أذنيه، وفتح مجددًا كتابه وحاول أن ينعزل عمَّا حوله. لم يكد ينتهي من قراءة صفحتين عندما عاد "عقلة الإصبع" لإزعاجه من جديد، هابطًا بين صفحات الرواية بعدما ألقاه عليه الطفل. كتم "إرنستو" تنهيدة يائسة وبالفعل أخذ الدمية ليعيدها إلى الطفل "ماتِّيا" الذي مد يده ليأخذ لعبته.

طمأنته الجدة:

- اعذرنا، سأطعمه الآن ثم بعدها سينام بالتأكيد.

ورد هو بنصف ابتسامة:

- لا عليكِ.

في الوقت نفسه، أشار الطفل الذي كان منجذبًا بشدة إليه، إلى مصدر أصوات ليست مفهومة بشكل كلي.

- نعم. نحن الجدات نُدللهم قليلًا. آه لو تعرف كم المرات التي يجادلني فيها ابني بخصوص تدليلي هذا.

كانت السيدة قد بدأت مونولوجًا حول التربية الحديثة عندما وصلت "إرنستو" رسالة قصيرة على التليفون المحمول من "چورچو".

"أين أنت؟".

كتب بسرعة الرد.

"لقد سافرت لتوِّي، سأتصل إن تأخر القطار".

كانت السيدة المسنة مستمرة في الحديث، وقد استسلم "إرنستو" إلى ذلك الإزعاج تاركًا الرواية مفتوحة على ساقيه، مختلسًا النظرات في صفحاتها. كان يخفض نظره ثم يرفعه، ومن المُحاوِرة إلى الكتاب والعكس، ومن حين لآخر كان يومئ برأسه.

كانت رفيقة الرحلة قد بدأت في تعديد أمور عدم التفاهم الكثيرة مع زوجة ابنها، عندما اكتشف "إرنستو" أنه لم يكن ليحتمل أبدًا الرحلة دون أن يستطيع قراءة فصل واحد على الأقل.

- يا سيدتي، اعذريني، أنا.. يجب أن أغيِّر مكاني؛ فالجو هنا شديد البرودة.

أغلق "إرنستو" الكتاب ونهض حاسمًا الأمر من مكانه، وظلت السيدة المسنة حائرة في أمرها.

- لكن، إن كان الأمر لهذا السبب، من الممكن أن نطلب من مفتش القطار أن يقلل من قوة مكيف الهواء.

- لا، لا.. يا سيدتي، دعك من ذلك. إنها مشكلتي أنا فقط. سأذهب للبحث عن مكان آخر، ثم إن لم أجده، ربما أعود إلى هنا.

أنزل "إرنستو" حقيبته الثقيلة على الفور، ووضع فيها أشياءه التي كانت مبعثرة على طاولة مقعده.

- سلام يا "ماتِّيا"، سلام يا جميل.

أهدى "إرنستو" ابتسامة ودودة بشكل كبير إلى الطفل، منتشيًا من أجل هروبه الوشيك من اهتمامات الطفل.

كانت الجدة تتابع تحركات الفتى بشيء من الأسف.

- إذًا، سلام وإجازة سعيدة.

- إلى اللقاء، وأتمنى لكم رحلة طيبة.

ابتعد "إرنستو" في الممر نحو المقصورة الأبعد، وبمجرد أن وصل إليها أحس بدرجة حرارة أكثر اعتدالًا. كانت هناك سيدة مسنة أخرى منهمكة في قراءة مجلة "المرآة" وكان زوجها نائمًا بجوارها؛ لم ترفع الألمانية عينيها نحو الراكب الجديد.

كان هناك مكانان غير مشغولين. وضع "إرنستو" حقيبته في المكان الذي كان ناحية الممر واختار لنفسه المكان المجاور للنافذة.

كانت هي نائمةً أمامه بالضبط ورأسها مسنود على زجاج النافذة. تبدو تقريبًا في الثامنة عشر من عمرها، شعرها كالشلال يصل إلى أسفل ظهرها، وترتدي قميصًا مليئًا بالألوان. انبعث منها عطر بنكهة فاكهة اليوسفي. ومستغلًا حالتها من عدم الوعي، أخذ "إرنستو" يتأمَّلها بتركيز. إنها تعجبه كثيرًا، لكنه سيطر عليه فجأةً هاجس ألا تكون تتحدث الإيطالية.

بعد بضع دقائق فتحت الفتاة المجهولة عينيها الخضراوين لتجد أمامها فتى وسيمًا نقل نظره بسرعة من وجهها إلى حامل الحقائب فوقها، ليظهر اهتمامًا غير مفهوم بالحقائب التي كانت موضوعة هناك. أمر جديد جيد. كتمت الفتاة تثاؤبها، ثم أعادت شعرها إلى الوراء وضبطت قميصها. أخذت هي الخطوة الأولى. فتحت حقيبتها الواسعة التي كانت بين ساقيها، وفي وسط المناديل ومساحيق التجميل وجريدة ما، ظهرت علبة بسكويت مدتها إلى الرفيق الجديد لرحلتها.

- هل تريد؟

استقبل "إرنستو" عرضها الذي يدل على تحدثها الإيطالية بحماس مبالغ فيه.

- آه. نعم، نعم. شكرًا. بكل سرور.

وافق أن يبتلع بسكويت جوز الهند الذي لا يحبه، وفهم أن دوره قد حان.

- أنا ذاهب إلى "برلين" وأنتِ؟

أمسكت "ڤيرونيكا" بخيط المحادثة وحكت له عن "برلين" وعن دورة اللغة الألمانية التي كانت قد التحقت بها العام السابق.

ثم قدَّم كل منهما نفسه للآخر وأوضحت "ڤيرونيكا" أن لها ابن عم عزيزًا عليها كثيرًا يحمل اسم "إرنستو". مهَّد "إرنستو" الأرض للنزول من القطار وأخبرها على الفور أن خمسة من أصدقائه ينتظرونه لاستكمال الرحلة عن طريق خطوط القطارات "إنتر ريل". كانت وجهات الرحلة محصورة بين "برلين" و"أمستردام"، لكنه كان حريصًا على توضيح شيء محدد: كان لكل منهم حريته في ترك المجموعة في وسط الرحلة لاتباع توجهات جديدة.

فهمت "ڤيرونيكا" في تلك اللحظة أنه لديها فرصة ملموسة كي تصبح جزءًا من تلك "التوجهات الجديدة".

عندها نصحت "إرنستو" بالأماكن التي يعزفون فيها أفضل موسيقى، وأطلعته على خريطة "برلين" وحددت بأُلفة واضحة بيت الشباب، حيث ينتظره رفاقه. شكَّلتْ سيقان الفتى والفتاة مسندًا وُضعَتْ فوقه خريطة "برلين".

وبينما كان العجوزان نائمين بجوارهما، أحدهما بفمه المفتوح والأخرى بجريدة فوق وجهها، ارتفع صوت شخير مزعج داخل المقصورة. شعر "إرنستو" بسعادة بسيطة لاحتكاكه بركبتي "ڤيرونيكا".

أشارت الفتاة على الخريطة إلى الطريق التي كانت تسكن فيه صديقة والدتها، التي ستستضيفها في منزلها. كذلك لم تنسَ إخباره أن خط مترو "بيرناو" يربط بين منطقتها والمنطقة التي يوجد بها بيت الشباب الذي سيبقى به "إرنستو". أعادا ثني الخريطة وابتسم كلاهما للآخر، متأكدين أن "برلين" أصبحت قريبة منهما.

حدث أمر ما في تلك اللحظة؛ تعلقت عينا "إرنستو" بعينيها، وبقيا هكذا للحظة لا نهاية لها.



كلمات شكر

إلى عائلة "بالزارُّو" وإلى "مونتِروسُّـو"، ذلـك المكـان الخـاص الـذي ولدت فيه هذه القصة.

إلى "لاڤينيا"، وإلى مداخلاتها التي تـنمُّ عـن اهـتمام دائمًـا، والتـي كانت دائمًا ذات تأثير.

صدر في سلسلة #كتب_مختلفة:

	العنوان	المؤلف	البلد
.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.3	مشروع زوجة	جرايم سيمسيون	أستراليا
.4	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.5	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.6	حذار من جوعي	ميلينا أجوس - لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.7	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا ڤينتوريني	إيطاليا
.8	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.9	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.10	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.11	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.12	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.13	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.14	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.15	خطايا الأبرياء	برهان سونماز	تركيا
.16	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.17	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.18	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.19	الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
.20	مينتا	سولماز كاموران	تركيا
.21	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.22	نساء اسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
.23	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.24	لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
.25	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
.26	ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
.27	حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
.28	كل هذا ملكي أنا	بيترا هولوفا	التشيك
.29	سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
.30	كافكا	فرانز كافكا	التشيك
.31	المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
.32	المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود

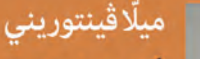
33.	امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
34.	خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
35.	ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
36.	بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
37.	النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
38.	رقصة الكاهنة	جين رينشوين	الصين
39.	المغفل	إريك نويوف	فرنسا
40.	المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
41.	النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
42.	القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
43.	الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
44.	إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
45.	صيف بارد جدًا	روي ياكوبسن	النرويج
46.	جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
47.	العشاء	هيرمان كوخ	هولندا

كتب عامّة مترجمة:

48.	هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
49.	قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
50.	الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
51.	الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
52.	الصراع الطبقي في أفريقيا	ليو زيليج	أمريكا
53.	الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
54.	يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
55.	قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
56.	أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
57.	الثورة التشيكية	مجموعة مؤلفين	التشيك
58.	ذكريات الصين	تشين يو	الصين
59.	جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
60.	الجري	ثور جوتاس	النرويج
61.	عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا

#كتب_مختلفة #إيطاليا

نعود إلى الزواج. فليكفيكم معرفة أن الزوجين يظنان أنهما ينتهيان إلى مصير مدفوع بوهم كبير وهو السعادة. الوهم بطبيعته خادع، فليس من المصادفة أن بين كل أربع حالات زواج، توجد حالة واحدة مصيرها الفشل. أولئك الذين يصمدون تدعمهم دوافع ضعيفة الحماس حقًا. سأكون ممتنًا لكم إن كتبتم في كشاكيلكم الدوافع الحقيقية التي يتم من أجلها اتخاذ تلك الخطوة المتهورة. يتزوج المرء من أجل: اقتناعات اجتماعية / مفاهيم دينية / مصالح مادية. الزواج ليس إلا واحدًا من المصايد الخادعة للحب، وأخطرها. وما هو إلا حب يُمَارس في النظام الاجتماعي ليهديكم مبادئ فارغة مثل (للأبد).



وُلدت في 24 فبراير عام 1961 فى روما حيث تعيش الآن. شاركت في كتابة سيناريو أعمال تليفزيونية متعددة، مثل، "طبيب في العائلة"، و"مكان تحت الشمس". هي أيضًا كاتبة قصص قصيرة فى المجلات، كما تكتب قصص بوليسية للأطفال. نُشرَ لها أعمال أدبية مثل: "اثنان من كل شيء وحقيبة" عام 2010 وهذه الرواية، "الحب لم يعد مناسبًا" عام 2014. ثم نُشِرَتْ لها الرواية الثالثة في 16 يونيو عام 2016 وعنوانها "رحلة عائلية في لندن". رُشِّحَتْ إحدى أعمالها للجائزة الكبرى لقارئات "إيلي". تُشرِف كذلك على ورش لتعليم الأطفال الكتابة الإبداعية.

ISBN 978-977-319-319-5

9 789773 193195 >

العربي للنشر والتوزيع

60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg



